سلسلة
معرفة الشرق
في العصر العثماني

الأمْيرْكِي الأَوَّلُ في العرَاقِ
جُوسْتِن بيرْكنْس

وَرِحْلَتُهُ مِنْ أُورِمْيَا إِلَى المَوْصِلِ عَبْرَ كُرْدُسْتَانَ 1849

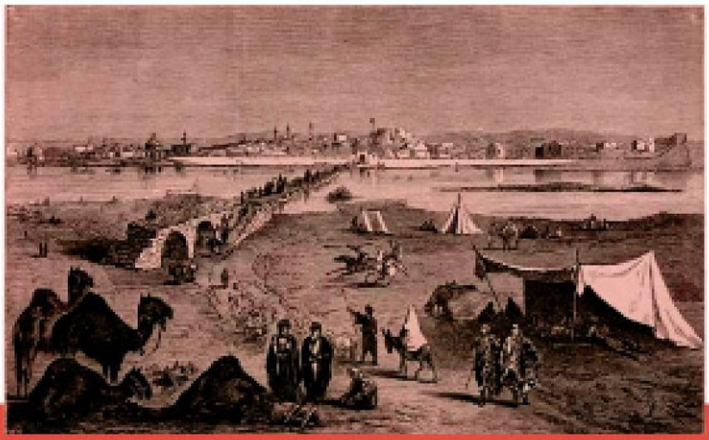

سيّار الجَميل

المركز الأكاديمي للأبحاث

الأميركي الأول في العراق جوستن بيركنس

المركز الأكاديمي للأبحاث

الأميركي الأول في العراق

جوستن بيركنس

ورحلته من أورميا إلى الموصل عبر كردستان ١٨٤٩

سيّار الجَميل

الرَّحْلَةُ الأمْريكِيَّةُ

الإهداءُ

إلى كلِّ الأصْدقاءِ النُّجباءِ الذِينَ عرفتُهُم في طفولَتِي وصِبايَ في تلكَ الرُّبوعِ السَّاحرَةِ مِنْ كُرْدِسْتانَ وأمِّ الرَّبيعَيْنِ مَعَاً

سيَّار

«ولكنْ مَنْ هُم أولئكَ الرِّجالُ البُناةُ؟ وما نوعُهُم؟ أولئكَ الذِينَ أنجَزُوا كلَّ هذِهِ الأعمالَ الخارقَةَ الجبَّارَةَ! مِنَ المُوجَبِ حقاً أنَّهُم كانوا فنَّانينَ بكلِّ ما تحويهِ هذِهِ الكلمةُ مِنْ معانٍ؛ في تلكَ الأيَّامِ الغابرَةِ والمبتدَأةِ مِنْ عمرِ التَّاريخِ البشرِيِّ، والحضَارةِ الإنسانيَّةِ، فلقد كانَتْ لهُم طرائقُهُم وآلاتُهُم الوافرَةُ الواسعَةُ، ليسَ هناكَ جديدٌ تحتَ الشَّمسِ، نحنُ نتباهَى فخراً واعتزازاً بالاختراعِ الحديثِ للزُّجاجِ، ولكنْ حتَّى هذِهِ المادَّةُ قدْ وُجدَتْ في آثارِ نينوى».

جوستنُ بيركنسُ

المُقدَّمَةُ

يسعدُنِي جدَّاً أنْ أقدِّمَ للقرَّاءِ والمهتمِّينَ والباحثِينَ الكرام هذا «الكتابَ» الذِي يروي قصَّةَ رحلةِ المبشِّرِ والرَّحَّالَةِ الأميركِيِّ الدُّكتورِ «جوستنَ بيركنسَ» وهوَ أحدُ أبناءِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، والذِي كانَتْ لَهُ رحلتُهُ المهمَّةُ التِي انتقلَ فيها مِنْ أورميَا المدينةِ الواقعَةِ جغرافِيَّاً في شمالِ غربِ إيرانَ،[1] ودخلَ حدودَ العراقِ ليخترقَ في رحلتِهِ جبالَ كردستانَ العراقِ، ويصِلَ إلى المَوْصِلِ؛ حيثُ يهتمُّ بتلكَ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ التِي كانَتْ شهرتُها قد ملأَتْ الآفاقَ.

---

(1) (أروميا ـ Urmia) مدينة سريانيّة قديمة، وتعني في السرّيانيّة "أُر مية" أي "مهد المياه" وذلك لأنّ المدينة محاطة ببحيرة وببعض من الأنهار. وكانت تسمّى في عهد الرّومان "رومية". وهي اليوم من الحواضر الإيرانيّة التي سمّاها الإيرانيّون حتى عام 1979م (الرّضائيّة) وتقع في شمال غرب إيران، وهي مركز محافظة أذربيجان الغربيّة ومقاطعة أرومية (بالفارسيّة: شهرستان آروميه). وهي على ارتفاع 1332 م عن مستوى سطح البحر إلى الغرب من بحيرة أرومية، وتغطّي مساحة أرومية بعض من السّهول الواقعة بمحاذاة التّلال، وجوها حارّ نسبيّا في الصّيف، وبارد في الشّتاء؛ ولها تاريخ عريق يمتدّ إلى نحو من ثلاثة آلاف عام. ويذهب بعض من المؤرّخين إلى أنّ أرومية هي مكان مولد "زرادشت" مؤسّس الدّيانة الزّرادشتيّة، وأكثر سكّانها من الأتراك الأذريّين، كما يوجد فيها أكراد وسريان، وتقع بالقرب منها بحيرة أرومية القريبة من الحدود التّركيّة. انظر:
Ishaya, Arianne (2002). «History of Assyrins in Urmia». JAAS XVI . See also, Collins Discovery Encyclopedia, 1st edition © HarperCollins Publishers (15-12-2005. Cf. R. Macuch, A. Ishaya) 1987 .Assyrians in Iran. Encyclopaedia Iranica
JAOS, op. cit., ;1849/04/The Letter No. 1, dated 25 .p. 71

وقدْ كانَتْ رحلتُهُ عامَ (1847م) ونشرَها في مجلَّةِ الجمعيَّةِ الجغرافيَّةِ الأميركيَّةِ عامَ (1849م) بعدَ أنْ جمعَ رسائلَهُ[1] التِي كانَ يبعثُها مِنْ خلالِ رحلتِهِ تلكَ.

ويُعدُّ «جوستنُ» أوَّلَ أمريكِيٍّ تطأ قدماهُ أرضَ كردستانَ العراقِ في منتصَفِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ. وتعلِمُنا سيرتُهُ أنَّهُ غادرَ أميركا لأغراضٍ تبشيريَّةٍ وكانَ برفقَةِ زوجتِهِ، واستقرَّ في مقرِّ البعثةِ الأميركِيَّةِ التَّبشيريَّةِ في مدينةِ أورميا بعدَ مواجهتِهِ صُعوباتٍ كبيرَةً جدًّاً في رحلتِهِ، وباشرَ عملَهُ هناكَ. وتدلُّنَا المَعلوماتُ التِي سجَّلَها ونشرَها في رحلتِهِ هذِهِ، على أنَّهُ لمْ ينجحْ أبداً في مهمَّتِهِ التَّبشيريَّةِ، ولمْ يفلحْ في جعلِ المسيحيِّينَ يغيِّرُونَ ملَّتَهُم ومذهبَهُم، ولا اليهودِ أو المسلمِينَ وغيرِهِم مِنْ أديانِهِم.

وكنْتُ قد ترجمْتُ إلى العربيَّةِ نصَّ هذِهِ الرَّحلةِ، ونشرتُهُ في مجلَّةِ «المَوردِ» العراقِيَّةِ تحتَ عنوانِ: «رحلةُ جوستنَ بيركنسَ عبرَ شمالِ العراقِ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ عامَ 1849م»[2] وقدْ كانَ العنوانُ في أصْلِ المَخطوطِ الذِي قدَّمتُهُ إلى المَوردِ هو: «رحلةُ جوستنَ بيركنسَ عبرَ كردستانَ والأرضِ الكلاسيكِيَّةِ عامَ 1849م» ولكنَّ السَّيِّدَ عبدَ الحميدِ العلوجِيَّ رئيسَ تحريرِ المجلَّةِ آنذاكَ، أرسلَ إليَّ رسالةً وعددُ المجلَّةُ في المطبعَةِ؛ قالَ فيها: إنَّهُ ليس باستطاعتِهِ نشرَ مُصْطَلَحِ «كردستانَ» ويقترحُ تغييرَهُ إلى «شمالِ العراقِ»، فسَكَتُّ على مضَضٍ! وبناءً على ذلكَ، قرَّرْتُ أنْ أغيِّرَ «العنوانَ» حالما تتوفرُ لي الفرصَةُ لنشرِ «الرَّحلةِ» في كتابٍ، وأعلنُ اليومَ عنْ تصْويبِ «العنوانِ» كما وَرَدَ في الأصْلِ بالإنكليزِيَّةِ.

(1) تحرير مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية Journal of the American Oriental Society (JAOS)

(2) سيّار الجميل «رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق الأرض الكلاسيكيّة عام 1849» مجلّة المورد (عدد خاصّ: أدب الرّحلات إلى العراق) العدد (4) المجلّد (18) بغداد، شتاء عام (1989).

ويضُمُّ هذا الكتابُ بينَ دفَّتيهِ مُقدَّمَةً، وفصلَيْنِ اثنَيْنِ؛ يعالجُ أوَّلُهُما تمهيداً ومدخلاتٍ عنْ أهمِّيَّةِ الرَّحلةِ تاريخِيَّاً، ونبذةً عنْ سيرةِ صَاحبِها «جوستنَ بيركنسَ» وأوراقِهِ وتسجيلاتِهِ وانطلاقِهِ مِنَ السَّواحلِ الأمريكِيَّةِ نحوَ الشَّرقِ الأوسطِ خلالَ (الأتلانتيك) وأوربّا وصُولاً إلى أورميا.

ويقدِّمُ ثانيهِما نصَّ الرِّحلةِ التِي قامَ بها الرَّجلُ نحوَ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ: المَوْصِل أمِّ الرَّبيعَيْنِ؛ خلالَ جبالِ كردستانَ العراقِ.

ولقدْ اعتمدْتُ فيها على رسائلِ بيركنسَ التِي نشرَها، وقمْتُ بتحقيقِ «النَّصِّ» علميَّاً، بحيثُ عالجْتُ موضِّحاً كلَّ ما وَرَدَ فيها مِنْ أسماءٍ وعناواناتٍ ومُصَطَلَحَاتٍ ومواقعَ؛ بالقدرِ الذِي نجحْتُ فيه بتوضِيحِ ما وصَلْتُ إليه مِنْ مَعلُوماتٍ كَيْ يكونَ هذا «الكتابُ» مصْدراً مِنْ مصَادرِ تاريخِ كردستانَ العراقِ وتاريخِ المَوْصِلِ الحديثِ؛ خلالَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ. وقدْ آليْتُ أنْ أوضِّحَ مِنْ خلالِ التَّاريخِ المُقارَنِ الفروقاتِ بينَ كلٍّ مِنَ المَذهبَيْنِ المسيحيَّيْنِ: المشيخَيَّةِ البروتستانتِيَّةِ التِي يؤمنُ بها بيركنسُ؛ واليسوعِيَّةِ الكاثوليكِيَّةِ / الجزويتِ.

وسيجدُ القرَّاءُ الكرامُ أنَّنِي اعتمدْتُ على جملةٍ طيِّبَةٍ مِنَ المصَادرِ والمراجعِ التَّاريخِيَّةِ والوثائقِيَّةِ والأركيولوجِيَّةِ والجغرافِيَّةِ العربِيَّةِ والأجنبِيَّةِ؛ التِي ساعدتْنِي في كلٍّ مِنَ الدِّراسةِ والتَّحقيقِ النَّقدِيِّ مِنْ خلالِ الاطِّلاعِ وقراءةِ رسائلِ هذا الرَّجلِ والتِي استخدمْتُها في مكتبةِ الكونغرسِ الأمريكِيِّ بواشنطنَ (دي سي) قبلَ سنينَ. وآملُ حصُولَ الفائدةِ المَرجوَّةِ في إضَافةِ مرجعٍ جديدٍ بالعربِيَّةِ إلى كلِّ الباحثِينَ والمؤرِّخِينَ والأركيولوجيِّينَ مِنَ الذِينَ يهتمُّونَ بدراسةِ هذِهِ المَوضُوعاتِ؛ متمنِّياً أنْ يقضِيَ هذا «الكتابُ» حاجةً يطلُبُها أبناءُ العراقِ، والثَّقافةُ العربِيَّةُ الحديثةُ.

ولا يسعُنِي في هذِهِ المُناسَبَةِ التِي أنشرُ فيها هذا «العملَ» إلَّا أنْ أشكرَ

كلَّ مَنْ ساعدَنِي في المَكتباتِ التِي استخدمْتُها، وخصُوصَاً في مكتبةِ المتحفِ البريطانِيِّ في لندنَ، ومكتبةَ جامعَةِ هامبورغ في ألمانيا الغربيَّةِ، ومكتبةَ الكونغرسِ الأمريكِيِّ بواشنطنَ دي سي، ومكتبةَ بودليانَ الجديدَةَ في جامعَةِ اكسفوردَ، ومكتبةَ اندوفر ـ هارفردَ في كلِّيَّةِ هارفردَ اللَّاهوتِيَّةِ؛ وغيرَها مِنَ الأماكنِ العلمِيَّةِ.

وأخيراً، وقبلَ أنْ أنقلَ القارئَ إلى التَّعريفِ بصَاحبِ الرَّحلةِ، أودُّ أنْ أطلعَهُ على بعضٍ مِنَ الأمورِ، فثمَّةَ إشاراتٌ في «أسلوبِ البحثِ والعملِ» لابدَّ مِنْ ذكرِها:

1ـ لقد أكدت على بعض الأمور المذكورة في الرحلة من خلال استخدام الحرف الاسود بالبولد العريض ، والتي لم لم تكن موجودة في النص الاصلي بالانكليزية .

2ـ لقدْ جاوزْتُ ذكرَ أمورٍ وجدْتُها ليسَتْ بذاتِ فائدَةٍ، وخصُوصَاً تلكَ الإنشائيَّاتُ اللَّفظِيَّةُ في الوصْفِ التِي غالى فيها صَاحبُها.

3ـ اعتمدْتُ على بعضٍ مِنَ المراجعِ المهمَّةِ في تخريجِ ومعرفةِ بعضٍ مِنَ المُصْطلَحاتِ والأماكنِ للتَّأكُّدِ مِنْ معرفتِها. ولمْ تسعفْنِي تلكَ المراجعُ المُعتَمَدَةُ في التَّعريفِ على بعضٍ مِنَ القرى المَغمورَةِ التِي ذكرَها «بيركنسُ» في رسائلِهِ؛ وربَّما عرفَها غيري بوساطةِ المُشاهَدَةِ الميدانِيَّةِ، أو مِنْ خلالِ اطِّلاعِهِ على خرائطَ ثمينَةٍ وخاصَّةٍ للمنطقَةِ.

4ـ هناكَ بعضٌ مِنَ «المَلحُوظاتِ» على هامشِ الرَّسائلِ أظنُّ أنَّها تعودُ إلى هيئةِ تحريرِ «مجلَّةِ الجمعيَّةِ الاستشراقِيَّةِ الأمريكِيَّةِ» كـ «تصْوياتٍ» مِنْهَا على رسائلِ مندوبِها «بيركنسَ» حافظْتُ عليها، وذكرْتُها في بابِ مَلحُوظاتِي على الرَّحلةِ.

ويسرُّنِي أخيراً أنْ أقدِّمَ خالصَ الشُّكرِ والتَّقديرِ إلى كلِّ مَنْ قدَّمَ لي خدمةً في إطْلاعِيَ على أرشيفِ «جوستنَ بيركنسَ» ورسائلِهِ وأوراقِهِ وإرثِهِ الشَّخصِيِّ، وإلى كلِّ مَنْ قدَّمَ لي مُساعدَةً في كلٍّ مِنْ مكتبةِ الكونغرسِ الأمريكِيِّ بواشنطنَ دي سي، ومكتبةِ جامعَةِ هارفردَ في اندوفرَ، والمكتبة البريطانِيَّةِ في كنجَ كروسَ / لندنَ، ومكتبةِ جامعَةِ تورنتو في كندا.

سيّار الجميل

أستاذُ تاريخِ العالَمِ ـ جامعة أيرزونا

استيت ـ الولاياتُ المتَّحدَةُ الأمريكِيَّةُ

مقيمٌ في أونتاريو كندا

في 21 / 1/ 2017

الفَصْلُ الأوَّلُ

المُدْخَلَاتُ

سيرةُ جوستنَ بيركنسَ وأوراقُ رحلتِهِ

أوَّلاً

جوستنُ بيركنسُ

التَّعريفُ التَّاريخيُّ

وُلدَ (جوستنُ بيركنسُ ـ Justin Perkins) في (هوليوك) ماساتشوستس في 5 مارس / آذارَ عامَ 1805م – وتُوفِّيَ في شيكوبي، ماساشوستس، في 31 ديسمبر عام 1869م) وكانَ مِنْ رجالِ المشيخِيَّةِ الأميركِيَّةِ التَّبشيريَّةِ واللُّغويَّةِ، وكانَ أوَّلَ مواطنٍ أمريكِيٍّ مِنَ الولاياتِ المتَّحدَةِ يقيمُ في شمالِ غربِ إيرانَ ويزورُ كردستانَ العراقِ وربوعَ المَوْصِلِ، وأصْبحَ يُعرفُ في عملِهِ بينَ النَّاسِ هناكَ بأنَّهُ "رسولٌ إلى بلادِ فارسَ".[1]

ولقدْ وقفْتُ أثناءَ زيارتِي الأخيرَةِ للولاياتِ المتَّحدةِ الأميركِيَّةِ على العديدِ مِنْ آثارِهِ وأوراقِهِ ورسائلِهِ، وفحصْتُ ما يوجدُ في كلٍّ مِنْ مكتبةِ الكونغرسِ وماساشوستسَ، واطَّلَعْتُ على الأماكنِ التِي كانَ يرتادُها والكتاباتِ التِي كتبَهَا بخطِّ يدِهِ؛ وخصُوصَاً الرَّسائلَ التِي كانَ يرسلُها مِنْ إيرانَ والعراقِ، كونَهُ أوَّلَ أميركِيٍّ يزورُ كلَّاً مِنَ البلدَيْنِ، ويكتبُ التَّفاصِيلَ الأدبيَّةَ الشَّيِّقَةَ عنْ المناطقِ التِي زارَها، كما اطَّلَعْتُ على كتاباتٍ كُتِبَتْ عَنْهُ؛ وقامَتْ بتوجيهِ الضَّوءِ على تراثِهِ وسيرتِهِ الذَّاتِيَّةِ.

و «جوستنُ بيركنسُ» مِنْ أصْلٍ ايرلنديٍّ، ومِنَ الرَّعايا الذِينَ كانُوا قدْ توطَّنُوا غربَ مُقاطَعَةِ سبرنغ فيلد، إذْ وُلدَ في ولايةِ ماساشوستس،

(1) Frederick Torrel (1934). Justin Perkins article, Dictionary of American Biography Vol. VII. New York: Charles Scribner's Sons. pp. 475–476.

وبالتَّحديدِ في منطقةٍ تُدعى اليومَ مدينةَ (هوليوك) وهوَ ابنُ «وليامَ بيركنسَ» و «جوديثَ كلوفَ بيركنسَ» وكانَ سليلَ عائلةِ «جونَ بيركنسَ» الذِي كانَ قدْ قَدِمَ أميركا ضِمنَ المهاجِرينَ الايرلنديِّينَ الذِينَ وصَلُوا إلى ماساتشوستس عام (1631م) واستقرُّوا في نهايةِ المطافِ في (ايبسويتشَ) في تلكَ الولايةِ الرَّائعَةِ، وذلكَ عامَ (1633م).

قضَى «جوستنُ» سنِيَّهُ الأولى في المزرعةِ التي توارثَتْها عائلَتُهُ منذُ عهدٍ بعيدٍ، وتلقَّى دروسَهُ الدِّينيَّةَ منذُ كانَ طفلاً صَغيراً حتَّى غدا وهوَ في سنِّ الثَّامنَةَ عشرَةَ وقدْ ملكَ خبرةً دينِيَّةً مَشهُوداً لها بالقوَّةِ، فالتحَقَ بأكاديمِيَّةِ ويستفيلد،[1] وكانَ ذكيَّاً في دروسِهِ، ومخلصَاً للمُؤسَّسةِ التِي تربَّى فيها، وأكملَ دراساتَهُ اللَّاهوتِيَّةَ، وتخرَّجَ مَعَ مرتبَةِ الشَّرفِ في كلِّيَّةِ «أمهرست» عام (1829م)[2] ثمَّ عُيِّنَ مدرِّساً، فكانَ مهنِيَّاً وناجِحَاً في التَّدريسِ العامِّ في أكاديمِيَّةِ أمهرستَ، ثمَّ أكملَ دراستَهُ على مدَى سنتَيْنِ في «أندوفر» اللَّاهوتِيَّةِ،[3] وقضَى سنةً واحدَةً كمدرِّسٍ خاصٍّ في كلِّيَّةِ «أمهرست» قبلَ سيامتِهِ وزيراً وعضْواً في مجلسِ الشُّيوخِ في صَيفِ عام (1833م) وخلالَ الوقتِ ذاتِهِ، وبالتَّحديدِ في 21 يولَيو/ تمُّوزَ (1833م) تزوَّجَ مِنْ «شارلوتَ باسَ» بعدَ أنْ التقَيا وعاشَا قصَّةَ حبٍّ وعشْقٍ قويَّةً، وهِيَ مِنْ مدينةِ «ميدلبري» في «فيرمونت» وأنجبا سبعةَ أطفالٍ؛ ولكنْ عندَما يذهبُ في رحلتِهِ نحوَ إيرانَ؛ يصْحبُ عائلتَهُ مَعَهُ، يموتُ ستَّةٌ مِنْ أطفالِهِمَا في بلادِ فارسَ! ويبقَى لهُما طفلةٌ واحدَةٌ تنجُو معَهُما وحدَها مِنَ الموتِ هناكَ، وهِيَ ابنتُهُما «جوديثُ» ولكنَّها تموتُ وهِيَ في بدايةِ شبابِها

(1) Loc. Cit.

(2) Justin Perkins (AC 1829) Papers, ca. 1830- 1869 Finding Aid

(3) See The Persian flower: a memoir of Judith Grant Perkins of Oroomiah, Persia (1871).

ومراهقتِها بمرضِ الطَّاعونِ، وذلكَ قبلَ عودتِها إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ.[1]

ولقدْ ذكرَتْ التَّسجيلاتُ القديمَةُ، أنَّ «بيركنس» أبحرَ نحوَ الشَّرقِ، وخصُوصَاً إلى بلادِ فارسَ لأغراضٍ تبشيريَّةٍ، كَيْ يؤهِّلَ نفسَهُ مِنْ أجلِ الحصُولِ على البوردِ الأمريكِيِّ، فغدا واحداً مِنَ المُفوَّضِينَ ضمنَ البعثاتِ الخارجِيَّةِ، وتمَّ تعيينُ أمكنةِ عملِهِ كونَهُ واحداً مِنْ أعضَاءِ الكنيسةِ الشَّرقِيَّةِ الآشورِيَّةِ في شمالِ غربِ بلادِ فارسَ. [2]كما جاءَ في تلكَ التَّسجيلاتِ الخاصَّةِ في صَفحةِ بايوغرافيَّتِهِ، أنَّهُ وجدَ أنَّ مِنَ الضَّرورِيِّ أنْ يكونَ في خدمةِ النَّاسِ الذِينَ كانُوا يعيشُونَ حياةَ الفقرِ والجهلِ، وسيعملُ ظاهرِيَّاً على تحريرِ أولئكَ الأقنانِ مِنْ حكَّامِهِم المسلمِينَ![3] وقدْ ذكرَتْ تسجيلاتُهُ أنَّهُ مِنْ أجلِ مُعالجَةِ تلكَ المسائلِ، أنشَأ مركزاً للتَّبشيرِ في مدينةِ «أورميا» وذلكَ عامَ (1835م) وكانَتْ بعثتُهُ تصْطحبُ أيضَاً «آسائيل» (وهو طبيبٌ أمريكِيٌّ) ومَعَ كلٍّ مِنْهُما زوجتُهُ: «شارلوتُ» و «جوديثُ» (كامبل نى).[4]

وقدْ اعتمدَ «بيركنسُ» في مهمَّتِهِ التَّبشيرِيَّةِ على اثنين مِنْ رجالِ الدِّينِ الشَّرقِيِّينَ، ودَرَسَ على أيديهِما كلَّ المَعلوماتِ التِي تساعدُهُ جغرافِيَّاً واجتماعِيَّاً ودينِيَّاً، وهما «أوراهام قاشا» و «مار يوهنان» وكانَ هذا الأخيرُ يقفُ على رأسِ الكنيسةِ الآشورِيَّةِ في الشَّرقِ كأسقفٍ مِنْ أورميا؛[5] وقدْ التقى «بيركنسُ» مَعَهُ عامَ (1843م) وذلكَ عندَما زارَ «مار يوهنان»

(1) Loc. Cit.
(2) Justin Perkins (AC 1829) Papers, ca. 1830- 1869 Finding Aid
(3) Loc. Cit.
(4) The Persian flower: a memoir of Judith Grant Perkins of Oroomiah, Persia (1871).
(5) Loc. Cit.

الولاياتِ المتَّحدَةَ الأمريكِيَّةَ،[1] واتَّفقا على مَشروعِ الرَّحلةِ بهمَّةٍ منقطعَةِ النَّظيرِ مِنْ قِبَلِ «جوستنَ بيركنسَ» وكانَ عمرُهُ (35) عاماً، وكانَتْ مهمَّتُهُ واعظاً ومبشِّراً، ولكنَّهُ باشرَ مهمَّتَهُ على وجهِ العُمومِ بمُوافَقَةٍ كاملَةٍ مِنْ قِبَلِ رجالِ الدِّينِ المحلِّيِّينَ الشَّرقِيِّينَ في الكنيسةِ الآشورِيَّةِ، وكانَ يقيمُ غالباً في كنائسِهم، كما أنشأَ هناكَ مدرسةً للصِّبيانِ، فكانَتْ أوَّلَ مدرسَةٍ لاستخدامِ التَّعلُّمِ بطرقِ تدريسٍ كانَتْ تلائِمُ الحياةَ في آسيا الغربيَّةِ. وذُكِرَ أنَّ «بيركنسَ» كانَ يتبعُ المنهجَ ذاتَهُ تقريباً في عدَّةِ مدارسَ أخرَى للبنينَ والبناتِ في القرَى المحيطَةِ بها؛ وجرَى في وقتٍ لاحِقٍ إنشاءُ عدَّةِ مدارسَ بناءً على طلبٍ صَريحٍ مِنَ الحكومةِ العثمانِيَّةِ، وهِيَ مدارسُ مماثلَةٌ لمدارسِ السُّكَّانِ المسلمينَ.[2]

وكانَ «جوستنُ بيركنسُ» أيضاً أوَّلَ مَنْ نقلَ أسلوبَ اللُّغةِ المُستخدَمَةِ كتابةً وشفاهاً مِنَ العامِّيَّةِ المُتداوَلَةِ مِنْ قِبَلِ السُّكَّانِ المحلِّيِّينَ إلى اللُّغةِ السُّريانِيَّةِ الحديثَةِ. وقدْ اعتمدَ مَشروعُهُ بعدَ أنْ قامَ بتأليفِ عدَّةِ مُؤلَّفاتٍ في تلكَ اللُّغةِ مِنْ أجلِ تدريسِها بهدَفِ تمتينِ بنيانِ الشَّعبِ؛ وقدْ كَتَبَ عَنْهُ ـ بناءً على ما تركَهُ مِنْ مَعلوماتٍ ـ أنَّهُ أنشأَ أوَّلَ مَطبعَةٍ في مدينةِ أورميا، وقامَ مِنْ خلالِها بإنتاجِ العديدِ مِنَ الأعمالِ، ثمانونَ منْها قامَ «جوستنُ بيركنسُ» نفسُهُ بتأليفِها، وأمَّا بقيَّةُ الكتبِ فقدْ كانَتْ في أغلبِها مُترجَمَةً، كما اشتملَتْ مهمَّتُهُ تلكَ على عملِهِ إصْدارِ مجلَّةِ (الضَّوءِ) التِي خصَّصَتْ صَفحاتِها كلَّها مِنْ أجلِ «الدِّينِ، والتَّعليمِ، والعلومِ، وأخبارِ البعثاتِ، وشؤونِ الأحداثِ، والمنوَّعاتِ الأدبيَّةِ؛ والشِّعرِ، وقدْ استمرَّتْ تلكَ المجلَّةِ بالصُّدورِ حتَّى وفاتِهِ. وزيادةً على كلِّ هذا وذاكَ، فقدْ قامَ «جوستنُ بيركنسُ» بترجمةِ أجزاءٍ مِنَ الكتابِ المُقدَّسِ (الإنجيلِ = العهدِ

(1) Loc. Cit.

(2) Frederick Torrel , . Ibid, p. 476.

الجديدِ) التِي أظهرَها في أوقاتٍ مختلفَةٍ. أمَّا النُّسخةُ الأساسِيَّةُ المكتملَةُ، فقدْ ظهرَتْ عامَ (1846م) واشتغلَ على ترجمةِ الكتابِ المُقدَّسِ (العهدِ القديمِ) عامَ (1852م) كمَا ظهرَتْ النُّسخَةُ المُشارُ إليها مَنشُورَةً عامَ (1858م) إذْ ورَدَتْ كلٌّ مِنْ نسختَيْ العهدِ القديمِ والعهدِ الجديدِ في النَّصِّ باللُّغةِ السُّريانِيَّةِ القديمَةِ والحديثَةِ على هيئةِ أعمدَةٍ متوازيَةٍ. كما اشتملَتْ أعمالُهُ الأخرَى على الكتبِ التِي قامَ بتأليفِها للمدارسِ العادِيَّةِ، وقامَ بترجمةِ العديدِ مِنَ المُؤلَّفاتِ الدِّينِيَّةِ التِي قامَ بتأليفِها كلٌّ مِنْ: إسحاقَ واتسَ، وجونَ بونيانَ، وفيليبَ دودريجَ ، وريتشاردَ باكسترَ. (1)

ولقدْ تمَّ التَّعرُّفُ عليهِ على نطاقٍ واسعٍ في ذلكَ الوقتِ بوصْفِهِ بحَّاثَةً في اللُّغةِ السُّريانِيَّةُ، وحازَ على التَّقديرِ الكَبيرِ الذِي كانَ يكنُّهُ له سكَّانُ المنطقةِ مِنَ المسلمِينَ والمسيحِيِّينَ على السَّواءِ؛ ممَّا جعلَ مِنَ السَّهلِ عليه الحصُولُ على مختلفِ الوثائقِ القديمَةِ التِي كانَتْ قيِّمَةً للغايَةِ عِنْدَ العلماءِ على مرِّ السِّنينَ.(2)

كانَ الوجودُ الأمريكِيُّ في إيرانَ خلالَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ مُمثلاً بالقيادَةِ التَّبشيرِيَّةِ المَسؤولَةِ عَنْ شبكةٍ واسعَةٍ مِنَ المدارسِ الابتدائِيَّةِ والثَّانويَّةِ في شمالِ غربِ إيرانَ؛ التِي حقَّقَتْ هدفَ محوِ الأمِّيَّةِ بينَ السُّكَّانِ الأصْليِّينَ المتحدِّثِينَ باللُّغةِ القديمَةِ الآرامِيَّةِ المسيحِيَّةِ، وكانَ «المَشروعُ» قدْ حظِيَ بمُوافَقَةِ أعضَاءٍ مِنَ الكنيسةِ الأشوريَّةِ الشَّرقِيَّةِ مِنْ أجلِ الاقتداءِ بِهِ. ولقدْ كانَ اهتمامُ الأميركِيِّينَ مُوجَّهاً لإدخالِ تحسيناتٍ في مجالاتِ التَّربيةِ والتَّعليمِ ونشرِ الكتبِ والدَّوريَّاتِ، وخاصَّةً في تأسيسِ

(1) Justin Perkins (AC 1829) Papers, ca. 1830- 1869 loc. Cit.

(2) Perkins , A Residence of eight years in Persia, among the Nestorian Christians. Andover, Mass.: Allen Morrill & Wardwell, 1843.

أوَّلِ كلِّيَّةٍ طِبِّيَّةٍ في إيرانَ وذلكَ عامَ (1879م) كما إنَّ الفضْلَ يعودُ إلى الأمريكانِ أيضَاً ـ كما جاء في تواريخِهم وتسجيلاتِهم ـ في خلقِ الفرصَةِ للتَّبديلِ في الكتابةِ العامِّيَّةِ الآشوريَّةِ نحوَ الـ (نيو) الآراميَّةِ للمسيحيِّينَ في شمالِ غربِ إيرانَ وشمالِ شرقِ العراقِ كردستانَ، وإنتاجِ الدَّوريَّةِ الأولى في إيرانَ عامَ (1849م) التِي كانَتْ واحدَةً مِنْ أبرزِ الأعمالِ المُنتَجَةِ في اللُّغةِ، وخصُوصَاً في الصَّحافةِ الإرساليَّةِ الأمريكِيَّةِ التِي تركَّزَتْ في مدينةِ أورميا التِي عُدَّتْ مركزَ انطلاقٍ نحوَ مناطقَ أخرَى.[1]

لمْ يكنْ «جوستنُ بيركنسُ» مُجَرَّدَ رجلِ مبشِّرٍ أو معلِّمٍ للمدرَّبينِ، بل كانَ أيضَاً فنَّاناً ورسَّاماً يستخدمُ الألوانَ المائِيَّةَ، وقدْ رَسَمَ عدَّةَ لوحاتٍ لعددٍ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ الذِينَ ينتمُونَ إلى الجماعاتِ العرقِيَّةِ المختلفَةِ في شمالِ غربِ إيرانَ، ونجدُ تلكَ الأنموذجاتِ الرَّائعَةَ مُتضَمَّنَةً وباقيَةً في كتبِه، وكذلكَ وُجدَتْ له العديدُ مِنَ اللَّوحاتِ غيرِ المَنشُورَةِ، حيثُ تقدَّمُ واحدَةٌ منْها عرْضَاً مُلوَّناً لبعضِ مِنَ الأزياءِ التِي تخصُّ الأعراقَ في المنطقةِ ونوعيَّةِ الأقمشَةِ المُتاحَةِ للسُّكَّانِ المحلِّيِّينَ خلالَ منتصَفِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ.

وربَّما كانَ «جوستنُ بيركنسُ» ومَعَهُ رفقةٌ مِنَ المبشِّرينَ الآخرِينَ في البعثةِ البروتستانتِيَّةِ النَّشيطَةِ في أورميا أوَّلَ مَنْ يقدِّمُ مُحاضَراتٍ حولَ إيرانَ في الولاياتِ المتَّحدَةِ الأميركِيَّةِ؛ زيادةً على كونِهِ أوَّلَ الأميركِيِّينَ الذِينَ كانُوا يعلمُون الكثيرَ عَنْ السُّكَّانِ الفرسِ، كما كانَتْ له علاقاتٌ ببعضِهِم ممَّنْ كانُوا يكثرُونَ الاتِّصَالَ به؛ في حينِ لمْ يكنْ يتمتَّعُ رسمِيَّاً بأيِّ منصِبٍ دبلوماسِيٍّ.

(1) Journal of a Tour from Oroomiah to Mosul, through the Koordish Mountains, and a Visit to the Ruins of Nineveh, Journal of the American Oriental Society, Vol. 2, 1851 (1851), pp. 69+ 71- 119.

إنَّ «بيركنس» والمبشِّرينَ الأمريكِيِّينَ، عملُوا كثيراً في وقتٍ لاحقٍ، مثلما كانَ عملُ المُوظَّفِينَ القنصُلِيِّينَ في ربوعِ المُحافَظاتِ في أوقاتٍ لاحقَةٍ.[1] وثمَّةَ تفاصِيلُ عَنْ حياةِ «جوستنَ بيركنسَ» وخصُوصَاً في حياتِهِ الأميركِيَّةِ وأدوارِهِ اللَّاحقَةِ منذُ عودتِهِ مِنْ رحلتِهِ، وقدْ استفادَتْ مِنْها الدَّوائرُ الأميركِيَّةُ على مدَىً زمنِيٍّ طويلٍ، وكذلِكَ بما قدَّمَهُ مِنْ خبراتٍ اكتسبَها مِنَ التَّجاربِ العمليَّةِ في حياتِهِ والتَّحدِّياتِ التِي صَادفها لسنينَ طويلَةٍ في الشَّرقِ الأوسطِ.[2]

المَشيخِيَّةُ البْرُوتسْتانْتيَّةُ واليَسُوعِيَّةُ الكاثوليكِيَّةُ: تاريخٌ مُقارَنٌ

(١) ـ المشيخِيَّةُ البروتستانْتيَّةُ

ينتمِي "جوستنُ بيركنسُ" إلى الطَّائفَةِ (المشيخِيَّةِ ـ Presbyteria – ism) التِي تُعدُّ جزءاً مِنَ التَّقليدِ الإصْلاحِيِّ داخلَ البِنيَةِ البروتستانْتِيَّةِ التِي ترجعُ في أصُولِها إلى الجزرِ البريطانِيَّةِ ـ وخاصَّة أسكوتلندا ـ وقدْ اشتُقَّ اسمُ الكنائسِ المشيخِيَّةِ مِنَ الطَّائفَةِ المشيخِيَّةِ ذاتِها التِي تتبعُ حكومَةَ

(1) Nestorian biography: being sketches of pious Nestorians who have died at Oroomiah, Persia. Boston: Massachusetts Sabbath School Society, 1857. Includes chapters by Perkins. See also, Missionary life in Persia: being glimpses at a quarter of a century of labors among the Nestorian Christians. Boston: American Tract Society, 1861.

(2) Works about Perkins; see, Henry Martin Perkins (1887) Life of Rev. Justin Perkins, D.D., Pioneer missionary to Persia John P. Ameer, Yankees and Nestorians: the establishment of American schools among the Nestorians of Iran and Turkey, 1834- 1850 (Harvard University PhD 1992). See also, The Justin Perkins Papers at Amherst College, 1841 Syriac Bible, at Andover-Harvard Library.

الكنيسَةِ، والتِي تجمعُ في رحابِها كلَّ الجمعيَّاتِ التِي تمثِّلُ الشُّيوخَ.[1] وقدْ تمَّ تنظيمُ عددٍ كبيرٍ مِنَ الكنائسِ الإصْلاحِيَّةِ بهذِهِ الطَّريقَةِ، ولكنَّ كلمةَ (المشيخِيَّةُ ـ Presbyterianism) غالباً ما تَصْدُقُ بشكلٍ فريدٍ على تلكَ الكنائسِ التِي تتبعُ جذورُها تلكَ المشيخِيَّةَ الاسكتلنديَّةَ والإنجليزِيَّةَ،[2] حيثُ يؤكِّدُ لاهوتُ المشيخِيَّةِ عادةً على سيادةِ الله، وسلطةِ الكتابِ المُقدَّسِ، وضَرورَةِ التَّمتُّعِ بالنِّعمَةِ مِنْ خلالِ الإيمانِ بالمَسيحِ إيماناً راسِخاً. ولقدْ تمَّتْ حمايةُ الحكومةِ للكنيسَةِ المشيخِيَّةِ في أسكوتلندا بقوانينِ الاتِّحادِ في عامِ (1707م) الذِي تمَّ بموجَبِهِ انبثاقُ وجودِ مملكةِ بريطانيا العظمَى باسمِ المملكةِ المتَّحدَةِ. وتتبعُ ـ في الواقعِ ـ مُعظمُ التَّجمُّعاتُ المشيخِيَّةُ التِي وُجدَتْ في إنكلترا في اتِّصَالِها لسكوتلاند. وكانَتْ طائفَةُ المشيخِيَّةِ قد انتقلَتْ أيضَاً إلى أمريكا الشَّماليَّةِ في الغالبِ مِنْ قِبَلِ الاسكتلنديِّينَ والايرلنديِّينَ المهاجِرينَ؛ وممَّا يُشارُ إليه أنَّهُ على الرُّغمِ مِنْ أنَّ هناكَ مَجمُوعَةً مِنْ وجهاتِ النَّظرِ اللَّاهوتِيَّةِ المعاصِرَةِ المنبثقَةِ مِنَ المشيخِيَّةِ لها دعواتُها الحرَّةُ وسياساتُها التِي تتَّبعُها؛ فإنَّ الطَّوائفَ المشيخِيَّةَ في اسكتلندا تتمسَّكُ باللَّاهوتِ الذِي نطقَ بِهِ «جون كالفن» وخلفاؤُهُ.[3]

وتكمنُ جذورُ المذهبِيَّةِ المشيخِيَّةِ في الإصْلاحِ البروتستانْتِيِّ المنبثِقِ في القرنِ السَّادسَ عشَرَ، ولكنَّ مثالَهُ ورمزَهُ يتمثَّلانِ في «كالفن» وما جرَى

(1) Frank Joseph Smith, The History of the Presbyterian Church in America, Manassas, VA : Reformation Education Foundation, 1985. P. 67.

(2) Philip Benedict, . Christ's Churches Purely Reformed: A Social History of Calvinism. (New Haven: Yale University Press., 2002), p. xiv.

(3) Mark J Englund-Krieger . The Presbyterian Mission Enterprise: From Heathen to Partner. (Wipf and Stock Publishers. 2015), pp. 40–41.

مِنْ انتشارٍ لِفِكَرِهِ في جنيفَ وتأثيرِها مِنْ خلالِ مَوقِعِها في قلبِ أوروبَّا،[1] إلَّا أنَّ مُعظمَ الكنائسِ يعودُ تاريخُها إلى اسكوتلندا، وقدْ وجدَ العديدُ مِنَ الطَّوائفِ المشيخِيَّةِ أساليبَ للعملِ جنباً إلى جنبٍ مَعَ الطَّوائفِ الأخرَى في مسائلِ الإصْلاحِ وتخليصِ المسيحِيِّينَ مِنَ التَّقاليدِ الأخرَى، ودخلَتْ بعضُ مِنَ الكنائسِ المشيخِيَّةِ في تعاونٍ نقابِيٍّ مَعَ الكنائسِ الأخرَى مثلِ الكونغرسيِّينَ، واللُّوثريِّينَ، والأنجليكانيِّينَ، والطَّرائقيِّينَ.[2]

وقدْ جاءَ المشيخِيُّونَ في الولاياتِ المتَّحدَةِ الأميركِيَّةِ ـ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ بتأثيرٍ مِنْ تجمُّعاتِ المهاجرِينَ البريطانِيِّينَ، وهِيَ جماعاتٌ كانَتْ في الأصْلِ تمثِّلُ بقدُومِها وحداتٍ جماعِيَّةً، ولكنَّها تفرَّقَتْ في أنحاءِ أمريكا الشَّماليَّةِ بسببِ الخططِ التِي اتُّفقَ عليها مِنْ قبَلِ اتِّحادِ المناطقِ الحدودِيَّةِ عامَ (1801م).[3] وقدْ كانَ المشيخِيُّونَ يميلُونَ إلى أنْ يكونُوا أكثرَ ثراءً بكثيرٍ ممَّا يعتقدُونَ، وأنْ يسْعَوْا ليكُونُوا هُم الأفضَلَ تعليماً (وجودُ المزيدِ مِنَ الدِّراساتِ العليا ودرجاتِها للفردِ) مُقارَنَةً بما نجدُهُ لدَى مُعظمِ الجماعاتِ الدِّينِيَّةِ الأخرَى في الولاياتِ المتَّحدَةِ،[4] ويتمُّ تمثيلُها بشكلٍ غيرِ متناسبٍ في الرَّوافدِ العليا مِنْ أمريكا القانونِ والسِّياسةِ.[5]

وأعتقدُ في أنَّ الطَّوائفَ المسيحِيَّةَ التِي انبثقَتْ عقبَ الإصْلاحِ

(1) Benedict, Philip , loc. cit

(2) Frank Joseph Smith, loc. cit

(3) Walter L. Lingle, Kuykendall, John W. , . Presbyterians: Their History and Beliefs (4th rev. ed.).(Atlanta: Westminster John Knox Press, 1978), pp.45–60.

(4) Encyclopedia of the Presbyterian Church in the United States of America (1884).

(5) James H. Smylie . A Brief History of the Presbyterians. (Louisville, KY: Geneva Press, 1996), p. 53.

الدِّينيِّ في أوروبَّا، كانَتْ نتيجةً تاريخِيَّةً واضحَةً كردودِ فعلٍ قويَّةٍ سبَّبَتْها الانقساماتُ الجديدَةُ، فكانَتْ المُنافَساتُ شديدَةً بينَ الطَّوائفِ الجديدَةِ لتقديمِ الإصْلاحِ؛ كلٌّ بوسيلتِهِ وطرائقِهِ وأساليبِهِ؛ وأعتقدُ في أنَّ المشيخِيَّةَ التِي تُعدُّ سليلةَ المصْلحِ الدِّينيِّ «كالفن» وُلدَتْ نتيجةً للتَّأثُّرِ بالقوَّةِ الإصْلاحِيَّةِ المسيحِيَّةِ اليسوعِيَّةِ التِي تشكَّلَتْ كردَّةِ فعلٍ كاثوليكِيَّةٍ على حركةِ مارتن لوثر البروتستانْتِيَّةِ. ويبدُو للمؤرِّخِ مِنْ خلالِ تاريخِهِ المُقارَنِ أنَّ قوَّةَ تأثيرِ الحركةِ اليسوعِيَّةِ الكاثوليكِيَّةِ المتجدِّدَةِ في قلبِ روما بتأثيرِ البابويَّةِ؛ كانَتْ أقوى بكثيرٍ مِنَ الحركَةِ المشيخِيَّةِ البروتستانْتِيَّةِ التِي انتشرَتْ في كلٍّ مِنْ اسكتلندا وإنكلترا، ثمَّ امتدَّتْ مِنْ هناكَ إلى أمريكا الشَّماليَّةِ. كما نلحظُ أيضاً، أنَّ تأثيرَ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ اليسوعِيَّةِ في مناطقَ متنوِّعَةٍ ومُحدَّدَةٍ مِنَ الشَّرقِ الأوسطِ، كانَتْ أقوَى بكثيرٍ مِنْ تأثيرِ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ البروتستانْتِيَّةِ، وعلى الرُّغمِ مِنْ بروتستانْتِيَّةِ «جوستنَ بيركنسَ» إلَّا أنَّهُ يبدُو أنَّ مِنَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ أنْ نعالجَ في هذا المُؤلَّفِ الرَّهبنَةَ اليسوعِيَّةَ، وذلكَ كَيْ تكتملَ الصُّورةُ في التَّاريخِ المُقارَنِ بينَ الرَّهبنَتَيْنِ المشيخِيَّةِ واليسوعِيَّةِ.

(٢) ـ اليسوعِيَّةُ: الجزويتُ

جذورُ الرَّهبنَةِ اليسوعِيَّةِ، اليسوعِيُّونَ الجزويتُ... مَنْ هم؟:

يُطلقُ على اليسوعِيِّينَ في اللَّاتينِيَّةِ: (Societas Iesu) أو (الرَّهبنَةُ اليسوعِيَّةُ) وهِيَ إحدَى أهمِّ وأبرزِ الرَّهبناتِ النَّشيطَةِ والفعَّالَةِ ضِمنَ أجهزةِ الكنيسَةِ الكاثوليكِيَّةِ، بل مِنْ أقواها وأكبرِها. وكانَتْ الحركةُ اليسوعِيَّةُ قد تشكَّلَتْ على يدِ القدِّيسِ «إغناطيوس دي لويولا» إبَّانَ القرنِ السَّادسَ عشَرَ على عهدِ بابويَّةِ البابا بولس الثَّالثِ في إسبانيا، وكانَتْ جزءاً حيويَّاً مِنْ حركةِ الإصْلاحِ الدِّينيِّ المضَادِّ الذِي انتشرَ بفعلِ (مارتن لوثر) في إعلانِهِ عام (1517م) وقدْ تولَّتْ الحركةُ مهمَّةَ التَّبشيرِ

المسيحِيِّ لـ (الكثلكةُ المتجدِّدَةُ) ونشرَ الدِّيانةِ المسيحِيَّةِ ضِمنَ الأسلوبِ اليسوعِيِّ الجديدِ في العالمِ الجديدِ.

وقدْ بقيَتْ حركةُ الرَّهبنَةِ اليسوعِيَّةُ مِنْ أقوَى الحركاتِ التِي تميَّزَتْ بها مُنظَّماتُ الكنيسَةِ الكاثوليكِيَّةِ بمُجمَلِ تأثيراتِها، ورُفِعِ مؤسِّسُها (إغناطيوس) إلى مرتبةِ قدِّيسٍ سنةَ (1622م)[1] ولكنَّها جرَّاءَ أعمالِها وتحرُّكاتِها، اصْطدَمَتْ في نهاياتِ القرنِ الثَّامنَ عشَرَ بعددٍ مِنَ السُّلطاتِ في أوروبَّا، ممَّا تسبَّبَ في حلِّها، وذلكَ سنةَ (1773م) وبقيَ هذا القرارُ ساريَ المَفعُولِ حتَّى سنةِ (1814م) حيثُ تمَّ إلغاؤُهُ مِنْ قِبَلِ البابا «بيوس السَّابعِ». وكانَتْ الرَّهبنَةُ اليسوعِيَّةُ قد عُدَّتْ عِنْدَ تأسيسِها «الأكثرَ حداثَةً ودلالَةً، إذْ إنَّها نجحَتْ في تجسيدِ كلٍّ مِنَ الكفاءَةِ والفاعلِيَّةِ، وستصْبحُ كلٌّ مِنْ هاتَيْنِ السِّمتَيْنِ دلالتَيْنِ واضحتَيْنِ ومميِّزتَيْنِ لِمَا اتَّصَفَتْ بِهِ حضَارةُ العالمِ الحديثَةُ».[2]

انتشرَتْ حركةُ الرَّهبنَةِ اليسوعِيَّةُ وتنظيماتُها في (112) منطقةً جغرافِيَّةً مُوزَّعةً على قارَّاتِ العالمِ السِّتِّ، وكانَ مركزُها الأساسِيُّ في روما، وهِيَ تتبعُ نمطَ الإدارةِ اللَّامركزِيَّةِ، وغدا لها ـ مَعَ مرورِ الزَّمنِ ـ إدارتُها لأعدادٍ كبيرَةٍ جدًّا مِنَ المدارسِ، والجامعاتِ، والمستشفَياتِ، ودورِ العجزَةِ، ومراكزِ الارتباطِ، والمكتباتِ، والكتاباتِ؛ وإجراءِ الحواراتِ. كما

(1) JOHN W. O'MALLEY, SJ, The Jesuits: A History from Ignatius to the Present, (Rowman & Littlefield Publishers, 2014), pp. 10- 24.
Jonathan Wright,, . God's Soldiers: Adventure, Politics, Intrigue & Power: A History of the Jesuits (Image; Reprint edition, 2005) , pp. 201- 4. 207- 8.

(2) Christopher Chapple,. Jesuit Tradition in Education & Missions: A 450-Year Perspective (Chicago: Chicago University Press, 1993), pp. 137- 9.

اهتمَّتْ بالحوارِ المسكونيِّ، والفهمِ اللَّاهوتِيِّ، وروحِ المُساعدَةِ؛ وكفالةِ العدالةِ الاجتماعِيَّةِ. وقدْ عُرِفَ الرُّهبانُ الأعضاءُ مِنَ المنخرطِينَ في هذا ـ النِّظامِ ـ باسمِ «جنودُ الله» وذلكَ بسببِ تاريخِ مؤسِّسِ الحركةِ المُثقلِ بالسِّماتِ العسكرِيَّةِ، ومدَى الطَّاعةِ التِي تتضَمَّنُها قواعدُ الرَّهبنَةِ اليسوعِيَّةِ بينَ هياكلِها، والتِي تزدادُ قوَّةً واحتراماً للشُّيوخِ، وكبارِ السِّنِّ، ولكلِّ العاملِينَ في أصْقاعِ العالمِ.[1]

جذورُ التَّاريخِ المُبْكرِ لحركةِ اليسوعِيِّينَ الجزويت

بدأ «إغناطيوس دي لويولا» في (15) أغسطسَ / آبَ عامَ (1534م) أي بعدَ (17) سنةً على إعلانِ (مارتن لوثر) للإصْلاحِ الدِّينيِّ... بدأ مَعَ ستَّةٍ مِنْ زملائِهِ في جامعةِ السُّوربونِ بباريسَ بتأسيسِ جمعيَّةٍ سمَّوْها «أصْدقاءٌ في الرَّبِّ» وأعتقدُ في أنَّ ذلكَ جاءَ كفعلٍ مضَادٍّ للحركةِ اللُّوثرِيَّةِ! فقدْ سافرَ «دي لويولا» مَعَ صَحبِهِ نحو روما، كَيْ يحصُلَ على التَّرخيصِ الكنسِيِّ القانونِيِّ مِنَ البابا بولسَ الثَّالثِ، فكانَ أنْ نالُوا إجازتَهُم ولكنْ بعدَ إكمالِهِم دراساتِهِم اللَّاهوتِيَّةَ، وغدوِّهِم كهنةً مُرسَّمِينَ في مدينةِ البندقيَّةِ، وقدْ وضَعَ فيها «إغناطيوس دي لويولا» مَشروعَهُ بتأسيسِ دستورِ الرَّهبنَةِ الذِي تمَّتْ مُصَادَقَةُ البابا عليهِ يومَ (27) سبتمبر / أيلول عامَ (1540م)[2] أي بعدَ (23) سنةٍ مِنْ إعلانِ (مارتن لوثر) وغدا ذلكَ اليومُ مُناسَبَةً للذِّكرَى الرَّسمِيَّةِ لتأسيسِ الرَّهبنَةِ. وأعتقدُ في أنَّها مُحاوَلَةٌ

(1) John M. Hobson, . The Eastern origins of Western civilisation. (Cambridge, UK: Cambridge University Press. 2004), pp. 194–195.

(2) William V. A Bangert , History of the Society of Jesus (Institute of Jesuit Sources , 1989) pp. 189- 195. Cf. Manfred Barthel,. Jesuits: History & Legend of the Society of Jesus (William Morrow & Co; 1st U.S. ed ,1984) .pp. 60- 7.

ناجحَةٌ للتَّجديدِ الكاثوليكِيِّ، أو أنَّها الحركةُ الكاثوليكِيَّةُ الجديدَةُ التِي حدَّدَ فيها البابا العددَ الأقصَى لأعضَاءِ الجمعِيَّةِ بستِّينَ عضْواً، واستمرَّ ذلكَ نحواً مِنْ ثلاثِ سنينَ، ثمَّ عادَ في شهرِ آذار / مارس عامَ (1543م) وألغى الحدَّ الأعلى؛ وقدْ اختِيرَ «إغناطيوس» رئيساً عامَّاً وتنفيذِيَّاً للجمعِيَّةِ التِي بدأَتْ تكبرُ وتتوسَّعُ كثيراً، وانتشرَ أعضَاؤُها في عمُومِ بلدانِ أوروبَّا يعملُونَ بكلِّ جدٍّ ونشاطٍ في تأسيسِهِم المدارسَ، والكلِّيَّاتِ، والمكتَباتِ، ومتاحفِ المَأْثُوراتِ والأيقوناتِ؛ وصَارَتْ هذِهِ الحركةُ تنضَجُ جيلاً بعدَ جيلٍ، إذْ قامَ اليسوعِيُّونَ بتدريسِ الفلسفةِ واللَّاهوتِ، زيادةً على تمكُّنِهِم مِنَ العلومِ التَّطبيقِيَّةِ الحديثَةِ ذاكَ العصْرِ، وقامُوا بإلقاءِ مُحاضَراتِهِم عَنْهَا، ووقَفُوا مساندِينَ للنَّزعةِ الإنسانِيَّةِ التِي بدأَتْ تنتشرُ منذُ باكوراتِها الأولى، فكانُوا سنداً لها وعُدُّوا مِنْ «محرِّكِي الثَّقافةِ الإنسانِيَّةِ المعاصِرَةِ في الفلسفة» كما اهتَمُّوا بالتَّعاطفِ مَعَ النَّاسِ ومشكلاتِهِم وأمراضِهِم وتكوينِ أبنائِهِم؛ مشدِّدِينَ على أهمِّيَّةِ التَّكافلِ والألفةِ والتَّعاضُدِ وروحِ المُساعَدَةِ كبدائلَ حقيقِيَّةٍ عَنْ الصِّراعاتِ المَأْلُوفَةِ والنِّزاعاتِ المُتوارَثَةِ والحروبِ المُستدامَةِ، واعتنَوْا بالعقلِ، واهتمُّوا بتنميَةِ الفِكْرِ؛ وخصُوصَاً في مجالِ العلومِ التَّطبيقِيَّةِ، وكانُوا كما وُصِفُوا مِنْ قِبَلِ معاصِريهِم روَّاداً في القضَاءِ على المَأْثوراتِ السَّاذَجَةِ والمتخلِّفَةِ في ذلكَ العصْرِ، إذْ حمَلُوا نزعَةً تحديثِيَّةً في التَّربيةِ الجديدَةِ التِي نشَطَتْ الأذهانَ متَّبِعِينَ عدَّةَ مناهِجَ حديثَةٍ في التَّغييرِ.[1]

عُدَّ الأبُ المؤسِّسُ القديُس «إغناطيوس دي لويولا» رائداً ومؤسِّساً لتاريخِ اليسوعِيِّينَ،[2] إذْ استمرَّ نشاطُهُم فعَّالاً في المرحلَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ

(1) Agustín Udías Searching the Heavens and the Earth: The History of Jesuit Observatories (Astrophysics and Space Science Library). Berlin: Springer 2003) p. 12.

(2) Philip Caraman. Ignatius Loyola: A Biography of the Founder of the Jesuits (Harper & Row 1990) pp. 111-

تاريخِهم بإيفادِهِم عدَّةَ بعثاتٍ نحوَ العالمِ مِنْ أجلِ نشرِ الإنجيلِ؛ وخصُوصَاً في المُستعمَرَاتِ البرتغاليَّةِ والإسبانِيَّةِ والفرنسِيَّةِ في ربوعِ العالمِ الجديدِ،[1] وكانَ ذلكَ يتوازَى مَعَ بعثاتِهم التَّبشيريَّةِ نحوَ أجزاءٍ مهمَّةٍ مِنَ العالمِ القديمِ، وخصُوصَاً إلى الهندِ والصِّينِ واليابانِ في آسيا، وإلى أثيوبيا وما يجاورُها في شرقِ أفريقيَّا،[2] كمَا سَعَوْا إلى تشكيلَ مُستوطَناتٍ بشريَّةٍ (مُكثلكَةٍ) يسوعِيَّةٍ في مراكزَ مهمَّةٍ مِنْ أمريكا اللَّاتينِيَّةِ والجنوبِيَّةِ؛ تحوَّلَتْ فيما بعدُ شيئاً فشَيئاً إلى مدنٍ وعواصِمَ كبيرَةٍ مثلَ ريو دي جينيرو و ساو باولو،[3] وكانُوا في سباقٍ تنافسِيٍّ واسعِ النِّطاقِ مَعَ الإصْلاحِ البروتستانْتِيِّ بالتَّركيزِ على التَّعليمِ الاجتماعِيِّ اليسوعِيِّ وقتَذاكَ، والتأكيدِ على أهمِّيَّةِ الاتِّحادِ مَعَ روما. وكانَ الأبُ المُؤسِّسُ «دي لويولا» قد كتبَ سنةَ (1554م) مَشرُوعَهُ الذِي سمَّاهُ «القوانينُ التَّأسيسِيَّةُ» وكانَ مَشرُوعُهُ قد اشتملَ على مبادئَ وقيمٍ مُوسَّعَةٍ للأنشطَةِ الرَّهبانِيَّةِ، وقدْ صَدَّرَ ذلكَ المَشروعَ بعبارةِ: «المَجْدُ للرَّبِّ الأعظَمِ» الذِي غدا شعارَ الرَّهبنَةِ الرَّسمِيَّ لليسوعِيِّينَ على امتدادِ القرونِ اللَّاحقَةِ.[4]

8.

(1) Nicholas P. Cushner Soldiers of God: The Jesuits in Colonial America 1565- 1767 (Language Communications 2002) pp. 34- 9. 134- 6.

(2) Andrew C. Ross Vision Betrayed: The Jesuits in Japan & China, 1542–1742 (Orbis Books 1994) pp. 46- 9.

(3) Jeffrey, S.J. Klaiber, The Jesuits in Latin America: 1549- 2000: 450 Years of Enculturation, Defense of Human Rights, and Prophetic Witness. (St Louis, MO: Institute of Jesuit Sources, 2009), p. 78.

(4) Thomas M., McCoog, (ed.). Mercurian Project: Forming Jesuit Culture: 1573–1580 (Biblioteca Instituti Historici Societatis Iesu 55. The Institute of

دورُ اليسوعِيِّينَ الجزويتِ في التَّاريخِ الحديثِ

سعى اليسوعِيُّونَ إلى التَّركيزِ على أهمِّيَّةِ إصْلاحِ كنيسَةِ روما، وخصُوصَاً جوانبَها الإداريَّةَ مُؤسِّسينَ لهُم المعهدَ اليسوعِيَّ في قلبِ مدينةِ روما، وقدْ اعتُبرَ هذا المُنجَزُ حَدَثاً لَهُ أهمِّيَّتُهُ في تاريخِ الرَّهبنَةِ المسيحِيَّةِ الإنجيلِيَّةِ! فقدْ مدَّ الكنيسَةَ بعديدٍ مِنَ الرِّجالِ مِمَّنْ منَحُوا «خدماتٍ جليلَةً للكرسِيِّ الرَّسولِيِّ» زيادةً على تأسيسِهِم مَيداناً مُنظَّماً ورحباً للتَّأمُّلاتِ الرُّوحِيَّةِ التِي بدَتْ الأقربَ إلى الزُّهدِ والقناعَةِ كمَا تبدُو عِنْدَ المتصَوِّفَةِ والزُّهَّادِ، وكلُّها مُستَمَدَّةٌ مِنَ الأسسِ التِي أرسَاها «إغناطيوس» حيثُ يقضِي نظامُها الدَّقيقُ باستمرارِ الكهنةِ والرُّهبانِ بقضَاءِ أربعَةِ أسابيعَ كاملَةٍ في الصَّمْتِ والتَّأمُّلِ وتركيزِ الأحاسيسِ بالتَّفكيرِ في مراحلِ حياةِ السَّيِّدِ المسيحِ. وتكونُ هذِهِ التَّجربَةُ مُعلَنَةً على الملأ؛ يمارسُها الجميعُ أمامَ العمُومِ مِنْ دونِ إخفائِها كما في تجاربِ المتصَوِّفَةِ المسلمينَ التِي تكونُ عادةً مُغلَقَةً لا أمامَ العمُومِ، كمَا جُعِلَتْ مُناسَبَةُ وفاةِ «إغناطيوس» سنةَ (1556م) فرصَةً لُمزاوَلَةِ التَّأمُّلاتِ الرُّوحِيَّةِ اليسوعِيَّةِ. وقدْ بلغَ عددُ الكلِّيَّاتِ التِي يديرُها اليسوعِيُّونَ في تلكَ السَّنَةِ ذاتِها، (74) كلِّيَّةً منتشرَةً في ثلاثِ قارَّاتٍ، وهِيَ تعتمدُ على التَّعليمِ اللِّيبرالِيِّ الحُرِّ ويُعدُّ ذلكَ الإنجازُ تاريخِيَّاً! إذْ لمْ يسبقْ اليسوعِيِّينَ أحدٌ مِنْ قَبْلُ في تحقيقِ مثلِهِ؛ لا بالنِّسبَةِ لتاريخِ المسيحِيِّينَ أنفسِهِم، ولا في تاريخِ العالمِ أجمعَ! وظهرَ منْهُم المئاتُ مِنَ العلَماءِ والمكتشِفينَ والمبدعِينَ على امتدادِ التَّاريخِ الحديثِ.[1]

Jesuit Sources 3:18. Rome and St. Louis: Institutum Historicum Societatis Iesu, 2004) , p.30.

(1) Pomplun, Trent. «Jesuit on the Roof of the World: Ippolito Desideri's Mission to Tibet."(Oxford: Oxford University Press ,2010) pp. 69- 72. Cf. . Ian D. Roberts, , Harvest of Hope: Jesuit Collegiate Education in England, 1794–1914 (St. Louis, Mo.

(٣) الشَّرقُ الأوسطُ بينَ تبشيرَيْنِ: الكاثوليكِيِّ اليسوعِيِّ والبروتستانْتِيِّ

١ـ التَّبشيرُ والقوى التَّبشيريَّةُ

التَّبشيرُ حركةٌ دينِيَّةٌ مسيحِيَّةٌ يُقصَدُ بها نشرُ الإنجيلِ بينَ مَجمُوعَةٍ مِنَ البشرِ وتبشيرُهُم بالدِّيانةِ المسيحِيَّةِ بهدفِ إدخالِهِم في الدِّينِ المسيحِيِّ وتنصِيرِهِم.

وتعرِّفُ الكنيسَةُ الكاثوليكِيَّةُ التَّبشيرَ بأنَّهُ: «عملٌ رعويٌّ يُوَجَّهُ إلى أولئكَ الذِينَ لا يعرفُونَ رسالةَ المسيحِ». ولمْ تكنْ حركةُ التَّبشيرِ إلَّا امتداداً لعملِ المسيحِ نفسِهِ الذِي كانَ مبشِّراً، وما وصَّى بِهِ تلامذَتَهُ قبلَ رفعِهِ. وطبقاً لوصَايا العهدِ الجديدِ، فإنَّ المسيحَ كانَ قد أوصَى حواريِّيهِ في أنْ ينشرُوا المسيحِيَّةَ في أصْقاعِ الأرضِ بشرطِ أنْ يستخدِمُوا في ذلكَ الأسلوبَ المناسبَ لكلِّ مجتمعٍ».[1] ولعلَّ الكاثوليكِيَّةَ هِيَ مَنْ اعتمدَ

: Institute of Jesuit Sources,.1996) , pp. 1389-. Cf. Charles E. Ronan and Bonnie B. C. Oh, (eds.), East Meets West: The Jesuits in China, 1582–1773 (Chicago : Loyola University Press,.1988), p. 1406-. See also , Jan Joseph. Santich, Missio Moscovitica: The Role of the Jesuits in the Westernization of Russia, 1582–1689 (1995) pp. 255 See also, Jonathan Wright, "From Immolation to Restoration: The Jesuits, 1773–1814." (Theological Studies , 2014) 75/ 4 pp. 729–745. Jan Joseph. Santich, Missio Moscovitica: The Role of the Jesuits in the Westernization of Russia, 1582–1689 (New York : P. Lang, ©1995.) pp. 119- 120; See also, Jonathan Wright, «From Immolation to Restoration: The Jesuits, 1773–1814." (Theological Studies , 2014) 75/ 4, pp. 729–745.

(1) ما نقله الإنجيل المقدّس على لسان السّيّد المسيح قوله لتلامذته: (فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ.) «إنجيل متّى: 28:19»..

التَّبشيرَ قاعدَةً أساسِيَّةً لانتشارِها في مُعظَمِ قارَّاتِ العالمِ، ومِنْ ثمَّ جاءَتْ البروتستانْتِيَّةُ مِنْ بعدِها، أو إنَّ الحركتَيْنِ تلازمَتا؛ ولكنْ ثمَّةَ افتراقاتٌ ومُنافَساتٌ وأساليبُ متباينَةٌ بينَ الحركتَيْنِ. والتَّبشيرُ بمعناهُ الآخَرُ هوَ: نقْلُ الإيمانِ والتَّعليمِ إلى الأولادِ المسيحِيِّينَ بغيةَ تثقيفِهِم في الدِّينِ أيضَاً.[1]

عرفَ المشرقُ العربِيُّ خلالَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ ـ وعلى الأخصِّ بدءاً مِنْ مُنتَصَفِهِ ـ عدَّةَ تحوُّلاتٍ مهمَّةٍ ومُميَّزَةٍ تاريخِيَّاً ساهمَتْ في صُنْعِها مَجمُوعاتٌ مِنَ القوى الدَّاخليَّةِ والخارجِيَّةِ، وكانَ للقوى التَّبشيريَّةِ دورُها في إحياءِ النَّهضَةِ العربِيَّةِ الحديثَةِ، إذْ لا يمكنُ لأيِّ عاقلٍ أنْ ينكرَ ذلكَ، وإنَّ نتائجَ ما قامَتْ بِهِ تلكَ «البعثاتُ» مِنْ أعمالِ التَّبشيرِ يكادُ لا يُذكرُ أبداً، إذْ لَمْ تنجحْ تلكَ القوى في تغييرِ دينِ المسلمِينَ أو دينِ اليهودِ، وربَّما نجحَتْ بضيقٍ شديدٍ في التَّأثيرِ في المِللِ المسيحِيَّةِ لا في تغييرِ مِللِها القديمَةِ، بل في التَّأثيرِ الثَّقافِيِّ عليها،[2] وخصُوصَاً في نشرِ التَّعليمِ، وتأسيسِ الطِّباعةِ، وإنشاءِ المراكزِ الصِّحِّيَّةِ، زيادةً على المُحاضَراتِ وتأهيلِ الشَّبابِ والبناتِ في مُجتمَعاتِنا؛ وصُولاً إلى الصَّحافةِ. ولقدْ نجحَتْ القوى الخارجِيَّةُ في ضَخِّ دماءٍ جديدَةٍ في جسدِ النَّهضَةِ العربِيَّةِ كَيْ تنفتحَ بعدَ ذلكَ صَفحَةٌ تاريخِيَّةٌ جديدَةٌ في حياةِ النَّهضَةِ الحديثَةِ خصُوصَاً وتاريخِ العربِ على وجهِ العمُومِ.

(1) Hiney, Thomas: On the Missionary Trail, (New York: Atlantic Monthly Press , 2000), pp. 5- 22.

(2) لعلّ المؤلّف يقصد بقوله: (بابتسار شديد) المعنى الشّائع الذي هو الاختصار والمحدوديّة والصّعوبة؛ وهو يريد أن يبيّن قلّة نجاحهم. بينما معنى الابتسار في اللّغة هو غير هذا.
جاء في التّاج: بَسَرَ الحاجةَ: طَلَبَهَا في غيرِ أَوَانِها. وفي الجَمْهَرةِ لابن دُرَيْد: في غيرِ وَجْهِهَا والمَبْسُورُ: طالِبُ الحاجةِ في غيرِ مَوْضِعِهَا كأَبْسَرَ وابْتَسَر وتَبَسَّرَ. وقَد بَسَرَ حاجتَه يَبْسُرُها بَسْراً وبِساراً وابْتَسَرها وتَبَسَّرها: طَلَبَهَا في غير أَوانِها أو في غير موضعِها..

يرجعُ وجودُ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ تاريخيّاً في المشرقِ العربيِّ إلى بداياتِ القرنِ السَّابعَ عشَرَ، وقدْ كانَ عملُها يقتصِرُ على نشرِ الكتابِ المُقدَّسِ، وتقديمِ بعضٍ مِنَ الخدماتِ للطَّوائفِ المسيحِيَّةِ الشَّرقِيَّةِ، ولقدْ توقَّفَ مثلُ ذلكَ التَّبشيرِ بسببِ توقُّفِ عملِ تلكَ البعثاتِ في نهاياتِ القرنِ الثَّامنَ عشَرَ، ومِنْهَا بعثاتُ الآباءِ الدُومينيكانِ إلى المَوْصِلِ. وقدْ فُتحَتْ الأبوابُ في القرنِ التَّاسعَ عشَرَ أمامَ البعثاتِ الأجنبيَّةِ ومِنْهَا التَّبشيريَّةُ والأركيولوجيَّةُ وكذلِكَ أمامَ الرَّحَّالةِ الأجانبِ، وكانَتْ هناكَ مُنافَسَةٌ واسِعَةٌ في حقبةٍ مُعيَّنَةٍ بينَ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ الكاثُوليكِيَّةِ مَعَ البعثةِ التَّبشيريَّةِ البروتستانْتِيَّةِ الأمريكِيَّةِ؛ فما هِيَ النَّشاطاتُ التَّبشيريَّةُ التِي قامَتْ بها كلُّ بعثةٍ؟.

٢ـ نشاطُ التَّبشيريَّةِ الكاثوليكيَّةِ اليسوعيَّةِ

كانَتْ أنشطةُ البعثةِ التَّبشيريَّةِ الكاثوليكِيَّةِ الأقدمَ مِنْ بينِ الأنشطةِ الأخرَى في منطقَةِ المشرقِ العربِيِّ، إذْ يعودُ تاريخُها إلى مطلعِ القرنِ السَّابعَ عشَرَ، وعلى الرَّغمِ مِنْ تقطُّعُ ذلكَ النَّشاطِ بسببِ الضُّغوطاتِ التَّاريخِيَّةِ والصُّعوباتِ المحلِّيَّةِ والدَّولِيَّةِ التِي كانَتْ تواجهُها في بعضٍ مِنَ الأحيانِ؛ إلَّا أنَّها بقيَتْ مستمرَّةً حتَّى يومِنا هذا. و «الجزويتُ اليسوعيُّونَ» هُمْ رهبانٌ مِنَ الرِّجالِ لا راهباتٍ مِنَ النِّساءِ، ينتمُونَ لإحدَى الرَّهبانِيَّاتِ التَّابعَةِ للكنيسَةِ الكاثوليكِيَّةِ. وقدْ أسَّسَ هذِهِ الفرقَ الرَّهبانِيَّةَ المَعروفَةَ باسمِ (جماعةُ يسوعَ ـ Society of Jesus) القدِّيسُ (إغناطيوس لويولا Ignatius Loyola (1491 – 1556 ـ منذُ أكثرَ مِنْ 500 عامٍ. وعادةً ما يُعرف الرُهبان المنتمُونَ إلى هذِهِ الجماعةِ باسمِ "اليسوعيُّونَ" ويتجاوزُ عددُهُم العشرينَ ألفاً، وهُمْ منتشرُونَ في أرجاءِ العالمِ، وإنَّ المُؤسَّساتِ اليسوعِيَّةَ مُكرَّسَةٌ للمعرفَةِ ـ كما يعلنُونَ دوماً – مِنْ أجلِ خدمةِ البشرِيَّةِ، وتشتملُ هذِهِ المُؤسَّساتُ على مئاتِ المدارسِ، والكلِّيَّاتِ، والجامعاتِ

المنتشرَةِ في العالم، وتُعدُّ (مدرسةُ الآباءِ اليسوعيِّينَ'Jesuit Fathers School) واحدَةً مِنْ هذِهِ المُؤسَّساتِ.(1)

ويمكنُ القولُ بناءً على ذلكَ: إنَّ الأنشطةَ اليسوعِيَّةَ مِنْ خلالِ بعثةِ الرَّهبنَةِ الكاثوليكِيَّةِ، تمثِّلُها جماعةٌ تبشيرِيَّةٌ يعودُ تاريخُها إلى القرنِ السَّادسَ عشَرَ، وقدْ أخذَتْ اسمَهَا نسبةً إلى يسوعَ المسيحِ عليهِ السَّلامُ؛ وتنتشرُ مراكزُ اليسوعِيِّينَ حتَّى يومِنا هذا في (112) بلَداً، ولهُم وجودُهُم في العديدِ مِنَ الدُّولِ العربِيَّةِ، مِنْها لبنانُ وسوريَّا ومصْرُ، وكانَ وجودُهُم قويَّاً ومُكثَّفاً؛ وهوَ ما يفسِّرُ قوَّةَ أنشطتِهِم إبَّانَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، وخصُوصَاً في التَّعليمِ والثَّقافةِ الدِّينِيَّةِ، وكانَ التَّنافسُ كبيراً بينَ الكاثوليكِ الفرنسِيِّينَ وبينَ البروتستانْتِ الأمريكِيِّينَ.(2)

٣ـ نشاطُ التَّبشيريَّةِ البروتستانْتيَّةِ

دخلَ المذهبُ البروتستانْتِيُّ بلادَ الشَّامِ في بدايةِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، في حينِ دخلَ العراقَ عِنْدَ منتصَفِهِ، وتُعدُّ البروتستانْتِيَّةُ أحدَ مذاهبِ الدِّينِ المسيحِيِّ الجديدَةِ قياساً على الأرثوذكسِيَّةِ والكاثوليكِيَّةِ، وكانَت البروتستانْتِيَّةُ قد نشأَتْ في ألمانيا على يدِ المصْلِحِ الدِّينِيِّ «مارتن لوثر» إذْ انشقّتْ الكنيسَةُ البروتستانْتِيَّةُ عَنْ الكنيسَةِ الكاثوليكِيَّةِ في القرنِ السَّادسَ عشَرَ.

ومعنَى مُصْطَلَحِ «البروتستانت» هو (الاحتجاجُ) ولعلَّ أبرزَ ما يميِّزُ هذِهِ الطَّائفَةَ عَنْ الطَّوائفِ والمِلَلِ المسيحِيَّةِ الأخرَى الإيمانُ بأنَّ الكتابَ المُقدَّسَ فقطْ هو مَصْدَرُ المسيحِيَّةِ، ورَفْضُ البابويَّةِ مَصْدَراً أو مَرجِعاً إلهِيَّاً

(1) Udías، Agustín . Searching the Heavens and the Earth: The History of Jesuit Observatories (Astrophysics and Space Science Library, 2003), pp. 56- 9.

(2) Loc. Cit.

أو غيرَ إلهِيٍّ للسُّلطَةِ الدِّينيَّةِ المسيحِيَّةِ؛ ولا يؤمنُ البروتستانْتُ بسلطةِ البابا ولا بحقِّهِم الغفرانِ أبداً، ويوجبُونَ زواجَ القِسِّ! وهكذا ندركُ إدراكاً عميقاً كيفَ حرصَ البروتستانْتُ الأوائلُ الذِينَ قدِمُوا إلى بلادِ الشَّامِ ودخلُوها سنةَ (1820م) تحتَ إشرافِ المجلسِ الأمريكِيِّ لُمراقَبَةِ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ البروتستانْتِيَّةِ على تطبيقِ تلكَ القيمِ والمبادئِ في بلادِ الشَّامِ، والحرصِ الدَّائبِ على تخليصِ كلِّ مسيحِيِي الشَّرقِ مِنْ سيطرةِ البابا وسلطتِهِ، خصُوصَاً بعدَ نجاحِهِم في تأسيسِ مركزٍ لهُم في بيروتَ. وهذا كلُّهُ كفيلٌ بأنْ يجعلَ البعثاتِ البروتستانْتِيَّةَ تواجهُ صُعوباتٍ متعدِّدَةً وتحدِّياتٍ خاصَّةً مِنْ قِبلِ رجالِ الدِّينِ الكاثوليكِ، الذِينَ رفضُوا تماماً أنْ يتحوَّلَ أتباعُهُم عَنْ مذهبِهِم إلى البروتستانْتِيَّةِ، فكانَ أنْ وُلدَ كرهٌ عميقٌ وعداءٌ شديدٌ بينَ الطَّائفتَيْنِ، ولكنْ على الرُّغمِ مِنَ العقباتِ، إلَّا أنَّ ذلكَ لمْ يقفْ في وجهِ تقدُّمِ البعثةِ البروتستانْتِيَّةِ الأمريكِيَّةِ واكتسابِها «لأتباعٍ جددٍ».[1]

وقامُوا في ذاتِ هذا الإطارِ الذِي رسمَهُ الآباءُ البروتستانتُ في مُحاولَتِهِم كسبَ الأتباعِ باستعمالِ اللُّغةِ العربِيَّةِ في العباداتِ، وتركُوا استخدامَ الآرامِيَّةِ، فالعربِيَّةُ لغةُ أهلِ البلادِ، وهِيَ مَفهُومَةٌ ومَعلُومَةٌ مِنَ الجميعِ، فكانَ ذلكَ كلُّهُ مَدعاةً لأنْ يتعلَّمَ الرُّهبانُ العربِيَّةَ، وقدْ ترجمُوا الإنجيلَ إليها وألَّفُوا مِنْ خلالِها جملةً مِنَ المُصَنَّفاتِ العلمِيَّةِ. ولعلَّ أبرزَ هؤلاءِ المبشِّرينَ الأمريكِيِّينَ «كرنيليوسُ فانديكُ» الذِي عاشَ بين سنةِ (1818) وسنةِ (1895م) وجاءَ إلى لبنانَ سنةَ (1840م) وقضَى في بلادِ الشَّامِ (55) سنةً. ولقدْ أسفرَ الصِّراعُ أو حتَّى ـ المُنافسَةُ ـ بينَ المذهبَيْنِ الكاثوليكِيِّ والبروتستانْتِيِّ عَنْ نشرِ المعرفةِ وانتعاشِ اللُّغةِ العربِيَّةِ، فازدهرَتْ حياةُ الفكرِ والاستنارَةِ، وقدْ تجلَّى ذلكَ في مُؤسَّساتِ التَّعليمِ

(1) Loc. Cit.

ونشوءِ الطِّباعَةِ والنَّشرِ. ويأتِي المبشِّرُ «جوستنُ بيركنسُ» إلى شمالِ غربِ إيرانَ ليتعاملَ مَعَ المنطقةِ كحزمَةٍ واحدَةٍ.

(٤) مَنْ يكونُ جوستن بيركنس؟

أوَّلاً: أوراقُ بيركنسَ

١ـ مبشِّرٌ ومُؤسِّسُ مَعلوماتٍ

جاءَ في الأوراقِ التِي كتبَها بعضٌ مِنَ الذِينَ قامُوا بتكريمِ الأبِ القسِّ «جوستنَ بيركنسَ» بعدَ رحيلِهِ والإشادةِ بدورِهِ في الحركةِ التَّبشيريَّةِ، أنَّهُ مِنَ المبشِّرينَ الرُّوَّادِ الذِينَ عملُوا في بلادِ فارسَ. وجاءَ ذلكَ «التَّكريمُ» استجابةً لرغبةِ العديدِ مِنْ أصْدقائِهِ في الولاياتِ المتَّحدَةِ، وكذلِكَ مِنْ أولئكِ الذِينَ عمِلَ مَعَهُم في بلادِ فارسَ؛ والذِينَ كانُوا أصْدقاءَ لأفرادِ البعثاتِ في كلٍّ مِنْ إنكلترا وألمانيا، وهناكَ أيضاً كثيرُونَ في أماكنَ أخرَى، إذْ أكَّدَ المحتفُونَ الذِينَ قامُوا بتأبينِ «بيركنسَ» على أنَّها سوفَ تكونُ مُناسَبةً سعيدَةً لتجديدِ ذاكرتِهم وهُم يقرؤُونَ تلكَ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ التِي تمتَّعَ بها الرَّجلُ، مَعَ أخذِ العلمِ بأنَّها مُناسَبةٌ احتُفِيَ فيها باليوبيلِ الذَّهبيِّ للبعثةِ التَّبشيريَّةِ إلى بلاد فارسَ؛ ولقدْ تكلَّلَ ذلكَ الابتهاجُ بِمَا كانَتْ حقَّقَتْهُ تلكَ البعثةُ مِنْ نتائجَ، زيادةً على تكريمِ ذكرَى «بيركنسَ» أكثرِ أعضَاءِ البعثةِ نشاطاً وحركَةً، وقدْ غدا أكثرَ مُلاءَمَةً لتحمُّلِ الصِّعابِ.

إنَّنِي أجدُ وأنا أقرأ هذا «التَّاريخَ» مُفارَقَةً كبرَى بينَ عقليَّتَيْنِ كانَتا تسُودانِ ذلكَ الزَّمنَ: عقليَّةٌ شرقِيَّةٌ لا تعِي ما الذِي يمارسُهُ الغرباءَ على أراضِيها وفي بلدانِها القديمَةِ، وعقليَّةٌ غربِيَّةٌ مغامرَةٌ تتحمَّلُ الصِّعابَ مِنْ أجلِ أهدافٍ مَرسُومَةٍ لها لتحقيقِها؛ مَعَ صَبرِها وجَلَدِها قادمَةٌ مِنْ بلدانِها الحديثَةِ! ويبدُو أنَّ التَّبشيرَ البروتستانْتِيَّ الأميركِيَّ كانَ يرمِي في الأساسِ إلى التَّحرُّكِ على خطِّ المسيحِيِّينَ النَّساطرَةِ بهدفِ فَهْمِ عقيدتِهم، والمُشارَكَةِ في الفصُولِ التَّاليَةِ التِي ستعتنِي بها البعثاتُ؛ مِنْ أجلِ تنفيذِ

مَصَالحَ أميركِيَّةٍ بعيدَةِ المدَى، والتِي حقَّقَتْ ـ كما يبدو ـ نجاحاتٍ ـ فيما كانَ يجري بها إلى الأمامِ في بلادِ فارسَ.

لقدْ كرَّسَ «جوستنُ بيركنسُ» زمناً طويلاً مِنْ حياتِهِ امتدَّ نحواً مِنْ سبعَةٍ وثلاثِينَ عاماً في تنفيذِ عملِيَّةٍ جادَّةٍ، كانَتْ قدْ رسمَتْها لَهُ دوائرُ أميركِيَّةٌ مُحدَّدَةٌ، كما يتَّضِحُ ذلكَ جليَّاً مِنْ أوراقِهِم وتسجيلاتِهِم التِي نجحْتُ في الاطِّلاعِ عليها وقراءَتِها.

٢ـ الأهدافُ والغاياتُ والمصَالحُ الأميركِيَّةُ

يكادُ المؤرِّخُ يجدُ تلكَ الأهدافَ واضِحَةً مِنْ خلالِ الاهتِمامِ الخاصِّ للبعثاتِ في أعمالٍ رائدَةٍ، كانَ بعضٌ مِنْهَا ريادِيَّاً؛ كالمُساعَدَةِ في بعضٍ مِنَ المَشرُوعاتِ العسكرِيَّةِ، أو لفتحِ السُّبُلِ لمُمارَسَةِ التِّجارَةِ ونقلِ البضَائعِ عِنْدَ آخَرِينَ؛ في حينِ يضِيفُ بعضٌ آخرُ جملةً هائلَةً مِنَ المَعلُوماتِ التِي كانَتْ مَجهُولَةً سابقاً، تأتِي كلُّها مِنْ خلالِ مُمارَسَةِ سياساتٍ دبلوماسِيَّةً وسلمِيَّةً، تمنحُ يدَ المُساعَدَةِ في التَّعليمِ والصِّحَّةِ والطِّبِّ.

ولعلَّ مِنْ أكبرِ الأمورِ التِي يجدُونَها غطاءً لكلِّ ما تقدَّمَ مِنْ غاياتٍ مجتمِعَةٍ، هوَ فَتْحُ مَساراتٍ جديدَةٍ في التَّعاملِ باسمِ التَّبشيرِ بالمسيحِيَّةِ، وحملِ رسالَةِ الخلاصِ إلى الأممِ التِي لدَيها «قابلِيَّةٌ للإعمارِ» وتغييرِهِم مِنْ أجلِ أنْ يشعرَ الجميعُ بنبضِ الحَياةِ الرُّوحِيَّةِ، وهذا هوَ مُختَصَرُ ما يريدُونَ تحقيقَهُ كما كانُوا يعتقدُونَ.

تقولُ الأوراقُ التَّبشيرِيَّةُ الأميركِيَّةُ: إنَّ ما تحقَّقَ في مَيدانِ التَّبشيرِ في بلادِ فارسَ كانَ كبيراً بالنِّسبَةِ إلى الانطباعاتِ التِي سَادَتْ عَنْ حالتِهِ المزدهرَةِ وقتَذاكَ، وخصُوصَاً بعدَ كفاحِ سنينَ طويلَةٍ مِنْ إنجازِ الأعمالِ النَّاجحَةِ، التِي أدَّتْها البعثاتُ الغربِيَّةُ حتَّى العامِ (1871م) حيثُ اشتملَتْ حتَّى ذلكَ الوقتِ على خمسِ مَحطَّاتٍ في بلادِ فارسَ، وخصُوصَاً

في أورميا، مُمَثَّلَةً بكلٍّ مِنْ «جوستنَ بيركنسَ» وزوجتِهِ «شارلوتَ» والقسِّ «يوحنَّا الثَّانِي سليد» وزوجتِهِ «و ج. روجرز» وزوجاتِهِ؛ و «جوزيف كوكران» وزوجتِهِ؛ والآنسةِ «م. مورغان» والآنسةِ «م. ك. دوزجي في وان» والقسِّ «ج. م. أولدفاثير» في تبريزَ،[1] وهناكَ أسماءٌ أخرَى توزَّعَتْ في عمُومِ إيرانَ.

ويتلخَّصُ الوضْعُ بمَا جاءَ في واحدٍ مِنَ التَّقاريرِ الذِي يقولُ: (وهكذا يتبيَّنُ أنَّ هناكَ إمكانِيَّةً للوصُولِ إلى أكبرَ بكثيرٍ مِنَ الإقليمِ ـ إيرانَ ـ مِنْ بَدْءِ الجهدِ التَّبشيرِيِّ في الخمسِينَ مِنَ السِّنِينِ، وسيتمُّ تمديدُ العملِ المسيحِيِّ كَيْ يتأثَّرَ بِهِ النَّسطوريُّونَ، ومِنْ بعدِهِم السُّكَّانُ المسلمُونَ).

ويتابعُ التَّقريرُ قائلاً: (لدَيْنا مَصْلَحَةٌ في أيِّ مكانٍ نتحرَّكُ فيه، وقدْ يعتمدُ ذلكَ إلى حدٍّ ما على مَوقِعِنا مِنَ المَعرفَةِ بطريقَةٍ قد تسهِّلُ أمرَ التَّوصُّلِ إلى ذلكَ، وجَعْلِ أمريكا نقطةَ البدايَةِ؛ إذْ يمكنُ للمسافرِ إلى بلادِ فارسَ أنْ يصِلَ إليها بالمرورِ والسَّفرِ على باخرَةٍ مِنْ نيويورك أو غيرِها مِنْ موانِئِ المحيطِ الأطلسِيِّ مِنْ أجلِ التَّجمُّعِ أو التَّركيزِ مِنْ خلالِ مَحطَّاتٍ مثلِ موانِئَ في بريطانيا العظمَى، ومِنْ ثَمَّ الانطلاقُ عبرَ قارَّةِ أوروبَّا باستخدامِ مَجمُوعَةٍ متنوِّعَةٍ مِنَ الطُّرقِ والمسالكِ المَفتوحَةِ نحوَ القسطنطينِيَّةِ، أو استخدامِ بواخرِ البحرِ المتوسِّطِ، أو استخدامِ شبكةِ طرقِ السِّككِ الحديدِيَّةِ في البَرِّ الأوربِّيِّ، وجزئِيًّاً عَنْ طريقِ بواخرَ في البحرِ الأسودِ، والتِي تبحرُ مِنَ القسطنطينِيَّةِ نحو باطومَ وطرابزونَ،

(1) تبريز مدينة تتربّع الهضبة الإيرانيّة، والمركز الصّناعيّ والتّجاريّ لمحافظة أذربيجان، وهي ثالث أكبر المدن الإيرانيّة بعد طهران ومشهد. نجحت في التّعامل مع سائر العهود التي حكمت المنطقة قبل وبعد دخول الإسلام إليها، معظم سكّانها من التّرك الأذريّين، وقد وقع الاختيار عام 2010 على بازارها الكبير وصنّف من بين مواقع التّراث العالميّ، وتتميز المدينة بالغنى الماديّ والتّقدّم الطّبّيّ.

وتلكَ التِي تبحرُ مِنْ أوديسا، ثمَّ على الأرضِ في بوتِي، حيثُ الوصُولُ إلى مناطقِ الشَّرقِ الأوسطِ.[1]

٣ـ لماذا هذه المنطقةُ منَ الشَّرقِ الأوسطِ؟

كانَتْ موانِئُ البحرِ الأسودِ مِنْ بينِ هذِهِ وتلكَ تستقبلُ جملَةً مِنَ المَبعوثِينَ الغربيِّينَ، وهناكَ شرقاً خطُّ سكَّةِ حديدٍ يصلُ إلى تفليسَ، كما يمكنُ النَّقلُ إلى نهرِ أراسَ،[2] حيثُ تقومُ الحدودُ بينَ روسيا وبلادِ فارسَ، ومِنْ ثمَّ امتطاءُ ظهورِ الخيولِ، وكانَ المبشِّرُونَ في بلادِ فارسَ الشَّرقِيَّةِ يمضُونَ قُدُماً باستخدامِ العرباتِ مِنْ بوتِي أو باطومَ إلى باكو،[3] ثمَّ يبحرُونَ في بحرِ قزوينَ إلَى مناطقَ قصِيَّةٍ. ولقدْ قامَتْ بعضٌ مِنَ الأطرافِ مُؤخَّراً بالرَّحلَةِ إلى بلادِ فارسَ والمنطقةِ برَّاً، وتجنَّبَتْ ركوبَ البحرِ الأسودِ لأسبابٍ مُعيَّنَةٍ؛ مَعَ استمرارِ استخدامِ خطوطِ النَّقلِ البرِّيَّةِ في رحلةٍ تمتدُّ ليومَيْنِ نحوَ شمالِ تفليسَ للوصُولِ إلى خطِّ سكَّةِ الحديدِ في يلاديكوفكاس.

---

(1) طرابزون. مدينة على ساحل البحرِ الأسود، شمال شرق تركيّا على طريق الحرير، يرجع تاريخها إلى القرن الثّامن قبل الميلاد، وهي البوّابة التّجارية مع إيران، ومعظم سكّانها من الأتراك. كانت خاضعة للسّيطرة اليونانيّة إلى أن احتلّها الرّومان عام 65 قبل الميلاد، ثمّ استولى عليها لاحقا العثمانيّون (السّلطان بايزيد الثّاني) ونصّب ابنه سليم الأوّل حاكما عليها. تمتاز المدينة بتنوّعها الثّقافيّ والدّينيّ ونشاطها التّجاريّ.

(2) نهر أراس (أراكس) من أطول أنهار منطقة القوقاز (1070كم) وأكبرها مساحة حوض (102000 كيلو متر مربّع) يقطع ضمن كلّ من تركيّا، أرمينيا، أذربيجان، إيران.

(3) مدينة باكو. عاصمة أذربيجان، تقع على بحر قزوين في شبه جزيرة «أبشوران» غنيّة جدا بالنّفط، وقد ضُمّ العديد من معالمها إلى قائمة التّراث العالميّ، وهي من بين أفضل عشرة مواقع سياحيّة في العالم، ومركز علميّ وثقافيّ وصناعيّ؛ لها طابع إسلاميّ لجهة الأبنية وترتيب الأحياء، وقد عانت من القهر الدينيّ أثناء الحقبة الشّيوعيّة، ثمّ شهدت تطوّرا متسارعا بعد انهيار الاتحاد السّوفيتيّ.

دخلَ «جوستنُ بيركنسُ» بلادَ فارسَ لأوَّلِ مرَّةٍ عامَ (1833م) بصُحبَةِ زوجتِهِ السَّيِّدَةِ «شارلوتَ بيركنسَ» وكانَ الطَّريقُ الذِي سلكاه مختلفاً بعضَ الشَّيءِ، وكانَ المرافقُونَ لهُما في سفرِهِمَا أقلَّ بكثيرٍ، وكانَتْ الأخطارُ أكثرَ، وقدْ انقضَتْ ستَّةُ أشهرٍ أخَّرَتْهُم عَنْ الوصُولِ إلى المكانِ المَقصُودِ؛ وكانَ كلُّ ذلكَ غيرَ عادِيٍّ في اليوم الأوَّلِ لقيام مثلِ هذِهِ المُؤسَّسةِ، ولا يمكنُنا أبداً أنْ نسألَ أصْدقاءَ هؤلاءِ الرُّوَّادِ الذِينَ ودَّعناهُم، إلَّا أنَّهُ مِنَ المُتوَقَّعِ أنْ نجتمعَ بهِم مرَّةً أخرَى.[1]

ولابدَّ مِنَ التَّساؤلِ هنا: لماذا كانَ اختيارُ هذا المكانِ بالذَّاتِ لعملِ البعثةِ التَّبشيريَّةِ؟ إذْ يجمِعُ الكلُّ على أنَّ عملَ «البعثةِ» لمْ يقتصِرْ على الدَّعوةِ التَّبشيريَّةِ بالبروتستانْتِيَّةِ، بل اشتملَ على إرسالِ مَعلُوماتٍ دقيقَةً وتفصِيليَّةً عَنْ أوضَاعِ المنطقةِ. وإنَّ اختيارَ هذا المكانِ مِنْ كردستانَ إيرانَ، وكذلِكَ اختيارَ أورميا؛ يجعلانِ مِنْهُما مكاناً مثالِيًّا للعملِ قريباً مِنْ نقطةِ تلاقِي حدودِ ثلاثِ دولٍ أساسِيَّةٍ وقديمَةٍ؛ هِيَ إيرانُ القاجاريَّةُ وتركيَّا العثمانِيَّةُ وروسيا القيصَرِيَّةُ،[2] وهوَ في منطقةٍ جبلِيَّةٍ تتنوَّعُ فيها الأقوامُ،

(1) Rev. Henry Martny Perkins (His son) , Life of Rev. Justin Perkins, D.D. : Pioneer Missionary to Persia , (New York & Chicago & Toronto : Flaming H. Revell Company, 1887). (New Edition , General Books LLC, 2012).

يحتوي هذا الكتاب التاريخي المطبوع لأول مرة عام 1887 على العديد من الأخطاء المطبعية أو فقدان النص أو الفهرس بعض المقاطع . ويمكن للدارسين والباحثين الاعتماد على نسخة من طبعة جديدة ممسوحة ضوئيًا من الكتاب الأصلي (بدون أخطاء مطبعية) نشرت عام 2012 .

(2) القاجاريّة نسبة إلى أسرة القاجاريّين، وهي أسرة تركمانيّة تتحدّر من إحدى قبائل (القزلباش) البدويّة. نجح زعيمها (آغا محمّد خان) بين العامين (1779 ـ 1797م) في الاستيلاء على حكم بلاد فارس واتّخذ لنفسه لقب (شاه) وقد هُزم بعده أخوه (فتح عليّ شاه) على يد القوّات الرّوسيّة، حيث انقسمت إيران بعد ذلك إلى منطقتي نفوذ روسيّة وبريطانيّة، وقد نجحت

ويبدُو التَّنسيقُ واضِحاً بينَ بريطانيا والولاياتِ المتَّحدَةِ بصَدَدِ البحثِ عَنْ معلوماتٍ؛ كانَ مِنْهَا تلكَ التِي نشرَها بيركنسُ في أمريكا، ورسائلُهُ غيرُ المَنشُورَةِ؛ وصُولاً إلى مُحاضَراتِهِ التِي ألقاها لاحقاً في جامعةِ اكسفوردَ، ويتَّضِحُ جلِيّاً مِنْ خلالِ متابعتِنا لتواريخِ رسائلِهِ، أنَّهُ كانَ يكتبُ في اليومِ الواحدِ رسالةً مُطوَّلَةً يشرحُ فيها كلَّ ما اكتسبَهُ مِنْ مَعلُوماتٍ.

٤ـ مَشرُوعُ العملِ: رسائلُ جوستنَ بيركنسَ.

إنَّ جزءاً كبيراً مِنَ الكتاباتِ المَيْدانِيَّةِ حولَ «العراقِ» والتِي كتبَها ونشرَها العديدُ مِنَ الرَّحَّالةِ الغربيِّينَ في أوقاتٍ متباينَةٍ، لمْ تزلْ حتَّى يومِنا هذا بعيدَةً عَنْ الأنظارِ العربيَّةِ، كونَها مَحفُوظَةً في لغاتِها الأجنبيَّةِ الأمِّ، وإنَّ ما تُرجِمَ مِنْهَا، أو كُتِبَ عَنْهَا، يُعدُّ قليلاً جدّاً بالنِّسبةِ لِمَا تضَمُّهُ جامِعاتُ الغربِ ومكتباتُهُ، ومُؤسَّساتُهُ مِنَ الكتاباتِ القديمَةِ المَنشُورَةِ وغيرِ المَنشُورَةِ عَنْ العراقِ؛ سواءٌ كانَتْ تلكَ الكتاباتُ على شكلِ مُذكِّراتٍ يومِيَّةٍ، أو رسائلَ، أو مُؤلَّفاتٍ؛ أو مَقالاتٍ نُشِرَتْ في أوقاتٍ متباينَةٍ في حولِيَّاتٍ مختلفَةٍ، أو على شكلِ كُتُبٍ منفصِلَةٍ، كلٌّ في المجالِ الذِي يعنيهِ والمَوضُوعِ الذِي يحتويهِ.

ولعلَّ ما يلفتُ النَّظرَ ضِمْنَ ذلكَ التَّشكيلِ الواسِعِ مِنَ الكتاباتِ «الأجنبيَّةِ» عَنْ العراقِ: تلكَ المرحلَةُ التِي قامَ بها الرَّاهبُ المبشِّرُ الدُّكتورُ «جوستنُ بيركنسُ ـ Rev. D.D. Justin Perkins) والتِي اخترقَ بها شمالَ العراقِ قادِماً إليهِ مِنْ شمالِ غربِ إيرانَ، وذلكَ في سنةِ (1849م)[1] وقدْ نُشِرَتْ تفصِيلاتُ رحلتِهِ هذِهِ على هيئةِ رسائلَ في الحولِيَّةِ المَعرُوفَةِ بـ «مجلَّةُ الجمعِيَّةِ الاستشراقِيَّةِ الأمريكِيَّةِ ـ Journal of the American

---

الشّركات البريطانيّة في الحصول على امتيازات تجاريّة وصناعيّة ضخمة، منها احتكار صناعة وتجارة التّبغ، ثمّ أقرّ عام 1906م دستور جديد للبلاد.

(1) شغلت هذه الرّحلة (49) صفحة من المجلة المذكورة في المتن، والتي سأشير إليها في هذه الملحوظة بـ (JAOS).

Oriental Society) في العددِ الثَّانِي الصَّادرِ في سنةِ (1851م)[1].

ونظراً لأهمِّيَّةِ رحلةِ «بيركنس» وما تضَمَّنَتْهُ «رسائلُ صَاحبِها» مِنْ مَعلوماتٍ مُفصَّلَةٍ مِنَ النَّاحيَةِ التَّاريخيَّةِ والجَغرافِيَّةِ والطُّبُوغرافِيَّةِ والدِّيمُوغرافِيَّةِ، ولِمَا لها مِنَ المتعةِ الأدبيَّةِ؛ فقدْ عمدْتُ إلى وصْفِها في هذا الكتاب معتمِداً في ذلكَ على الرَّسائلِ ذاتِها (الأصُولُ) ومعلِّقاً على بعضٍ مِمَّا رأيتُهُ يستوجبُ اللَّحظَ والاهتمامَ، وذلكَ في مُلحَقٌ بنهايتِهِ.

ومِمَّا يجدرُ لحظُهُ حولَ هذِهِ الرَّسائلِ «المهمَّةِ» أنَّها بقيَتْ مَجهُولَةً عِنْدَ جميعِ المؤرِّخِينَ والدَّارسِينَ والباحثِينَ مِنَ العربِ والأجانبِ الذِينَ كتَبُوا في جغرافِيَّةِ العراقِ وطبوغرافِيَّتِهِ، أو أولئكَ الذِينَ كتَبُوا في تاريخِ عراقِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، ولقدْ استفادَ العديدُ مِنَ الكتَّابِ العراقِيِّينَ المُحدَثِينَ مِنْ «قائمَةِ المصَادرِ الأجنبِيَّةِ» التِي ضَمَّنَها المُؤرِّخُ الإنكليزِيُّ «ستيفن هيمسلي لونكريك» في كتابِهِ الشَّهيرِ المُعنْوَنِ بـ (أربعةُ قرونٍ مِنْ تاريخِ العراقِ الحديثِ) ولكنَّ هذا الأخيرَ لمْ يستخدِمْ رسائلَ «بيركنسَ» ولمْ يشرْ إليها في قائمَةِ مَصَادِرِهِ الأجنبِيَّةِ المُشارِ إليها أعلاهُ؛ مَعَ عِلْمِ أنَّهُ استعملَ

(1) هي مجلّة استشراقيّة أمريكيّة، تأسّست في بوستن سنة 1847م، وعنيت بالقضايا التّبشيريّة والاستشراقيّة بوساطة مراسليها الذين اختصوا بموضوعات الشّرق الحسّاسة والمتنوّعة، وتوزّعوا في أنحاء مختلفة منه ذاك العصر. ولا زالت هذه المجلة تصدر حتّى هذا اليوم بعد أن صُبغت بالطّابع الأكاديميّ، وذلك عن «الجمعيّة الاستشراقيّة الأمريكيّة» ذاتها، وساهم في تحريرها والكتابة فيها العديد من المستشرقين الغربيّين. وقد ورد ذكرها عند «نجيب العقيقيّ» في كتابه (المستشرقون) الجزء 3 تحت بند ×6 (= الجمعيّات والمجلّات الشّرقيّة) في حديثه عن استشراق الولايات المتّحدة الأمريكيّة (= الفصل العشرون). قال العقيقي: إنّ مجلّة: Journal' of the American Oriental Society' هي صحيفة الجمعيّة الأمريكيّة الشّرقيّة، تأسّست سنة 1906، وهي تصدر كلّ ثلاثة أشهر في نيو هيفن بالولايات المتّحدة الأمريكيّة (انظر: العقيقيّ، المرجع أعلاه، جـ3، دار المعارف بمصر، 1965، ص991. لقد أخطأ العقيقيّ في ذلك، وربّما قصد غيرها، ولكنّه في كلّ الأحوال لم يذكر "المجلّة" التي نحن بصدد الاعتماد عليها.

وأشارَ إلى ما هوَ أضْعفُ مِنْهَا مادَّةً، وأقلُّ مِنْهَا مَعلوماتٍ!.

ولقدْ وضُحَ لنا بعدَ دراستِنَا لرسائلِ «جوستنَ بيركنسَ» أنَّ مَعلوماتِها الجغرافِيَّةَ تطغَى على مَعلوماتِ الأحداثِ التَّاريخِيَّةِ، لكنَّها في حدِّ ذاتِها، إنَّما تضِيء جوانبَ نحنُ بأمسِّ الحاجةِ إلى معرفَتِها؛ مِنْ مثلِ أحوالِ المُجتمَعِ والتَّراكيبِ السُّكَّانِيَّةِ في ذلكَ العصْرِ؛ ناهيكَ عَنْ تبيانِ طبيعةِ العلاقاتِ السِّياسيَّةِ المَحلِّيَّةِ التِي حكَمَتْ أوضَاعَ المنطقةِ، ثمَّ مدَى فاعلِيَّةِ السِّياسةِ الإداريَّةِ التِي اتَّبعَتْها باشويَّةُ بغدادَ، في إطارِ القضَاءِ على حالاتِ التَّمرُّدِ والعصْيانِ ضِدَّ حكومةِ «السُّلطانِ العثمانِيِّ» ثمَّ الوصْفِ الدَّقيقِ والمعبِّرِ للمَوجُوداتِ الآثارِيَّةِ التِي كانَتْ قدْ اكتُشِفَتْ ضمنَ أعمالِ التَّنقيباتِ، والتِي شُوهدَتْ في المناطقِ الآشورِيَّةِ لكلٍّ مِنَ العواصِمِ الغابرَةِ: نينوى والنَّمرودِ وخرسبادَ وآشورَ، والتِي غدَتْ خلالَ النِّصْفِ الأوَّلِ مِنَ القرنِ الماضِي محطَّ أنظارِ العالَمِ قاطبَةً، وعُدَّتْ تلكَ العمليَّاتِ والاكتشافاتُ الآثارِيَّةُ ظاهرَةً «متقدِّمَةً» لذلِكَ العصْرِ.

وأخيراً، ماذا توضِّحُ لنا تلكَ الآثارُ؟.

يستشفُّ قارئُ «الرَّسائلِ» طبيعَةَ الأسلوبِ والأداةِ والتَّفكيرِ لصَاحبِها «جوستنَ بيركنسَ» بوصْفِهِ واحداً مِنَ الذِينَ دفعتْهُم الأجهزَةُ «الاستعمارِيَّةُ» إلى المنطقةِ؛ مِنْ مثلِ مَلحُوظاتِهِ وتعليقاتِهِ التِي توضِّحُ لَمَنْ يقرأ رسائلَهُ، وأمانِيهِ وطموحاتِهِ وهوَ يجتازُ أصْعبَ المناطقِ في مسالكِها الوعرَةِ والخطيرَةِ والتِي ينعدمُ فيها الأمنُ والاستقرارُ! وهذا ما توضَّحَ جليَّاً مِنْ ثنايا هذِهِ المرحلةِ، وهناكَ أوراقُهُ، ورسائلُهُ، كما إنَّ تسجيلاتِهِ الأصْليَّةَ بقلمِهِ مَحفُوظَةٌ.[1]

(1) وذلك في:
Amherst College Archives & Special Collections Finding Justin Perkins (AC , 1869-Aids, Perkins, Justin, 1805

٥ـ ماذا عَنْ النِّيّاتِ والأغراض؟:

كانَ «جوستنُ بيركنسُ» قدْ بيَّنَ قصْدَهُ هوَ بنفسِهِ بجلاءٍ في أنَّ الأغراضَ التِي قصَدَ تحقيقَها متنوِّعَةٌ كمَا هِيَ السِّياقاتُ التِي وُظِّفَتْ مِنْ قِبَلِ الغربيِّينَ لمنطقةِ الشَّرقِ الأوسطِ على وجهِ العمُوم. ويظهرُ جليّاً أنَّ الهدفَ التَّبشيريَّ كانَ مِنْ أساسيَّاتِ تفكيرِ الرَّحَّالةِ «بيركنس» لكونِهِ مبشِّراً بروتستانْتِيّاً أمريكِيّاً يعملُ ضمنَ الهيئةِ الأمريكِيَّةِ العاملَةِ في إيرانَ إبَّانَ تلكَ الحقبةِ، ولأنَّهُ كانَ أحدَ مراسِلِي «المجلَّةِ الاستشراقِيَّةِ الأمريكِيَّةِ» ـ المَذكُورَةِ أعلاهُ ـ وقدْ توضَّحَ كلُّ ذلكَ جليّاً في بعضٍ مِنَ الفقراتِ التِي كتبَها في رسائلِهِ وكتبِهِ. أمَّا الهدفُ الآخرُ الذِي أولاهُ الكاتبُ أهمِّيَّتَهُ وعنايتَهُ في رحلتِهِ هذِهِ، أنَّهُ ابتغَى الوصُولَ إلى مدينةِ المَوْصِلِ، بغرضِ الاطِّلاعِ على الآثارِ الآشورِيَّةِ التِي تتعالى قبالتَها على الضِّفافِ اليسرَى مِنْ نهرِ دجلةَ، والتِي كانَتْ قدْ اكتُشِفَتْ حديثاً.

٦ـ ما أهمِّيَّةُ هذهِ الآثار؟

تُعدُّ تلكَ الاكتشافاتُ الآثاريَّةُ الكبرَى ظاهرَةً «غريبَةً» لذلِكَ العصْرِ الباحثِ عَنْ «حقائقِ الماضِي اللَّاهوتِيِّ القديم»! وقدْ برزَتْ وتشكَّلَتْ وتجسَّدَتْ تلكَ الظَّاهرَةُ في رحلاتِ وتنقيباتِ الرِّجالِ الآثاريِّينَ الغربيِّينَ أمثالَ: لايارد، و راولنسونَ، و بوتا، و رسامَ وغيرِهِم،[1] وتمثَّلَتْ أمامَ العالَمِ مِنْ خلالِ كتاباتِهِم، سواءٌ كانَتْ مَنشُوراتٍ، أمْ مُراسَلاتٍ، أمْ كُتُباً؛ أمْ رسُوماً... الخ، ومِنَ المَعلُومِ لدَى الباحثِينَ والعلماءِ أنَّ نتائجَ تلكَ الاكتشافاتِ كانَتْ «إيجابِيَّةً» كونَها أمدَّتْ التَّاريخَ والعلمَ والحياةَ والنَّاسَ والجامعاتِ بمَا كانَ ينقصُهُم مِنْ جوانبَ خفيَّةٍ عَنْ الحضَاراتِ الإنسانِيَّةِ

.1869-1829) Papers, ca. 1830

(1) كتب عن ذلك بمزيد من التّفصيلات: المطران سليمان صايغ في كتابه «تاريخ المَوْصِل» (نفائس الآثار: درس الأنثورولوجيّ) لبنان، 1956، ص9-56.

الأولى في دنيا وادِي الرَّافدَيْنِ؛ وعَنْ دُوَلِهِ العالمِيَّةِ القديمَةِ.

أمَّا النَّتائجُ المباشرَةُ لتلكَ الاكتشافاتِ الآثارِيَّةِ، فإنَّ علينا نحنُ أبناءَ العراقِ أنْ ننظرَ إليها نظرةَ المالكِ لآثارِهِ ومُورُوثاتِهِ ومَوجُوداتِهِ، فقدْ كانَتْ الاكتشافاتُ ذاتَ وجهٍ سلبِيٍّ بالنِّسبةِ لأبناءِ العراقِ! إذْ إنَّ أعمالَها الأساسيَّةَ العامَّةَ ـ ومِنْ ضمنِها عمليَّاتُ التَّنقيبِ ـ جرَتْ في عصْرٍ كانَ أصْحابُها يومَ ذاكَ غافلِينَ عمَّا يجرِي مِنْ حولِهِم نظراً لعقمِ ثقافَتِهِم وضَعْفِ تحسُّسِهِم وقلَّةِ وعيِهِم بقيمَةِ تلكَ المَورُوثاتِ والمَوجُوداتِ؛ إذْ إنَّهُم لمْ يقيمُوا وزناً يُذكَرُ لقيمَةِ تلكَ الكنوزِ والنَّفائسِ التِي نُقِلَتْ إلى أوروبَّا على مَرأىً ومَسمَعٍ مِنْهُم عملاً بنظامِ «الامتيازاتِ العثمانِيَّةِ» الذِي مُنِحَ للأوروبِّيِّينَ في السِّياسةِ والدِّبلوماسِيَّةِ والتِّجارةِ والتَّنقُّلِ، فأفْقَدُوا الأجيالَ البعيدَةَ مِنْ بعدِهِم أعظمَ ما خلَّفَهُ التَّاريخُ لهُم مِنْ تراثٍ حضَارِيٍّ يمثِّلُ بأنموذجاتِهِ المختلفَةِ المتوزِّعَةِ في متاحفِ أوربَّا شموخَ أقدمِ المدنِيَّاتِ البشرِيَّةِ في العراقِ، هذا البلدِ الذِي يُعدُّ الأرضَ البِكْرَ الأولى مِنْ حياةِ التَّحضُّرِ الإنسانِيِّ، وهوَ الأرضُ التِي أطلقَ عليها الرَّحَّالةُ بيركنس اسمَ «الأرضُ الكلاسيكِيَّةُ» أو «المهدُ البِكْرُ مِنْ عِرْقِ الإنسانِ في الوجودِ» على حدٍّ وصْفِهِ.[1]

٧ـ ماذا عَنْ «الرَّسائلِ»؟

تتَّصِفُ رسائلُ «جوستنَ بيركنسَ» بأنَّها تتحرَّى خطَّ الرِّحلةِ التِي ضَمَّتْ كاتبَها مَعَ جماعَتِهِ خطوةً خطوةً في المناطقِ التِي امتد لها عبرَ شمالِ العراقِ داخلاً إليهِ مِنَ البوَّابةِ الحدودِيَّةِ الاستراتيجِيَّةِ الجبلِيَّةِ (كالية شين ـ ب) بعدَ قطعِهِ مسافاتٍ إيرانِيَّةً شاسِعَةً، ثمَّ اختراقِهِ السَّلاسلَ الجبلِيَّةَ العراقِيَّةَ، وسهلَ أربيلَ وسهلَ المَوْصِلِ حتَّى وصَلَ إلى ضِفافِ نهرِ دجلَةَ.

(1) JAOS, vol. 2, 1851, pp. 70 -I

وتتفاوَتُ الرَّسائلُ في أحجامِها، ما بينَ رسالةٍ قصَيرَةٍ تتألَّفُ مِنْ عدَّةِ أسطرٍ إلى أخرَى مسهبَةٍ في تفاصِيلِها، تزيدُ على صَفحتَيْنِ أو ثلاثٍ أو أربعٍ؛ أمَّا تواريخُها فتكادُ تكونُ يومِيَّةً «كتسجيلاتٍ» إذْ تبتدِئ الرِّسالةُ الأولَى في (25) أبريلَ ـ نيسانَ (1849م) وتُؤرَّخُ آخرُ رسالةٍ في (18) مايو ـ أيَّارَ مِنَ السَّنَةِ ذاتِها، ويبلغُ مَجمُوعُ الرَّسائلِ كاملةً (24) رسالةً.[1]

٨ـ ماذا عَنْ الأسلوبِ الأدبيِّ الذي تميَّزَ بهِ بيركنسُ؟

تمتازُ رسائلُ «جوستنَ بيركنسَ» بأسلوبِها الرُّومانتيكِيِّ الأخَّاذِ الذِي يطغَى عليه الجانبُ الوصْفِيُّ، أمَّا بناؤُهُ، فهو مُحكَمٌ وذُو تراكيبَ أدبِيَّةٍ خصْبَةٍ غايةٍ في الجمالِ؛ حيثُ يشعرُ القارئ بأنَّهُ يعيشُ رحلةَ صاحِبِها لحظةً بلحظةٍ، ويعيشُ المناطقَ المَوصُوفةَ ذاتَها، تلكَ التِي اخترقَها الكاتبُ بطبيعتِها الخلَّابَةِ: جبالِها وسهولِها، عيونِها وأنهارِها، مزارعِها وحقولِها، ليلِها ونهارِها! وتجعلُهُ مَشدُوداً إليها متحمِّساً لروعتِها، منجذباً لسحرِها؛ تلكَ المناطقُ القصِيَّةُ منْ أعالِي الجبالِ، أو السُّهولِ القريبَةِ المتاخِمَةِ لها والممتدَّةِ حتَّى نهرِ دجلةَ. ولا غرابةَ في أنْ يكونَ الأسلوبُ على درجةٍ مِنْ هذِهِ الصَّنعَةِ، فهوَ أحدُ ألوانِ الأدبِ الرُّومانسِيِّ الذِي كانَ مزدهراً في أوروبَّا وأميركا إبَّانَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ.

٩ـ هل هناكَ أشياءُ مهمَّةٌ أخرَى؟

لا يفوتُنا أنْ نذكِّرَ بأنَّ صَاحبَ الرِّحلَةِ قدْ تعرَّضَ في رسائلِهِ بالمسِّ لحياةِ وصِفاتِ بعضٍ مِنَ الجماعاتِ والقبائلِ في الجبالِ، وذلكَ حينَما يكونُ مرتاعاً مِنْ موقفٍ يملأ قلبَهُ دهشةً ورهبةً وانفعالاً نتيجةً للاضْطراباتِ

(1) أمّا العنوان الذي نشرت تحته في «مجلّة الاستشراقيّة الأمريكيّة» فهو:
Article IV: Journal of a tour from Oromiah to Mosul through the koordish Mountain, and a visit to the ruins of Nineveh', By Rev. Justun Perkins D.D., Missionary of the American Board in Persia, (Read May 24, 1850.

التي كانَتْ تحيطُ بالمناطقِ التي اجتازَها في تلكَ الظُّروفِ الصَّعبَةَ مِنْ حياةِ «العراقِ». ومِنْ خلالِ قراءتِي لأعمالِ هذا الرَّجلِ قراءةً مُعمَّقَةً بالإنكليزيَّةِ القديمَةِ التِي سادَتْ في مُنتصَفِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، وجدْتُ أنَّ مهمَّتَهُ لمْ تكنْ تبشيريَّةً خالصَةً، فهوَ يبدُو مراسلاً يبحثُ عَنْ مَعلوماتٍ ليكتبَها في تقاريرَ ورسائلَ، يرسلُها مباشرَةً ـ ويكادُ ذلكَ يكونُ بشكلٍ يومِيٍّ ـ إلى أصْحابِ الشَّأنِ، بل كانَ لَهُ دورُهُ في توضِيحِ حالاتٍ وتوصِيفِ مُجتمَعاتٍ وتحليلِ علاقاتٍ وكشفِ مَعلوماتٍ جغرافِيَّةٍ وأنثربولوجِيَّةٍ وسوسيولوجِيَّةٍ؛ وهوَ يقدِّمُ في بعضٍ مِنَ الأحيانِ وصْفاً لأدقِّ الأشياءِ، كما يهتمُّ بالأوضَاعِ السِّياسيَّةِ السَّائدَةِ ويلاحقُ أخبارَها.

ويبدُو أنَّهُ ـ كأيِّ مبشِّرٍ بالمسيحِيَّةِ البروتستانتِيَّةِ ـ يرفضُ ليسَ الدِّيانتَيْنِ اليهودِيَّةَ والإسلامَ فقطْ، بل لَهُ مواقفُهُ النَّقديَّةُ مِنَ النَّساطرَةِ أيضَاً، ويسمِّي المسلمِينَ «المحمَّديِّينَ» ويطلقُ صِفَةَ الظَّلامِيَةِ على تلكَ الرُّبوعِ، ويتَّهِمُ الكردَ بقتلِ النَّساطرَةِ، وإذا كبارَ مَنْ يمتلكُونَ السُّلطةَ، يمارسُونَ القمعَ فإنَّ المُجتمعَ يمارسُ بعضُهُ ضِدَّ بعضِهِ الآخرِ القمعَ المدنِيَّ الثَّقيلَ.

يقولُ «جوستنُ» في نصٍّ كتَبَهُ ونشرَهُ في واحدٍ مِنْ كتُبِهِ: سحابةٌ سوداءُ في مجالِ عملِنا، وعقبَةٌ كأداءُ أمامَ تقدُّمِ المسيحِيَّةِ هناكَ، إذْ يقفُ أمامَنا ذلكَ القمعُ المدنِيُّ الثَّقيلُ كما هِيَ تجربةُ النَّساطرَةِ وهُمْ يواجهُونَ سطوةَ الأغواتِ[1] ورؤساءِ العشائرِ ورجالِ الدِّينِ المحمَّديِّينَ، وإذا لمْ يكنْ التَّعاملُ قاسياً وكبيراً، فالصَّفقَةُ الأثقلُ أيضَاً على الفلَّاحِينَ المسلمِينَ العادِيِّينَ، هوَ القمعُ الذِي يسحقُ حتَّى الرَّوحَ، وبسببِ ذلكَ فإنَّ الإنسانَ مُلزَمٌ بالحدودِ التِي يضعُونَها لَهُ، وتكونُ حركتُهُ ضِمنَ خطوطِ المجالِ التِي هوَ عليها، وخصُوصَاً في اتِّباعِهِ بالكلامِ أو بالنَّصِّ أنبلَ التَّطلُّعاتِ

(1) الأغوات: لقب زعماء الأكراد.

في مُواجَهَتِهِ اجتماعِيَّاً ومدنِيَّاً التِّباسَ الحديدِيَّ.[1] لكنْ حتَّى في تلكَ الأرضِ التِي تعانِي مِنَ المحمَّدِيَّةِ المظلمَةِ وطاحونَةِ الاستبدادِ؛ فإنَّهُ لا ينكرُ أحدٌ ذلكَ التَّعايشَ بينَ المسلمِينَ والمسيحِيِّينَ واحترامِ الأناجيلِ والكنائسِ، ولمْ يجرِ أيُّ فصْلٍ للأُسَرِ، ولا يحرمُ المسيحِيُّونَ مِنْ رجولتِهِم، ولا مِنْ حرِّيَّتِهِم الشَّخصِيَّةِ، ويتمتَّعُ كثيرٌ مِنَ الخاصَّةِ مِنَ الرِّجالِ بالحقوقِ والامتيازاتِ المناسبَةِ».[2]

إنَّ مَنْ يقرأ كُتُبَ «بيركنس» ورسائلَهُ، ويتمعَّنُ في مَوضُوعاتِها ويتأمَّلُ في أغراضِها، يجدْ أنَّ الرَّجلَ لمْ يمارسْ دورَ المبشِّرِ فقطُ، بل مارسَ دورَ الخبيرِ، والرَّحَّالةِ، ومُوظَّفَ الاتِّصَالاتِ، والباحثِ عَنْ المَعلوماتِ، والمُرسلِ للأخبارِ، والموضِّحِ للأوضَاعِ، والدَّارسِ للمُجتمَعاتِ والنَّاسِ والأقلِّيَّاتِ، ورجلِ الإحصَاءِ الذِي يعرفُ كمْ يوجدُ في كلِّ قريةٍ مِنْ سكَّانٍ وبيوتٍ؛ وما نوعُ السُّكَّانِ وما أديانُهُم وما أوضَاعُهُم!!.

١٠. ترجمتُهُ للكتابِ المُقدَّسِ

«دروسٌ مِنْ كلماتِ الله».

هوَ عنوانٌ لكُتَيِّبٍ صَغيرٍ في (50) صَفحَةً، ترجمَ فيه «الدُّروسَ المُستفادَةَ مِنْ كلامِ الله» وقدْ نشرَهُ في أورميا البوردُ الأمريكِيُّ للمُفوَّضِينَ للبعثاتِ الأجنبِيَّةِ وذلكَ عامَ (1841م) وقدْ عُدَّ أوَّلَ مَطبُوعَةٍ في السَّريانِيَّةِ الحديثَةِ أو الآرامِيَّةِ، وقدْ تمَّ طبعُهُ مِنْ قِبَلِ المجلسِ الأمريكِيِّ للمُفوَّضِينَ

(1) جاء في لسان العرب: الرَّبْسُ الضرّب باليدين. يقال: رَبَسَه رَبْساً ضربه بيديه والرَّبِيسُ المضروب أَو المُصابُ بمال أَو غيره. والمقصود هنا التّضييق كما يفهم من سياق الكلام

(2) Justin Perkins, 'Missionary Life in Persia'Being Glimpses at Quarter of A Century of Labors Among The Nestorian Christians (Cornhill, Boston: Published by American Tract Society, 1861), p. 196..

في البعثاتِ الأجنبيَّةِ في أورميا ـ بلادِ فارسَ ـ وكانَ «جوستنُ بيركنسُ» في ذلكَ الوقتِ على رأسِ تلكَ البعثةِ البروتستانْتِيَّةِ في وقتٍ مُبْكِرٍ للتَّبشيرِ بالبروتستانْتِيَّةِ في أوساطِ النَّساطرَةِ.

يقولُ «بيركنسُ» في مذكِّراتِهِ كمَا نقلَتْها الصّحافةُ عَنْ الورقةِ الأولى: في (13) مارسَ / آذارَ مِنْ عامِ (1841م) أحضرْتُ ورقةَ إثباتٍ مِنَ الجهازِ الأوَّلِ في الُّلغةِ النَّسطورِيَّةِ في دراستِي للتَّصْحيحِ، وهذِهِ هِيَ في الواقعِ الورقةُ الأولى، وطُبِعَ لأوَّلِ مرَّةٍ بتلكَ الُّلغةِ وتلكَ الحروفِ، ولمْ يحدثْ مثلُ هذا في أيِّ وقتٍ مضَى؛ ووضعْتُ الصَّفحةَ على طاولتِي أمامَ مترجِمَيْنا الكاهنَيْنِ «إبراهيمَ» و «دونكا» فأُصِيبا بدهشَةٍ ونشوةٍ لمَعرفتِي لغتَهُم كمَا جاءَتْ في المَطبوعَةِ؛ حتَّى إذا ذهبَتْ دهشتُهُم، سمحْتُ لهُم بالكلامِ، فقالا: حانَ الوقتُ لإعطاءِ المجدِ لله، وزادَ هتافُ بعضِهِما لبعضٍ عَنْ كيفِيَّةِ بدءِ طباعَةِ الكتبِ لشعبِنا!.

يحتوِي الكتابُ على الصَّلاةِ الرَّبَّانِيَّةِ، والوصَايا العشرِ، ونصُوصِ الكتابِ المُقدَّسِ التِي تمَّ جمعُها في مَوضُوعاتِ الكذبِ، والسَّرقةِ، والشَّتائمِ، والسُّكْرِ، والتَّوبةِ، والخلقِ الجيِّدِ، والتَّواضُعِ، ويومِ القيامةِ؛ و(على الغلافِ الخلفِيِّ).[1]

وصَلَ الكتيِّبُ إلى «اندوفر الَّلاهوتِيِّ» في عامِ (1900م) كجزءٍ مِنْ تركةِ قاعةِ إسحاقَ (1837–1896م) الذِي كانَ عالماً جَمَعَ الكثيرَ مِنَ الكتبِ والمَخطُوطاتِ السُّريانِيَّةِ، ووصَلَ في العامِ الدِّراسِيِّ (1911ـ 1912م) إلى المدرسةِ التِي تضُمُّ مكتبةَ اندوفرَ التَّابعَةَ الآنَ لكلِّيَّةِ هارفارد للَّاهوتِ. وينبغِي القولُ: إنَّ هذِهِ هِيَ النُّسخةُ الوحيدَةُ المَعرُوفَةُ، وقدْ وجدَها الدُّكتورُ «جي اف كوكلي» في جامعةِ هارفاردَ، بينَ أكوامٍ مِنَ

(1) الأمثال ٩, ٢٨ و لوقا ٤٧, ٦,

الكتبِ في المكتبةِ، ونُشرَتْ منذُ ذلكَ الحينِ مَقالَةٌ صَغيرَةٌ عَنْ «أوائلُ الكتبِ السُّريانِيَّةِ المَطبُوعَةُ حديثاً»[1] وتمَّ تضْمينُهُ أيضاً في نشرةِ مكتبَةِ جامعةِ هارفاردَ.[2]

ثانياً: ترجمةُ وسيرةُ الرَّحَّالةِ جوستنَ بيركنسَ

١. حياتُهُ

وُلدَ «جوستنُ بيركنسُ» في 12 مارسَ/ آذارَ عامَ 1805م في غربِ المُقاطَعَةِ الأمريكِيَّةِ (Westfield) التِي تُسمَّى الآنَ (Holyoke) وقدْ لازمَ حلقاتِ (Andover) الدِّراسيَّةَ اللَّاهوتِيَّةَ للمدَّةِ ما بينَ العامَيْنِ (1830م) و (1832م) وتزوَّجَ مِنَ المِس "شارلوتَ باسَ" في 21 تمُّوزَ / يوليو 1833م، وأنجب مِنْهَا سبعَةَ أطفالٍ.

٢. مُختَصَرُ سيرتِه الذَّاتيَّة

نالَ «جوستنُ» درجةَ الماجستيرِ في كلِّيَّةِ أمهرستَ عامَ (1832م) والدُّكتوراه عامَ (1833م) وقبلَ حصُولِهِ على دكتُوراه اللَّاهوتِ، رُسِمَ كاهِنا في غربِ سبرينغفيلدَ في (7) يونيو/ حزيرانَ عامَ (1833م) ومضَى في العامِ ذاتِهِ مَعَ عروسِهِ «شارلوتَ باسَ» مِنْ ميدلبري في فيرمونتَ نحوَ بلادِ فارسَ. وبعدَ رحلةٍ شاقَّةٍ استغرقَتْ نحواً مِنْ عام، وصَلا إلى وجهتِهما، ويبدُو أنَّ المهمَّةَ الصَّعبَةِ تلكَ كانَتْ تبشيرِيَّةً بالدَّرَجةِ الأولى، ولكنْ يبدُو واضِحاً مِنْ خلالِ قراءةِ رسائلِهِ أنَّهُ كانَ يرسلُ بِكَمٍّ هائلٍ مِنَ المَعلوماتِ الجغرافِيَّةِ والأنثربولوجِيَّةِ والسُّكَّانِيَّةِ؛ وعَنْ مَوجُوداتٍ وأخبارِ الاكتشافاتِ الآثارِيَّةِ التِي كانَ يضْطَلِعُ بها الأركيولوجُّيونَ والمنقِّبُونَ البريطانِيُّونَ والفرنسِيُّونَ بشكلٍ خاصٍّ.

(1) وذلك في مجلّة الجمعيّة الأكاديميّة السرّيانيّة (م 9، عدد 2، 1995).

(2) م، ت 6، رقم 4، شتاء، 1995.

كانَ أوَّلَ النَّساطرَةِ الذِينَ التقَى بهِم بيركنسُ هوَ المطرانُ (مار يوحنا ـ Yohannan) وعندَما عادَ إلى أمريكا ـ إلى هوليوك بالضَّبطِ ـ في وقتٍ لاحِقٍ لبعضٍ مِنَ الوقتِ مِنْ أجلِ أنْ يرتاحَ قليلاً مِنْ عملِهِ التَّبشيريِّ؛ كانَ برفقة (مار يوحنا ـ Yohannan). ووفقاً لتاريخِ النَّساطرَةِ ، فقدْ كانَ وجودُ الأخيرِ بمعيَّةِ بيركنسَ، قدْ أيقظَ أولئكَ النَّاسَ النَّساطرَةَ ـ كمَا تقولُ المَعلوماتُ الأميركِيَّةُ – وهُمْ طائفَةٌ قديمَةٌ لها كنيسَةٌ مسيحِيَّةٌ، وهُمْ الذِينَ يؤمنُونَ بأنَّ للمسيحِ شخصِيَّتَيْنِ متمايزَتَيْنِ؛ وقدْ أمضَى كلٌّ مِنْ "جوستنَ بيركنسَ" وزوجتِهِ أكثرَ مَنْ ثلاثِينَ عاماً في بلادِ فارسَ بوصْفِهِما مبشِّرَيْنِ، وقامَ "جوستنُ" بتأليفِ كتابِهِ المُعنْوَنِ بـ «ثمانُ سنينَ مِنَ الإقامةِ في بلادِ فارسَ» وكتابِهِ المُعنْوَنِ بـ «الحياةُ التَّبشيريَّةُ في بلادِ فارسَ» في حينِ كانَ صَديقُهُ «إلياس ريغز» قدْ قامَ بدورٍ مهِّمٍ في كلٍّ مِنَ اليونانِ بينَ العامَيْنِ (1833م) و (1838م) وتركيَّا العثمانِيَّةِ مِنْ عامِ (1838م) إلى عامِ (1901م) في تطويرِ الحركةِ التَّبشيريَّةِ، وقدْ كُتِبَتْ على قبرِ القسِّ بيركنسَ العبارةُ التَّالِيَةُ الأكثرُ أهمِّيَّةً: كانَ بيركنسُ بمنزلةِ الأبِ المحبِّ، حاملاً لواءَ الحركةِ التَّبشيريَّةِ الأولى إلى النَّساطرَةِ، والذِي كرَّسَ جهودَهُ العلمِيَّةَ النَّاجحَةَ لها.

سُمِّيَ «جوستنُ» كاهناً في الكنيسَةِ الأبرشيَّةِ الكهنوتِيَّةِ في سنةِ (1833م) ثمَّ مبشِّراً، وأُرسلَ كمَبعُوثٍ أجنبِيٍّ ضِمنَ رحلاتِ التِّجارةِ الأمريكِيَّةِ الخارجِيَّةِ؛ وكانَ تخصُّصُهُ في مَوضُوعِ «المسيحِيُّونَ النَّساطرَةُ في شمالِ غربِ إيرانَ» وشرعَ في مهمَّتِهِ في بلادِ فارسَ منذُ (21) سبتمبرَ/ أيلولَ عامَ (1833م) التِي امتدَّتْ حتَّى عامِ (1869م) وقدْ أسَّسَ مركزاً تبشيرِيَّاً في مدينةِ أورميا بإيرانَ، كما أسَّسَ فيها أوَّلَ مدرسةٍ لانكاستربانِيَّةٍ في آسيا الوسطَى.

ويُعدُّ «بيركنسُ» أوَّلَ مَنْ حوَّلَ اللُّغةَ النَّسطورِيَّةَ العامِّيَّةَ إلى السُّريانِيَّةِ

الحديثَةِ كتابةً، وأسَّسَ في سنةِ (1840م) دارَ طباعةٍ واشتغلَ محرِّراً في مجلَّةِ (شعاعاتِ الضَّوءِ ـ Rays of Light) خلالَ الأعوامِ (1840–1869م).

ومِنْ أعمالِهِ:

ـ ترجمةُ العهدِ الجديدِ إلى اللُّغةِ السُّريانِيَّةِ سنةَ (1846م).

ـ ترجمةُ العهدِ القديمِ إلى اللُّغةِ السُّريانِيَّةِ سنةَ (1843م).

ـ كتابُ: إقامةُ ثمانِ سنينَ في إيرانَ.[1]

ـ كتابُ: الحياةُ التَّبشيرِيَّة في إيرانَ.[2]

ـ كتابُ: مُخطَّطٌ تاريخِيٌّ للبعثَةِ التَّبشيرِيَّةِ نحوَ النَّساطرَةِ.[3]

The Pasha and the Gypsy

Writings on Turkey, Kurdistan, and the Eastern Mediterra nean

Sunday, August 23, 2009

واطلعتنا مجلة الدراسات الأكاديمية الآشورية. على معلومات تخص جوستن بيركنس وهو من رواد المبشرين الامريكيين في شمال غربي

(1) Justin Perkins, ‘ A Residence of Eight Years in Persia, Among the Nestorian Christians: With Notices of the Muhammedans, (Allen, Morrill & Wardwell, 1843), 512 pages. .

(2) Justin Perkins, ‘Missionary Life in Persia’Being Glimpses at Quarter of A Century of Labors Among The Nestorian Christians (Cornhill, Boston: Published by American Tract Society, 1861).

(3) Perkins (J.), and Laurie (T.) Historical sketch of the mission to the Nestorians, and of the Assyria mission. 32 pp. 8°. New York, 1862.

ايران، ولم يزل اسمه يتردّد في بلاد فارس عند المسيحيين النساطرة (الذين يسمّون اليوم بالآثوريين) ، وخصوصا في مدينة أورميا وجبال هكاري في تركيا ومناطقها الجبلية الصعبة ، اذ كانت له جهوده المميزة وخصوصا في العمل مع المساعدين الأصليين لتأسيس نسخة مخطوطة للكتاب المقدس كتبها باللهجة السريانية الحديثة الخاصة ، وكانت له جهوده في ترجمتها إلى تلك اللغة الجديدة وخصوصا في ترجمة وكتابة النصوص الآرامية القديمة التي تستخدم في خدمات الكنيسة والتي لم تكن مفهومة وعنايته الكبيرة بكل من العهد الجديد والقديم في السريانية الحديثة، فضلا عن جهوده في مساحات دينية متعددة ، اضافة الى نصوص معرفية وتربوية لها اهميتها للمدرسة سواء في الجغرافيا والعلوم الطبيعية، والتاريخ. نجح في اختيارها في اللغة الإنكليزية ناهيكم عن كتب ومقالات ورسائل عدة وروايات اعتنى بها اثناء اقامته في السنوات المهمة من حياته في بلاد فارس، والأكثر حيوية وفائدة منها تشمل ثمانية سنوات قضاها في بلاد فارس منذ (1841)[1].

وتوفِّي «جوستنُ بيركنسُ» في 31 كانونَ الأوَّلِ / ديسمبرَ سنةَ 1869م[2].

(1) Gordon Taylor , Deep Water : Life and Death in the Perkins Family, 1834-1852, Journal of Assyrian Academic Studies , Vol. 23, no. 1, 2009, pp. 64-73.

(2) هذه هي الترّجمة الحرفيّة الكاملة لحياة الرّحالة جوستن بيركنس التي تضمّنتها الموسوعة:

Who was who in America: historical Volume 1607-1896, Chicago, ed. 1967, p. 467.

ثالثاً: المَخاضَاتُ التَّاريخيَّةُ الصَّعبَةُ

١. فحوى العملِ

ضَمَّنَ «جوستنُ بيركنسُ» في رسالةٍ مُؤرَّخَةٍ في (29) يناير / كانونَ الثَّانِي عام 1849م) أحدَ تقاريرِهِ العادِيَّة المُرسلَةِ إلى «مجلسِ المُفوَّضِينَ الأمريكِيِّينَ» للبعثاتِ الأجنبِيَّةِ في بوسطنَ،[1] وقدْ عالجَ فيه أموراً عديدَةً تخصُّ مهمَّاتِهم الأمريكِيَّةَ في الشَّرقِ الأوسطِ، وناقشَ الأحداثَ الأخيرَةَ التِي وقَعَتْ في (حكاري) وهِيَ جبالُ كردستانَ المركزِيَّةُ؛ وخصُوصَاً عمليَّاتِ القوَّاتِ التُّركِيَّةِ العثمانِيَّةِ. وبدا «بيركنسُ» مِنْ خلالِ مَعلوماتِهِ التِي كانَ يرسلُها مغتبطاً بهزيمَةِ الأتراكِ العثمانِيِّينَ، وتحدَّثَ عَنْ (نورِ الله ـ Nurullah، وهو مير = أمير) كرديٌّ مستقلٌّ آخرُ قامَتْ حركاتُهُ فيَ حكاري، وقدْ دُعِيَ نورُ الله بـ "الوحش" وتحدَّثَ بيركنسُ عن سقوطِهِ.

ويبدُو التَّقريرُ الآخَرُ الوارِدُ مِنْ "جوستنَ بيركنسَ" والمُؤرَّخُ في 29 كانونَ الثَّانِي/ يناير 1849م أنَّهُ رسالةٌ سجَّلَ فيها أخباراً ذاتَ طابعٍ شخصِيٍّ أكثرَ مِنْ كونِها مَعلوماتٍ عامَّةً، وكشفَ فيها أنَّ ابنتَهُ الصُّغرَى فيديليا قدْ توفِّيَتْ قبلَ ستَّةَ أيَّامٍ فقطُ. وقدْ أبدَى حسراتِهِ وحسرَاتِ زوجتِهِ شارلوتَ عليها، فقدْ كانَ عمرُ فيديلْيا (11) شهراً عِنْدَ وفاتِها، وقدْ تمَّ دفنُها في بلادِ فارسَ، وكانَتْ الطِّفْلَ الخامسَ لَهُ، وكذلِكَ سبقَها في الموتِ طفلُهُ الآخَرُ (جوناثان ـ Jonathan) الذِي كانَ قدْ وُلدَ قبلَ ثلاثِ سنينَ! أمَّا مَنْ تبقَّى مِنْ أطفالِ بيركنسَ، فهُمْ: هنرِي، وهوَ في سنِّ خمسِ سنينَ، وجوديثُ، وهِيَ تقتربُ مِنْ تسعِ سنينَ.

(1) Missionary Herald, June 1849. Vol. XLV, No. 6.

٢ـ الإبحارُ نحوَ الشَّرقِ الأوسط

لمْ يبقَ مِنْ أولادِ بيركنسَ السَّبعةِ سوى اثنَيْنِ فقطُ![1] إذْ كانَ فقدُهُم في ظروفٍ صعبَةٍ.

وكانَتْ متاعبُ كلٍّ مِنْ «جوستنَ» وزوجتِهِ «شارلوتَ» مستمرَّةً، وعلى الرَّغمِ مِنْ ذلكَ كانا يمضِيانِ بكلِّ نشاطٍ في مسارِهِما التَّبشيريِّ، وعاشا تجربتَهُما وكأنَّهُما في قفصِ الاتِّهامِ، وكانا يتعرَّضَانِ لأسوءِ الظُّروفِ، ويقتربانِ مِنَ المهالِكِ منذُ يومِ إبحارِهِما على متنِ السَّفينةِ مِنْ بوسطنَ يومَ (21) سبتمبر/ أيلولَ عامَ (1833م) وكانُوا يتلقيان المزيد من الإهانة ويلاقيان المصاعب مُنْذُ اللَّحظةِ التِي انطلَقا فيها مِنَ الميناءِ باتِّجاهِ الشَّرقِ! فقدْ كانَتْ السَّفينَةُ قدْ أُصِيبَتْ بسلسلَةٍ مِنَ العواصِفِ الهوجاءِ، حتَّى عبرَتْ المحيطِ الأطلسِيَّ، ثمَّ دخلَتْ البحرَ المتوسِّطَ بعدَ مرورٍ سريعٍ في فصْلِ الشِّتاءِ الصَّعبِ؛ حتَّى حلُّوا بالعاصِمَةِ العثمانِيَّةِ «استانبولَ» ومضَيَا في حزيرانَ / يونيو عامَ (1834م) وكانَ عمراهُما (29) سنةً لـ «جوستنَ» و (25) سنةً لزوجتَهَ «شارلوتَ» وسرعانَ ما تحرَّكا برَّاً بعدَ تلكَ الرِّحلةِ البحريَّةِ القاسِيَةِ، وكانَ الاثنانِ على متنِ قافلَةِ خيولٍ انطلقَتْ بهِما مِنْ طرابزونَ إلى تبريزَ عَنْ طريقِ أرضروم.[2]

وقدْ سجَّلَ بيركنسُ بعضاً مِنْ أخبارِ حوادثِ القتلِ التِي كانَتْ تجرِي دوماً بالإغارةِ على القوافلِ، والتِي كانَ يمارسُها بعضٌ مِنَ المتمرِّدِينَ الأكرادِ بقيادَةِ جلالِي، وكانَتْ تلكَ الغاراتُ تمتدُّ على طولِ الطَّريقِ، ولهذا السَّببِ سلكَتْ القافلَةُ في سيرِها غربَ جبلِ أراراتَ، وكانَ لابدَّ مِنَ القيامِ

(1) List of graves at Seir cemetery by George Moradkhan of Urmia, 1957. Letter to author by Mary Cochran Moulton, 14 February 2003.

(2) Justin Perkins. A Residence of Eight Years in Persia. Andover, 1843.

بحركةِ التِفافٍ في الطَّريقِ نحوَ إيرانَ إلى عقدَةِ الحدودِ المُشتَرَكَةِ مَعَ روسيا؛ وخصُوصَاً في أراضِي كلٍّ مِنْ جورجيا وأرمينيا. ويُتوقَّعُ أنَّ هذا الانعطافَ الجغرافِيَّ تمَّ خلالَ الأيَّامِ السِّتَّةِ التِي سبقَتْ كتابةَ بيركنسَ لمَعلوماتِهِ، ثمَّ تمَّ الحجرُ على أفرادِ القافلَةِ لمدَّةِ أربعةِ أسابيعَ مِنْ قِبَلِ المَسؤولِينَ الرُّوسِ، الذِينَ عملُوا كلَّ ما في وسعِهِم لمُضَايقَةِ «جوستنَ» وزوجتِهِ التِي أمضَتْ عيدَ ميلادِها السَّادسَ والعشرينِ (الموافقَ للثَّانِي مِنْ آبَ / أغسطسَ) في الحجرِ الصِّحِّيِّ مَعَ زوجِها، وقدْ كانا يستمعانِ إلى المسافرِينَ وهُمْ يُجلدُونَ مِنْ قِبَلِ الشُّرطةِ الرُّوسِيَّةِ، إذْ كانَا في خيمَتِهَما على بضْعَةِ أقدامٍ مِنْهُم.

ويقارنُ بيركنسُ بينَ توحُّشِ سلوكِ تلكَ السُّلطةِ «المسيحِيَّةِ» وبينَ الأتراكِ العثمانِيِّينَ المسلمِينَ الذِينَ كانُوا بمنتَهَى اللُّطفِ وكرمِ الضِّيافةِ معَهُما، ويشيرُ إلى أنَّهُ يقدِّرُ ذلكَ دائماً كما جاءَ على لسانِهِ.[1]

في يومِ 14 آبَ / أغسطسَ، وجدَ بيركنسُ نفسَهُ وشريكَةَ حياتِهِ في مُواجَهَةِ معضِلَةٍ أخرَى بعدَ الحجرِ الصِّحِّيِّ، إذْ تمزَّقَ جوازا سفرِهِما، ووجدا نفسَيْهِما عِنْدَ ضِفافِ نهرِ أراسَ (آراكسس)[2] مِنْ دونِ أجوزةِ سفرٍ، فكيفَ إذنْ يمكنُهُما الدُّخولُ إلى الأراضِي الفارسِيَّةِ؟.

كانَ الحرُّ شديداً، ووصَلَتْ درجةُ الحرارَةِ أثناءَ النَّهارِ خارجَ الخيمَةِ التِي كانَتْ تعصِفُ فيها البراغيثُ إلى (110) ف (تقابلُ 43 3/3 مئويَّةً). وفي لحظةِ يأسٍ، كَتَبَ بيركنسُ نداءً إلى «السَّفيرِ البريطانِيِّ المقيمِ في تبريزَ، وأعطاهُ لأحدِ السُّعاةِ الفرسِ الذِي كانَ عابراً النَّهرَ؛ وفي تلكَ اللَّيلَةِ الصَّعبَةِ، أعادَ الرُّوسُ لبيركنسَ وزوجتِهِ جوازَي سفرِهِما مِمَّا أثارَ دهشتَهُما بعدَ أنْ كادَ اليأسُ يقتلُهُما. وبذلِكَ أتمَّ الاثنانِ في نهارِ اليومِ الثَّانِي انتقالَهُما

(1) Eight Years, p. 108; pp. 111- 112; p. 122.

(2) هو نهر (آراس ـ Araz) الطّويل السرّيع الذي يفصل اليوم بين تركيا وأرمينيا، ويجري نحو إيران.

عبرَ نهرِ آراكسسَ بانتظارِ المُساعَدَةِ في أقربِ وقتٍ؛ والتِي ستأتيهما على هيئةِ رسالةٍ مِنَ السِّيرِ (جون كامبل ـ Sir John Campbell) سفيرِ صَاحبَةِ الجلالةِ إلى بلادِ فارسَ؛ والذِي كانَ قدْ أرسلَ إليهما مَندُوباً هوَ الدُّكتورُ (وليام ريتش ـDr William Rich.) على ظهرِ خَيْلٍ لمساعدتِهما حيثُ التقَى ببيركنسَ على بعدِ مسافةٍ قصِيرَةٍ مِنْ آراكسس. وقدْ كانَ بيركنسُ وزوجتُهُ قبلَ يومِ 23 آبَ / أغسطسَ متخفِّيَيْنِ في "السَّفارةِ البريطانِيَّةِ" بتبريزَ، حيثُ صَرَّحَ "Campbell» بأنَّ "بيتِيَ مَفتُوحٌ لكمُ أيُّها الأمريكِيُّونَ".

كانَتْ زوجتُهُ «شارلوتُ» تعانِي طوالَ ذلكَ الوقتِ مِنْ مرضٍ خطيرٍ، وبقيَتْ على مدَى ثلاثةِ أيَّامٍ لاحقَةٍ، لا يُعرفُ مرضُها الذِي صَاحَبَهُ إقياءٌ وحمَّى شديدَةٌ،[1] ثمَّ إنَّها وضَعَتْ طفلَةً، لكنَّ الطِّفلَةَ ماتَتْ في غضُونِ أشهرٍ، ودُفنَتْ في تبريزَ. ووفقاً لِمَا كَتَبَهُ «جوستنُ» فإنَّ زوجتَهُ استردَّتْ عافيتَها، ولكنَّ تلكَ العافيَةَ لمْ تكنْ كاملَةً حقَّاً.

وكانَتْ «شارلوتُ» قدْ ولدَتْ ابنَها الأوَّلَ في 14 أبريلَ / نيسانَ (1836م) وسمَّتْهُ «وليام» تيمُّنَاً باسمِ (وليام ريتش ـ William Rich) الطَّبيبِ الذِي ركبَ لنجدتِهما في نهرِ آراكسس، وكانَتْ "شارلوتُ" قدْ أنشأَتْ على الضِّفةِ الغربِيّةِ للبحيرَةِ مقرَّاً رباعِيَّاً دائماً للمبشِّرِينَ في أورميا، وكانَ الدُّكتُورُ "عسالُ" وزوجتُهُ "جوديثُ" قدْ وصَلا في عامِ (1835م) مِنْ خلالِ منحةٍ، وتبعَهُما "وليام ستورج" و "ألبرت هولاداي"

(1) يبدو أنهّا كانت حاملًا، إذ يعلن بيركنس (في ثماني سنين في بلاد فارس) أنّ شارلوت سلّمت الطّفلة مع القيء، والحمّى، ويبدو أنها كانت فاقدة الوعي لثلاثة أيّام، إذ أدركت بعدها أنّها قد وضعت. وهكذا ولدت أوّل طفل على الأرض الفارسيّة، شارلوت نيسبيت بيركنس.
اسمه ليس فقط لأمّه ولكن لشارلوت نيسبيت، زوجة ضابط الجيش الإنكليزيّ الذي اهتمّ للطفل خلال مدّة النّقاهة.

وزوجتاهُما.

٣ـ في مُواجهَةِ التَّحدِّيات

هنا بدأ «العملُ العظيمُ» ـ على حدِّ قولِ الرَّاوي – وهنا أيضَاً جاءَتْ نوباتُ المرضِ التِي لا تنتَهِي. ولمْ تكنْ أمورُ الأمريكيِّينَ في تلكَ السَّنينَ الأولى في حالةٍ طيِّبَةٍ ولمْ يكونُوا في صحَّةٍ جيِّدَةٍ. وأصْبَحَتْ صحَّةُ «جوديثَ» زوجةِ الطَّبيبِ «كرانت» جيِّدَةً في كانونَ الثَّانِي / يناير عامَ (1839م) وكانَتْ قدْ بدأَتْ المحرقَةُ ضِدَّ الأطفالِ الذِينَ رحلُوا، إذْ فقدَ ذلكَ الطَّاقمُ العديدَ مِنْ أطفالِهِم الذِينَ دفنُوهُم في مقبرةٍ غدَتْ مُهمَلَةً بشدَّةٍ، والتِي قامَ الطَّلَبَةُ بتنظيفِها، وكانَتْ مَقبرَةُ «وادِي الصَّخرَةِ» مُخصَّصَةً لطاقمِ بيركنسَ. وقدْ ناضلَ «بيركنسُ» وصَديقُهُ الدُّكتورُ «كرانت» مِنْ أجلِ مُواجَهَةِ نوباتٍ لا تنتهِي مِنَ الوباءِ الذِي اجتاحَ المنطقةَ خلالَ السِّنينَ الأولى، وقضَى على أناسٍ كثيرِينَ، وفَقَدَ «جوستنُ» وزوجتُهُ «شارلوتُ» الابنَ الثَّانِيَ «همفري» وكانَ عمرُهُ أحدَ عشرَ شهراً. واستمرَّتْ المحرقةُ في العامِ (1840م) في اجتياحِ الأطفالِ، والتقطتْهُم واحداً تلوَ الآخرِ، وفَقَدَ الدُّكتورُ «كرانتُ» ابنتَيْهِ التَّوأمَ ولهُما مِنَ العمرِ سبعةَ عشَرَ شهراً؛ ثمَّ ذهبَ ضحيَّةَ الوباءِ أطفالٌ بعمرِ الزُّهورِ، وهُمْ مِنَ الجالِيَةِ الأميركِيَّةِ، وقضَى أخيراً في (7) فبرايرَ / شباطَ «وليامَ بيركنسَ» البالغَ مِنَ العمرِ ثلاثَ سنينَ وعشَرَةَ أشهرٍ، ودُفِنَ هناكَ في قبرِهِ الصَّغيرِ.

وفي مُواجَهَةِ هذِهِ الخسارةِ الأُسَرِيَّةِ، وبعدَ أنْ واجهَ الآباءُ والأمَّهاتُ مثلَ هذِهِ الصَّدماتِ النَّفسِيَّةِ، خشيَ بعضُهُم الخرابَ ـ كما كتبَ بيركنسُ في أوراقِهِ ورسائلِهِ ـ ولقدْ خشيَتْ «شارلوتُ» نفسُها مِنْ أنْ تصْبحَ عاقراً بعدَ تلكَ الصَّدماتِ النَّفسِيَّةِ الصَّعبَةِ! لكنَّها وجدَتْ نفسَها حاملاً، وولدَتْ في (8) أغسطسَ / آبَ عامَ (1840م)، ولكنَّها كانَتْ تعيشُ مُعانَاةً صَعبَةً، وقدْ لحظَ «جوستنُ» أنَّ زوجتَهُ بدأَتْ في الانهيارِ، فكتبَ

إلى المجلسِ الأمريكِيِّ يطلعُهُم على حالتِهَا قائلاً:

(لَّا تركْتُ السَّيِّدَةُ بيركنسُ أمريكا، كانَتْ تتمتَّعُ بصحَّةٍ أكثرَ كمالاً، وعندَما وصلْنا إلى هذا البلدِ، تعرَّضْنا للمخاطرِ والتَّجاربِ الصَّعبَةِ التِي اجتزْناها، ولا سيَّما في المدَّةِ الأولى مِنَ التَّجربَةِ التَّبشيرِيَّةِ لدَيْنا؛ وأنتُمْ تعلمُونَ ذلكَ، وقدْ كانَتْ السَّيِّدَةُ بيركنسُ في الأصْلِ على ما يُرامُ، ولكنَّها انهارَتْ، ويبدُو أنَّها أُصِيبَتْ بمرضٍ ينذرُ بالخطرِ، وأخشَى أنْ يُقضَى عليها جرَّاءَ المُعاناةِ التِي لا تُوصَفُ والتِي واجهتْها في طريقِنا إلى بلادِ فارسَ؛ إنَّ المرضَ شديدٌ جدًّا، ولكنَّها نالَتْ الشِّفاءَ فورَ وصُولِنا إلى تبريزَ، لكنَّ المرضَ عادَ إليها، ويبدُو أنَّ الشِّفاءَ بعيدٌ تماماً عَنْ مُتناوَلِ الأملِ حتَّى لبعضٍ مِنَ الوقتِ، ولا نعرفُ متَى تتعافَى تماماً مَنْ آثارِ ذلكَ؛ على الرَّغمِ مِنْ أنَّها تمتَّعَتْ بالمزيدِ مِنَ الصَّحَّةِ المَقبُولَةِ في الكثيرِ مِنَ الوقتِ في تبريزَ؛ إنَّ مناخَ (أورميا ـ Oroomia) قدْ أثَّرَ جدِّيًّاً علينا، وكثيراً ما عانَتْ السَّيِّدَةُ بيركنسَ مِنْ هجماتٍ حادَّةٍ مِنَ الحمَّى، وقيلَ: إنَّها كانَتْ تعانِي كثيراً مَعَ التهاباتٍ في العينَيْنِ "ophthalmy»" وبسببِ ذلكَ، هِيَ غيرُ قادرَةٍ على القراءةِ والكتابةِ، إضَافةً إلى مشاعرِها الحزينَةِ الدَّائمَةِ بسببِ وفاةِ ثلاثةِ أطفالٍ لنا، ممَّا زادَ مِنْ محنَتِنا القاسِيَةِ، وكلُّ يومٍ يمرُّ علينا هوَ أشدُّ مِنَ السَّابقِ، ونحنُ في بلادٍ بعيدَةٍ لا نعرفُ ما الذِي سنواجِهُهُ فيها مِنْ صَدماتٍ أكثرَ خطورَةً.).

ويتابعُ «بيركنسُ» في مكاتباتِهِ، ويذهبُ إلى تقديمِ أخبارٍ أكثرَ مَدعاةً للقلقِ للجميعِ، فيقولُ:

(ونتيجةً لهذِهِ الأمراضِ والمنغِّصَاتِ التِي واجهناها في العامَيْنِ الماضِيَيْنِ ونصْفِ العام، فإنَّ السَّيِّدَةَ بيركنسَ تعانِي الآنَ مِنْ أعراضِ الصَّرعِ، وواجَهَتْ خلاَلَ الشَّهرَيْنِ الماضِيَيْنِ بإرادةٍ صُلبَةٍ قويَّةٍ هجومَيْنِ شديدَيْنِ مِنْ هذا المرضِ اللَّعينِ، ثمَّ أصِيبَتْ بهجومٍ آخرَ قبلَ بضْعَةِ أيَّامٍ،

وخصُوصَاً منذُ وفاةِ ويليامَ، وهوَ طفلُنا الوحيدُ. إذْ ظهرَتْ الأعراضُ عندَما فقدَتْ الشَّهيَّةَ نهائيَّاً جرَّاءَ «الحمَّى» (هِيَ الملاريا) وقدْ تعرَّضْنا لذاتِ الأوضَاعِ في كثيرٍ مِنَ الأحايينِ، ونعانِي جميعاً مِنْ هذا المناخِ).[1]

كانَتْ حالاتُ «الصَّرعِ» التِي انتابَتْ السَّيِّدَةَ «بيركنسَ» ربَّما تعنِي «نوباتٍ» تهاجمُ مَنْ يُبتَلى بهذَا المرضِ، وإنَّ مِنَ الصَّعبِ أنْ تعرفَ طبيعةَ التَّشخيصِ الذِي استنتَجَهُ الدُّكتورُ «غرانت» والذِي أولاهُ عنايتَهُ، وهوَ طبيبٌ منذُ وقتٍ مُبْكِرٍ مِنَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، ولكنْ بدا أمامَ هذا المرضِ كأنَّهُ لا يعرفُ أيَّ شَيْءٍ، فالمُعاناةُ أساساً هِيَ مِنَ التَّقيُّؤِ بشكلٍ شبهِ يومِيٍّ، وهذا ناجمٌ عَنْ جرعةٍ زائدَةٍ مِنَ الكالوميل (أكسيدِ الزِّئبقِ) الذِي كانَ قدْ اتُّخِذَ دواءً للمنكوبِينَ بالكوليرا.[2] أمَّا «الحمَّى» التِي كانَتْ تنتشرُ بشكلٍ كبيرٍ في المُستوطَنَةِ ـ أي في أورميا ـ فقدْ أثَّرَتْ على جميعِ المُرسَلِينَ وأعضَاءِ الجاليَةِ. إنَّها الملاريا الحادَّةُ التِي يمكنُ أنْ تنتجَ عَنْهَا مُضَاعَفاتٌ وتأثيرَاتٌ مُصَاحِبَةٌ لها، بما في ذلكَ الهذيانُ، والغيبوبَةُ، والتَّشنُّجاتُ، وبطبيعةِ الحالِ فقدانُ السَّوائلِ، ويختمُها الموتُ مِنْ ناحيةٍ أخرَى، فقدْ لا يكونُ ما نعانِي مِنْهُ هوَ الملاريا على وجهِ التَّحديدِ.

ويظهرُ مِنَ المَعلوماتِ التِي كَتَبَها بيركنسُ أنَّ الأمراضَ متشابكَةٌ، وهوَ لا يعرفُ بالطِّبِّ، إذْ استخدمَ كلماتٍ طبِّيَّةً في غيرِ مَواضِعِها، ومِنْهَا كلمةُ الصَّرَعِ؛ لإخفاءِ حقيقةِ ما كانَتْ تحسُّ بِهِ زوجتُهُ، وهِيَ التِي كانَتْ تعانِي بقسوةٍ تحتَ ضَرباتِ مطرقةِ المرضِ والولادةِ، والفجيعَةِ أنَّ زوجتَهُ بالبداهةِ كانَتْ تقتربُ مِنْ أنْ يمسَّها الجنونُ.

على أيَّةِ حالٍ، عرفَ «بيركنسُ» أنَّ مِنَ الواجبِ أنْ يعالجَ زوجتَهُ «شارلوتَ» خارجَ البلادِ، أو أنْ يذهبَ بها إلى أيِّ مكانٍ لإنقاذِ حياتِها.

(1) Eight Years, p. 461- 2.

(2) See Gordon Taylor, Fever and Thirst, p. 79- 80.

وكانَ الدُّكتورُ «جرانتُ» يلازمُهُ ذاتُ الشَّعورِ نحوَ الطَّريقَةِ فيما يمكنُ عملُهُ إزاءَ طفلِهِ؛ وهوَ الوحيدُ الباقِي لهُمْ، إذْ تركَ مهمَّتَهُ في (7) مايو / أيَّارَ عامَ (1840م) لنقلِ الصَّبِيِّ إلى برِّ الأمانِ في أمريكا. ولمْ يكنْ قرارُ الرَّجلِ سهلاً، فقدْ وجدَ «جوستنُ» وكبارُ المبشِّرينَ، أنَّ جهدَهُم الأساسِيَّ المتمثِّلَ في ترجمةِ الكتابِ المُقدَّسِ قدْ يضِيعُ إنْ هوَ سافَرَ عائداً إلى أمريكا، وكانَ يحسُّ بوخزاتِ الشُّعورِ بالذَّنْبِ، إذْ كانَ قدْ أعلنَ عندَما غادرَ أمريكا أنَّهُ ينوِي عدمَ العودةِ، إلَّا إنْ حلَّتْ بِهِ «كارثَةٌ».

وفي (17) نوفمبرَ/ تشرينَ الأوَّلِ (1840م) كَتَبَ أعضَاءٌ آخرونَ مِنَ البعثةِ يطلبُونَ العفوَ عَنْ ذنبِهِ؛ وذلكَ في رسالةٍ مُوقَّعَةٍ مِنْ قِبَلِ أربعَةٍ مِنَ المبشِّرينَ المُرسَّمِينَ، وحثَّهُ على اتِّخاذِ القرارِ الصَّعبِ بالعودةِ إلى أمريكا في أوَّلِ فرصَةٍ آمنَةٍ، لكنَّ تلكَ الفرصَةَ لمْ تأتِ إلَّا في (5) يوليو / تمُّوزَ عامَ (1841م).

٤ـ جوستنُ وشارلوتُ يعودانِ إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ

لا شَيْءَ سيمرُّ بيسرٍ على كلٍّ مِنْ «جوستنَ» وزوجتِهِ «شارلوتَ» في رحلةِ العودةِ إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ؛ التِي ثبتَ كمْ هِيَ مزعجَةٌ ومؤذيَةٌ، كالتِي عانَيا مِنْهَا عِنْدَ مجيئِهِما، وهلْ سيتحمَّلانِ ذلكَ مرَّةً أخرَى؟! فقدْ مرَّتْ بذاكرتِهِما سرقةُ قطَّاعِ الطُّرقِ الخيولَ، والطُّرقُ الوعرةُ، والبراغيثُ؛ والحشراتُ، وهل سيعودُ مرضُ السَّيِّدَةِ «شارلوتَ»؟، كما تذكَّرُوا صُعوباتِ عبورِ جبالِ البحرِ الأسودِ. لقدْ كانَ مُجرَّدُ تذكُّرِ ذلكَ سيئاً بما فيه الكفايةُ، وقُدِّرَتْ مدَّةُ الرِّحلةِ مِنْ قِبَلِ قائدِهِما بنحوٍ مِنْ خمسةٍ وستِّينَ يوماً كحدٍّ أقصَى، ولكنَّها امتدَّتْ إلى مئةٍ وتسعةِ أيَّامٍ قبلَ وصُولِهِما إلى نيويورك، وذلكَ بسببِ عاصِفَةٍ منَعَتْ سفينَتَهُم أنْ تبحرَ، وأخيراً، وفي يوم (11) يناير/ كانونَ الثَّانِي عامَ (1842م) وصَلَ «جوستنُ» و «شَارلوتُ

بيركنسُ» ومَنْ رافقَهُما في الرِّحلَةِ الصَّعبَةِ.[1]

وعندما ولدت زوجته شارلوت ابنهما الثالث هنري مارتن بيركنس في 21 ديسمبر / كانون الاول 1844 ، والذي سيبقى على قيد الحياة ، اذ وصل الى الرابعة من العمر بعد مرور أحد عشر عاما من حياتهما الزوجية ، وسيبقى حيا يرزق على عكس بقية اولاد بيركنس وبناته الذين قضوا اثناء وجدوهم في اورميا .

بحلولِ ذلكَ الوقتِ، بدأ «بيركنسُ» يعدُّ العدَّةَ ثانِيَةً للعودةِ إلى أورميا! ووقعَتْ على كاهلِهِ مرَّةً أخرَى جملةٌ مِنَ المهمَّاتِ التِي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، سواءٌ مِنْ إدارةِ البعثاتِ والتَّرجمَةِ وشؤونِ السَّفرِ، أو ممَّا كانَ يمكنُ عملُهُ إزاءَ الحياةِ، ولكنَّ وضعَهُ كانَ هذِهِ المرَّةَ مختلفاً جدَّاً.

فبعدَ وفاةِ «جوديثَ غرانتَ» في عام (1839م) كانَ هاجسُ الجميعِ يتمثَّلُ في كيفيَّةِ مُواجَهَةِ حالاتِ الوفاةِ جرَّاءَ استمرارِ المرضِ، ولقدْ قرَّرَ الأميركِيُّونَ بعدَ دراستِهِم دراسةً مُفصَّلَةً للأوضَاعِ في أورميا؛ وما يعانيهِ النَّاسُ هناكَ مِنْ «تراجعِ الصِّحَّةِ»... قرَّرُوا الانتقالَ بالبعثَةِ إلى مكانٍ آخرَ قريبٍ مِنْ أورميا، فاختارُوا (سيير ـSeer)[2] الواقعَةَ عِنْدَ جبلٍ منخفضٍ إلى الغربِ مِنْ مدينةِ أورميا.

كانَتْ «سيير» تتمتَّعُ بكلِّ ما يحتاجُونَهُ: القربِ، والارتفاعِ، والانفصَالِ عَنْ المُستنْقَعَاتِ المَوبُوءَةِ، ووُجِدَتْ إحدَى القرَى الكردِيَّةِ القريبَةِ، كما إنَّ فِعْلَ فصْلِ الرَّبيعِ كانَ رائِعاً، فالمياهُ قويَّةٌ ومتدفِّقَةٌ وصَافيَةٌ، وثمَّةَ تعليقٌ يقولُ عَنْ هذا الوصْفِ الأخيرِ: (إنَّهُ على الرَّغمِ مِنْ أنَّ المياهَ لمْ تكنْ تعرفُ

(1) Eight Years, p. 491.

(2) هي قرية «روستاي سر» القريبة من مدينة أورميا والواقعة في الغرب منها، وقد غدت اليوم إحدى ضواحيها.

كلَّ ذلكَ، إلَّا أنَّها كانَتْ بالتَّأكيدِ أصَحَّ شَيْءٍ في ذلكَ المكانِ).

٥ـ العودةُ ثانيةً إلى إيرانَ

قضَى «جوستنُ بيركنسُ» كلَّ يومٍ تقريباً في الإشرافِ على إنشاءِ مبانِي البعثَةِ في «سيير» وذلكَ خلالَ الأشهرِ الأولى مِنْ عام (1841م) قبلَ مُغادرَتِهم لأمريكا، مستفيداً مِنْ تجارِبِهِ الأولى فيها، إذْ إنَّهُ كانَ قدْ قضَى الثَّمانِيَةَ عشَرَ عاماً الأولى مِنْ حياتِهِ في مَزرَعَةٍ تقعُ في ولايةِ ماساشوستسَ، وزعمَ أنَّهُ يعرفُ كيفيَّةَ العملِ، وأنَّهُ كانَ يعرفُ كيفيَّةَ بناءِ المساكِنِ، وأنَّهُ لمْ يكنْ يتقاضَى عنْ ذلكَ أيَّ شَيْءٍ، وأنَّ أعمالَهُ كانَتْ خيريَّةً مِنْ أجلِ المَصَالحِ التَّبشيريَّةِ؛ إضَافةً إلى بناءِ مدرسَةٍ دينيَّةٍ للبنِينَ مِنْ أجلِ تدريبِ الدُّعاةِ، إضَافَةً إلى أنَّ مِنْ شأنِ المنزلِ أنْ يكونَ لَهُ ولعائلَتِهِ خلالَ السِّنينَ الباقيَةَ لَهُ في بلادِ فارسَ.[1]

كانَتْ تلكَ السِّنونَ هِيَ التِي شهدَتْ تسارعَ النَّشاطِ في البعثَةِ، وغدَتْ كخليَّةِ نحلٍ في التَّحرُّكِ والعلاقاتِ والحملاتِ والامتداداتِ، وتواردَ المبشِّرُونَ والدُّعاةُ لبدءِ العمليَّاتِ؛ ولقدْ تحوَّلَ النَّشاطُ في نهايةِ المطافِ إلى ميادينَ أخرَى، ولمْ يقتصِرْ على مساحاتٍ دينيَّةٍ، إذْ كانَتْ هناكَ الرِّياضِيَّاتُ، والجغرافيا، والعلومُ الطَّبيعِيَّةُ؛ والتَّرجمَةُ عَنْ السِّريانِيَّةِ، ووصَلَتْ النَّشاطاتُ إلى «فيديليا فيسك» وبدأ مَعَهَا التَّوسُّعُ في تعليمِ البناتِ، ونشرَ «بيركنسُ» ترجماتِ العهدِ الجديدِ في عام (1846م) ثمَّ ترجماتِ العهدِ القديمِ في عامِ (1852م) وتطوَّرَتْ العَمليَّةُ التَّبشيريَّةُ على أوقاتٍ ومراحلَ منتظمَةٍ، بحيثُ سيطرَ الحماسُ الدِّينيُّ على المدارسِ، وكانَ لابدَّ مِنْ أنْ يكونَ لذلِكَ انعكاساتٌ وردودُ أفعالٍ بالضِّدِّ مِنْهَا؛ ففِي أوقاتٍ متقطِّعَةٍ مِنَ العامَيْنِ (1844م) و (1845م) بدأَتْ عائلَةُ مار (اوراهام شمعون ـ Auraham) السَّابعَ عشَرَ تتحدَّى هذا القادمَ

(1) Eight Years, p. 421. Entry for June 21.

الجديدَ ضِدَّ النَّساطرَةِ وتهدِّدُ قوَّتَهم، فبدأَتْ حملةٌ مِنَ التَّهديداتِ وأعمالِ العنفِ ضِدَّ البعثاتِ التَّبشيريَّةِ ومؤيِّدِيها في تلكَ الأصْقاعِ.

٦ـ الزَّوجةُ شارلوتُ

بقيَتْ «شارلوتُ بيركنسُ» في حساباتِ عملِ البعثَةِ الأميركِيَّةِ غيرَ مرئِيَّةٍ، وتعملُ في الخفاءِ، ولكنْ لا أحدَ يعرفُ ما الذِي كانَتْ تفعلُهُ خفْيَةً! وهوَ أمرٌ مُتوقَّعٌ في مُجتمَعٍ قبلِيٍّ لا يعرفُ الحرِّيَّاتِ ولا أيَّ رأيٍ تتوفَّرُ فيه السَّماحةُ. ولقدْ شهدْنا ـ بالفعلِ ـ في غضُونِ ثمانِ سنينَ، حالةَ التَّكتُّمِ الشَّديدِ الذِي مارسَهُ «جوستنُ بيركنسُ» في تعاملِهِ الرَّائِعِ مَعَ زوجتِهِ، ولا سيَّما فيمَا يتعلَّقُ بالطِّفلِ الذِي بقِيَ حيَّاً بأعجوبَةٍ، وقدْ وصَلوا تبريزَ المدينةَ الأذربيجانِيَّةَ الشَّهيرَةَ، وكانَتْ «شارلوتُ» فوقَ كلِّ شَيْءٍ زوجَةَ رجلِ الحركةِ التَّبشيريَّةِ في شمالِ غربِ إيرانَ إبَّانَ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، وقدْ كانَتْ الحربُ النَّسطوريَّةُ ضِدَّهُ سيِّئَةً جدَّاً وتنشرُ الأقاويلَ والتُّهَمَ ضِدَّهُ بينَ النَّاسِ، ولكنَّ «شارلوتَ» بقيَتْ هناكَ وهِيَ تعملُ في الإحصَاءاتِ الكئيبَةِ عَنْ وفياتِ الأطفالِ، وترعَى شؤونَ الولادَةِ، وكانَتْ تسعَى في العثورُ على قبورِ أولادِها: جوناثانَ وإدواردزَ بيركنسَ (22 يناير/ كانونَ الثَّانِي عامَ 1846م إلى 14 مارسَ / آذارَ عامَ 1846م)، وفيديليا فيسكَ بيركنسَ (8 فبراير/ شباطَ عامَ 1848م إلى 23 يناير / كانونَ الثَّانِي عامَ 1849م) وهوَ ما يقودُنا مرَّةً أخرَى إلى تلكَ التَّراجيديا، فَقَدْ فَقَدَا خمسَةَ أولادٍ مِنْ أصْلِ سبعَةٍ! وعادا إلى أمريكا، ثمَّ رجَعا ثانِيَةً إلى المكانِ ذاتِهِ. ويتبيَّنُ هنا حجمُ الإصْرارِ والتَّحمُّلِ، وقوَّةُ المُعتَقَدِ والإخلاصُ للمبادِئِ التِي أقسَمُوا مِنْ أجلِ الالتزامِ بها فِي حيواتِهم؛ وكانَتْ لـ «جوستنَ» في خضَمِّ ذلكَ رحلتِهِ نحوَ كردستانَ العراقِ والأرضِ الكلاسيكِيَّةِ في نينوى (مَوضُوعَ الرِّحلَةِ).

لقدْ فقدَتْ «شارلوتُ» أكثرَ أبنائِهَا وهُمْ صِغارٌ، ولكنَّ اثنَيْنِ مِنْهُم، هما

«جوديثُ» و «هنري» واصَلا حياتَيْهما ونالا قسطاً مِنَ الازدهارِ والتَّقدُّمِ في التَّعليمِ، وقدْ تعلَّما أيضاً تحدِّيَ الصِّعابِ. ووصَلَتْ الابنةُ «جوديثُ» العشرَةَ أعوامٍ في عامِ (1850م) وكانَتْ بمنزلَةِ ضَوْءِ عيونِ والدَيْهَا، لقدْ تعلَّمَتُ هذِهِ الفتاةُ الصَغِيرَةُ كيفِيَّةَ المشْيِ على سطحِ السَّفينَةِ، وفي نهايةِ السِّنينَ الثَّمانِيَةِ في بلادِ فارسَ، كرَّسَ والدُها مهمَّتَهُ التَّبشيريَّةَ وغرسَها كَيْ يتلقَّى أحدُ أطفالِهِ هذا الشَّرفَ. [1] وقالَ: إنَّني قانعٌ وسعيدٌ حتَى النِّهايةِ، سواءٌ كانَتْ على البَرِّ أمْ على متنِ السَّفينَةِ، ولابدَّ مِنْ أنْ نخطوَ ونمشِيَ على نحوٍ متسارِعٍ الآنَ حتَّى في العواصِفِ التِي يزدادُ هيجانُها.

٧ـ زهرةُ فارسَ

كَتَبَ يروي لنا قصَّتَها في «زهرةُ فارسَ» وهِيَ القصَّةُ التِي كرَّسَهَا عَنْ مُذكِّراتِ «جوديثَ بيركنسَ» وكانَ قدْ تركَها مَكتُوبَةً، فكانَ أنْ جمَعَها «يوسفُ زاي كوكرانُ» وهوَ مِنْ أوائلِ الذِينَ عملُوا مِنْ تلكَ النُّخبةِ المتميِّزَةِ في بلادِ فارسَ وقدْ نُشِرَتْ في بوسطنَ عامَ (1853م).

وتمثِّلُ قصَّةُ «جوديثَ» مِنْ دونِ شكٍّ ذروةَ المَأساةِ وعقدَةَ الحَدَثِ في حياةِ عائلَةِ بيركنسَ.

في أوائلِ سبتمبرَ/ أيلولَ عامَ (1852م) وبعدَ الأحداثِ ذاتِ الصِّلَةِ في «زهرةُ فارسَ» جلسَ «جوستنُ بيركنسُ» مباشرَةً، وكَتَبَ رسالةً إلى المجلسِ الأمريكِيِّ،[2] وهِيَ الرِّسالةُ الأكثرُ إيلاماً، وقالَ مفتتحاً رسالتَهُ في الأعلَى: هل لديكَ شَفَقَةٌ على عاتِقِي؟ أشْفِقْ على عاتِقِي!.

احتضَنَتْ «جوديثُ بيركنسُ» البالغَةُ مِنَ العمرِ اثنَيْ عشَرَ عاماً في

(1) Eight Years, p. 491.

(2) Papers of the ABCFM (microfilm). Research Publications: Woodbridge, Conn., 1982- 85. Reel 555, Item no. 199

أغسطسَ / آبَ صَيْفَ عام (1852م) مَعَ كلِّ الحماسِ الذِي يتحلَّى بِهِ الطِّفلُ تلكَ المعلِّمَةَ الجديدَةَ (آن هاريس) [1] وكانُوا قدْ قرَّرُوا مذْ خرجُوا مِنَ الولاياتِ المتَّحدَةِ أنْ يؤسِّسُوا مدرسَةً مهمَّةً للأطفالِ؛ خصُوصَاً بعدَ أنْ بلغَ عددُهُم الآنَ سبعَةَ عشَرَ طفلاً، وأنَّ أحدَ عشَرَ مِنْهُم قدْ بلغَ مِنَ العمرِ ما يكفِي للذَّهابِ إلى المدرسَةِ. كانَتْ «جوديثُ» سعيدَةً للغايةِ عِنْدَ سماعِ أخبارِ وصُولِ معلِّمَتِها إلى (خوي) وقد ذهبَتْ «جوديثُ» إليها مِنْ أجلِ التَّرحيبِ بها والرُّكوبِ لعدَّةِ أيَّامٍ مِنْ أجلِ مُرافقَتِها إلى أورميا؛ وكانَتْ فرحَةُ «جوديثَ» كبيرَةً جدًّا عاشَتْها لمدَّةِ سبعَةِ أسابيعَ، وبعدَ ذلكَ حظيَتْ بشرفِ الحضُورِ إلى المدرسةِ برفقَةِ معلِّمَتِها المهنيَّةِ الحقيقِيَّةِ.

٨ـ مهمَّةُ (وليام فينويك وليامز ـ Fenwick Williams)

تلقَّتْ عائلَةُ بيركنسَ في مُنتَصَفِ أغسطسَ / آبَ زوَّاراً أجانبَ متميِّزينَ! فلقدْ تمَّ إرسالُ أعضَاءِ لجنَةٍ عسكرِيَّةٍ لتحديدِ الخطِّ الصَّحيحِ للحدودِ الفارسِيَّةِ العثمانِيَّةِ. واشتملَتْ هذِهِ البعثَةُ على العقيدِ (فينويك وليامز ـ Fenwick Williams) [2] الذِي سيغدُو بعدَ بضْعِ سنينَ فقطُ

(1) مارثا هاريس، زوجة القس صموئيل أو دلي ربا (توفي 1865) أصبحت عام 1856 في صحبة زوجها، أول امرأة غربية تزور Ashirets الآشورية في جبال حكاري (علماً أنه حتى كبار الرحالة الإنكليز ومنهم المس غرترود بل وفريا ستارك لم تذهبا إلى ذلك الحد الجغرافي في أعماق المناطق الجبلية الشاهقة من كردستان لاحقاً. دفنت في Mematikan (قرب يوكسيكوفا) حيث توفيت عام 1857.

(2) الجنرال السّير (وليام فينويك وليامز Williams Sir William Fenwick) هو القائد العسكريّ الكنديّ الشّهير، ومن أصل اسكتلنديّ، والذي غدا من أشهر القادة البريطانيّين إبّان العهد الفيكتوريّ، ولد في 4 ديسمبر 1800م، وتوفّي في 26 يوليو 1883م. لقد رسم هذا القائد في ذاكرة التّاريخ قصّة بسالته في الدّفاع عن مدينة قارص خلال حرب القرم. وقد تمّ منح وليامز العديد من الجوائز، وثمّة جوائز أخرى نالها بعد عودته، وقد تمّ تعيينه عام 1865–7، نائب الحاكم الأوّل من نوفا سكوتيا، حيث إنّه ولد في مطلع القرن التّاسع عشر. ولد في أنابوليس رويال، في مقاطعة نوفا سكوتيا

قائداً للقوَّاتِ العثمانِيَّةِ خلالَ حصَارِ قارصَ ويمنحُ الباشويَّةَ على أثرِ

بكندا، تلقّى تعليمه في الأكاديميّة العسكريّة الملكيّة في وولويتش. تخرّج في قسم المدفعيّة الملكيّ برتبة ملازم ثان عام 1825م. وقد قدّم خدماته لتركيّا العثمانيّة في عام 1841م، وكان يعمل كنقيب في التّرسانة الحربيّة في العاصمة القسطنطينيّة. وكان قد نصّب بدرجة المفوّض البريطانيّ في المؤتمرات السّابقة لمعاهدة أرضروم في عام 1847م، ومرّة أخرى في ترسيم الحدود العثمانيّة مع إيران على ضوء الاستيطان وذلك عام 1848م. وعين CB في 1852.

وصل إلى رتبة عقيد، وكان قد نصّب برتبة مفوّض بريطانيّ مع الجيش العثمانيّ في الأناضول وأحد قادة حرب القرم (الحرب الرّوسيّة) التي استمرّت من 1854-1856م، ونظرا لجهوده الحربيّة، تمّ منحه الباشويّة مع درجة ferik فريق (آمر أمراء اللّواء) وقال: إنّه أمر القوّات التّركيّة بالدّفاع عن مدينة قارص خلال حرب القرم. وقال: إنّه مع ضبّاط بريطانيّين آخرين هم الجنود الأتراك العثمانيّون سيّئو التّجهيز لصدّ الهجمات الرّوسيّة على المدينة المحاصرة لمدّة ثلاثة أشهر ممّا تسبّب في خسائر 6000 روسيّ. ولكنّهم أجبروا على الاستسلام بسبب الجوع والمرض ونقص الذّخيرة. واستسلموا وفقا لشروط وليامز التي قدمها، إذ طالب أن يسمح الروس لهم كضباط عثمانيين بالاحتفاظ بسيوفهم. وقد سجن وليامز في ريازان، لكنّه تلقّى معاملة جيّدة جدّا، وأفرج عنه في نهاية حرب القرم في عام 1856م. وقبل عودته إلى منزله قدّم إلى القيصر إلكسندر الثّاني.

طرح ويليامز مثل هذا الدّفاع الشّريف عن المدينة، إذ قال له الجنرال الرّوسيّ مورافييف وهو يخاطبه: "الجنرال وليامز، كنت قد قدمت نفسك اسماً في التّاريخ، وسوف تقف الأجيال القادمة لتعبّر عن دهشتها إزاء التّحمّل والشّجاعة والانضباط الذي عملت به واتّصفت به خلال الحصار، ومحافظتك على من تبقّى من الجيش". وتمتع بعد ذلك بوسام جوقة الشّرف والوسام المجيديّ العثمانيّ، وسيف شرف مدينة لندن، ودرجة الدّكتوراه الفخريّة من جامعة أكسفورد، وغيرها.

منح رتبة أمير لواء في نوفمبر 1855م بعد عودته من الأسر في روسيا في المدة التي سبقت الحرب الأهليّة الأمريكيّة من عام 1859 إلى عام 1864م، وكان يشغل منصب القائد العامّ للقوّات المسلّحة، وكان مسؤولا عن الاستعدادات للحرب مع الولايات المتّحدة، وقلّد منصب حاكم نوفا سكوتيا عام 1865-1867م. وكان من رجال الاتحاد الكنديّ (دومينيو كندا) في عام 1867م، وأعيد تعيين وليامز باسم حاكم نوفا سكوتيا وحاكم جبل طارق من سبتمبر عام 1870 إلى عام 1876م.

توفّي في فندق في بول مول في 26 يوليو عام 1883 ودفن في مقبرة برومبتون.

Waite, P.B. , . «Williams, Sir William Fenwick».

الشُّهرَةِ الواسِعَةِ التِي كسبَها خلالَ حربِ القرمِ.[1]

جاءَ في نهايةِ شهرِ أغسطسَ / آبَ ثلاثَةٌ مِنْ أعضَاءِ البعثةِ، وقدْ وصَلُوا طرابزونَ على البحرِ الأسودِ، وسوفَ يشقُّونَ طريقَهُم نحوَ بلادِ فارسَ، وكانَ مِنَ المُعتادِ بالنِّسبَةِ للأمريكِيِّينَ أنْ يرسلُوا مَنْ يقومُ بواجبِ الاستقبالِ في مُواجَهَةِ شركائِهِم على طولِ طريقِ القوافلِ، ولَمَّا لَمْ يكنْ هناكَ مِنْ أحدٍ سوَى بيركنسَ؛ فقدْ أفاقَ على دعوةٍ للقيامِ بالرَّحلَةِ. كانَ متردِّداً جدَّاً، ولكنَّهُ بدأ مهمَّتَهُ بصُعُوبَةٍ، وكانَ ضَجِرَاً طوالَ الطَّريقِ، وكانَتْ نفسُهُ تعصِفُ بِهِ، خصُوصَاً وأنَّهُ كانَ منشغلاً في خضَمِّ طباعةِ ترجمَةِ العهدِ القديمِ، ناهيكُم عَنْ حضُورِ وباءِ الكوليرا في ذلكَ الصَّيفِ في أورميا.

كانَ مضْطرِباً نفسِيَّاً، وهوَ يشعرُ بشكوكٍ كبيرَةٍ بتراجعِ الصِّحَّةِ العامَّةِ في سيير، وقدْ وافقَ على الذَّهابِ بشرطِ أنْ يتمكَّنَ مِنْ أخذِ عائلتِهِ مِنْ أجلِ صِحَّةِ السَّيِّدَةِ بيركنسَ، وكانَتْ «جوديثُ» ـ بطبيعَةِ الحالِ ـ بمُنتَهَى النَّشوةِ في احتمالِ الدُّخولِ في مُغامَرَةٍ جديدَةٍ!.

In Halpenny, Francess G. Dictionary of Canadian Biography. XI (1881–1890) (online ed.). (Toronto: University of Toronto Press, 1982).
Alex Troubetzkoy. The Crimean War - The Causes and Consequences of a Medieval Conflict Fought in a Modern Age. Constable & Robinson Ltd, London. 2006. pp. 298
This article incorporates text from a publication now in the public domain: Chisholm, Hugh, ed. «article name needed». Encyclopædia Britannica (11th ed.). Cambridge University Press, 1911. .

(1) See, among many sources: Humphry Sandwith, M.D. A Narrative of the Siege of Kars. London, 1856.

٩. قصَّةُ مَوْت «زهرة فارس»

تركَ بيركنسُ سيير في 30 أغسطسَ / آبَ عامَ (1852م) وسارَ برفقَةِ عائلتِهِ شمالاً في مراحلَ قصِيرَةٍ. وكانُوا قبلَ 2 سبتمبرَ / أيلولَ، يخيِّمُونَ خارجَ أسوارِ مدينةِ خوي، وعلى الرَّغمِ مِنَ الأخبارِ السَّيِّئَةِ التِي كانَتْ هناكَ عَنْ اجتياحِ وباءِ الكوليرا تلكَ المناطَقَ؛ إلَّا أنَّهُ اقترحَ أنْ تجدِّدَ المدينةُ إمداداتِها مِنَ المياهِ في مداخِلِها. وعلى الرَّغمِ مِنْ تلكَ الأخبارِ المزعجَةِ كَتَبَ «بيركنسَ» قائلاً: نحنُ نعلمُ أنَّ وباءَ الكوليرا يوجدُ في المياهِ النَّجسَةِ، وكانُوا في عامِ (1852م) يعرفُونَ أشياءَ مِنْ هذا القبيلِ، ويبدُو واضِحاً أنَّ «روبرت كوخ» اكتشفَ بكتيريا وباءِ الكوليرا بعدَ ذلكَ بتسعَةِ أعوامٍ فقطْ، وتراءى وباءُ الكوليرا قبلَ ذلكَ في «ضَبابٍ خفيفٍ مِنَ الغلافِ الجويِّ» كما جاءَ في عبارةٍ كتبَتْهَا «فيديليا فيسك» [1] وفي شروقِ الشَّمسِ صَباحِ اليومِ التَّالِي، انتقلَتْ العائلةُ إلى شمالِ مدينةِ خوي.

كانَتْ الطَّريقُ إلى خوي في صُعودٍ يمتدُّ عشرَةَ أميالٍ، وقدْ تمَّ اجتيازِها تدريجِيًّا؛ وكانَ «جوستنُ بيركنسُ» قدْ سبقَ أنْ وصفَها قبلَ ثمانِ سنينَ عندَما اجتازَها في عامِ (1841م) أثناءَ عودتِهِ إلى أمريكا مَعَ زوجتِهِ «شارلوتَ» وطفلتِهِما «جوديثَ» التِي كانَتْ تعانِي مِنَ الصُّعودِ إلى أعلى الجبلِ، ولقدْ كانَتْ الطَّريقُ مَألُوفَةً مِنْ قِبَلِ عائلَةِ بيركنسَ، وقدْ اتَّخذُوا الآنَ مسَاراً منسيًّا عبرَ منطقةٍ عاليَةٍ جدًّا، حيثُ ترتفعُ القممُ لأكثرَ مِنْ ثلاثَةِ آلافِ مترٍ فوقَ سطحِ البحرِ، وكانَتْ الطَّريقُ تلتفُّ إلى حدٍّ ما نحوَ الشَّرقِ.

وفي ظلِّ المناخِ السِّياسِيِّ وقتَذاكَ (1852م) لا يمكنُ لأحدٍ أبداً أنْ يغامرَ بمثلِ هذِهِ الرِّحلَةِ، حيثُ يُعدُّ العبورُ مِنْ هذِهِ الطَّريقِ دخولاً غيرَ مَشرُوعٍ إلى تركيَّا العثمانِيَّةِ، وعلى الرُّغمِ مِنْ ذلكَ، ركبَتْ أسرةُ «بيركنس»

(1) Persian Flower, p. 117

الخطرَ، وهكذا، فإنَّ «بيركنسَ» اتَّبَعَ طريقاً استثنائيةً في الوصُولِ مِنْ أورميا عبرَ المسارِ الرَّئيسِ لقافلَةِ طرابزونَ - تبريزَ التِي انضَمَّتْ إلى الجنوبِ مِنْ جبلِ أراراتَ.

كانَتْ سعادةُ الأمريكِيِّينَ تتمثَّلُ في الصُّعودِ نحوَ القمَّةِ؛ فهوَ دليلٌ على ما حقَّقُوهُ مِنْ نجاحٍ.

وقبلَ الوصُولِ إلى القمَّةِ، لبَّى بيركنسُ طلبَ اثنَيْنِ مِنَ التُّجَّارِ الفرنسِيِّينَ اللَّذَيْنِ كانا يبحثانِ عَنْ مادَّةِ (الكرَّاثِ ـ Leech) حيثُ دخلا بلادَ فارسَ بحثاً عنْ تلكَ السِّلعَةِ، إذْ كانَتْ أصَابَها شبهُ الانقراضِ في أوروبَّا.

لقدْ وجدْنا "جوستنَ" يتذكَّرُ في رحلتِهِ كلَّ شَيْءٍ، وخصُوصَاً وجباتِ الطَّعامِ، والغذاءَ، والمَشاهِدَ اليومِيَّةَ، والقرَى، والنَّاسَ، وفوقَ كلِّ ذلكَ ردودُ الفعلِ لدَى "جوديثَ" تجاهَ جميعِ الظُّروفِ التِي عاشَتْها. وحينَ وصلُوا إلى القمَّةِ، كانَتْ هناكَ رؤيةٌ بعيدَةٌ نحوَ الشِّمالِ، حيثُ غمرَتْ الفرحةُ "جوديثَ" فجبلُ أراراتَ على مرأىً مِنْهَا، وقدْ انعكسَتْ على سفوحِهِ أضْواءُ الشَّمسِ المشرقَةِ، وبدأ وهجُها يلمعُ على كلِّ الدُّنْيا، وبعدَ ما يقربُ مِنْ ساعتَيْنِ قضَياها هناكَ، بدأ الرَّكبُ رحلةَ النُّزولِ عبرَ انحدارٍ صَخْرِيٍّ وقدْ بدأَتْ المحنَةُ.

سارَ الجميعُ عدَّةَ أميالٍ بعدَ توقُّفٍ في الصَّباحِ للانتعاشِ، وبدا وجهُ "جوديثَ" للوهلَةِ الأولى شاحِباً، وقدْ أعلنَتْ أنَّها شعَرَتْ بسوءٍ في صِحَّتِها، وخلالَ ثوانٍ قفزَتْ عَنْ مهرِها الذِي كانَتْ تركبُهُ، وبدا على ملامِحِها الضَّعفُ مَعَ ما صَاحبَها مِنَ الإقياءِ؛ وازدادَتْ التَّشنُّجاتُ عِنْدَها، وتكرَّرَ ذلكَ مرَّاتٍ، وظهرَتْ الفتاةُ وهِيَ تكادُ تكونُ غيرَ قادرَةٍ على الوقوفِ وقدْ اعترَاها الخوفُ، وتمكَّنَ كلٌّ مِنْ «جوستنَ» و «شارلوتَ» مِنْ أنْ يُرْكِبا «جوديثَ» مرَّةً أخرَى على حصَانِها سعْياً في قطع نحوٍ مِنْ (3-

4) أميالٍ وصُولاً إلى قريةِ (زرباط ـ Zurabad) ـ أطلقُوا عليها اسمَ Zorava ـ لنصْبِ خيمةٍ للمَجمُوعَةِ وإحضَارِ ما تحتاجُهُ مِنَ الإمداداتِ؛ وكانَ الجميعُ قدْ اعتراهُم قلقٌ شديدٌ، وهُمْ يُدخِلُونَ "جوديثَ بيركنسَ" الخيمةَ على عَجَلٍ، وبدَتْ مَجمُوعةُ العملِ بمُنتَهى المهارَةِ.

وعلى الرُّغمِ مِنْ كونِ "جوستنَ" مِنَ المتعلِّمِينَ، إلَّا أنَّهُ كانَ رجلاً متعصِّباً لدينِهِ، ولقدْ أدركَ حقيقةَ تلكَ "الأعراضِ" منذُ الوهلَةِ الأولى، وربَّما لا يوجدُ استنتاجٌ سوَى أنَّها أعراضُ الكوليرا الآسيويَّةِ التِي يعرفُها العديدُ مِنْ ذوي الخبرَةِ الذِينَ عانَوا مِنْ كلِّ أهوالِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ؛ فلقدْ حصَدَتْ الكوليرا والطَّواعِينُ الملايينَ مِنَ البشرِ في القرونِ السَّابعَ عشَرَ والثَّامِنَ عشَرَ والتَّاسعَ عشَرَ، وكانَ ذلكَ الوباءُ يحلُّ فجأةً ومِنْ دونِ استئذانٍ، ويتفشَّى بينَ النَّاسِ بسرعَةٍ كبيرَةٍ بانتقالِ الفايروسِ في الهواءِ مجتاحَاً بلداناً ومناطقَ واسعَةً. وقدْ كانَتْ أعراضُ ذلكَ المرضِ مَعرُوفَةً لدَى النَّاسِ لبضعَةِ عقودٍ مضَتْ، بعدَ أنْ انتشرَتْ فايروساتُهُ مِنْ مَوطِنِها الأصْلِيِّ في شمالِ شرقِ الهندِ، وخصُوصَاً خلالَ فتحِ طرقِ التِّجارَةِ والمسالكِ المَأهُولَةِ، وزيادةِ أعدادِ النَّاسِ المجتمِعَةِ أيَّامَ مواسِمِ الحجِّ.

١٠ـ قصَّةُ وباءِ الكوليرا

كانَ انتشارُ الكوليرا في عمُومِ تلكَ المُجتمعَاتِ الآمنَةِ والنَّظيفَةِ، يمثِّلُ بالنِّسبَةِ لها إرهاباً قاتلاً وكوارثَ مرعبَةً! فقدْ كانَ يدخلُ مِنْ دونِ استئذانٍ مُعيَّنٍ، ومِنْ دونِ أنْ يطرقَ باباً، وذلكَ بسببِ قوَّةِ أعراضِهِ والسَّرعَةِ التِي تلتهمُ قوى الضَّحِيَّةِ التِي لا تستطيعُ مُقاومَتَهُ أبداً ولا التَّخلُّصَ مِنْ قبضَتِهِ فيتغلَّبُ عليها بسرعَةٍ فائقَةٍ، ويداهمُها فجأةً بالقَيْءِ والإسهالِ المائِيِّ، وحالةِ جفافٍ شديدَةٍ لدرجةٍ تفقدُ الجسمَ أكثرَ مِنْ نصْفِ لترٍ مِنَ السَّوائلِ كلَّ ساعةٍ، وينهكُ المريضَ في غضُونِ ساعاتٍ، وتضِيعُ قدرتُهُ، ويترسَّخُ الهذيانُ عِنْدَهُ، ويقوَى الضَّغطُ عليه بشعورِهِ بالجفافِ؛ ما لمْ يتمَّ تعويضُ

السَّوائلِ، ولكنْ مِنْ دونِ فائدَةٍ تُذكَرُ، فيموتُ مِنَ الجفافِ.

تقعُ (زرباطُ ـ Zurabad) على ضِفافِ نهرِ (آق تشاي) وهوَ يحملُ تيَّاراتِ المياهِ المتدفِّقَةِ مِنَ الجبالِ المُجاورَةِ التِي تفصِلُ الحدودَ التُّركِيَّةَ.

وهناكَ في جوفِ قريةٍ نائيَةٍ، وفي وسطِ الـ (لا مكانَ) الخاليَ مِنْ أيَّةِ فرصٍ، حاولَ "بيركنسُ" علاجَ ابنتِهِ بوسائلَ بدئِيَّةٍ، مِنْهَا جرعةٌ مِنْ زيتِ الثُّعبانِ ـ كما اقترحَ عليه بائِعٌ متجوِّلٌ ـ ومَعَ ما ترسَّخَ في حافظَتِهِ مِنْ علاجاتٍ كانَ الأطبَّاءُ يستخدمُونَها بشكلٍ مُنتظَم؛ وفي غمرةِ الهيجانِ والاضْطرابِ، أخطأ «بيركنسُ» بأنْ أعطَى ابنتَهُ صَبغَةَ الأفيونِ الكافورِيَّةَ (الكافورُ وصَبغَةُ الأفيونِ) وبعضاً مِنَ المطهِّراتِ مثلَ الكالوميلِ وغيرِهِ، وبحلولِ ذلكَ الوقتِ العصِيبِ أدركَ أنَّ هذا المرضَ هوَ الكوليرا، ولكنَّ زوجتَهُ «شارلوتَ» استمرَّتْ في حالةِ إنكارٍ لَهُ، إلَّا أنَّ التَّشنُّجاتِ استمرَّتْ، وكانَ المرضُ كَمَا كَتَبَ عَنْهُ قائلاً: «انتقلَ مثلَ عملاقٍ مَعَ قوَّةٍ لا تُقاوَمُ» وهُمْ يرفعُونَ الصَّليبَ، وتوجَّهَ «بيركنسُ» نحوَ ابنتِهِ وفتحَ عينَيْها المُغمَضَتَيْنِ، فقالَتْ لَهُ: «نعمْ بابا، سأحاولُ» قالَتْ لَهُ ذلكَ بصَوتٍ أجشَّ، بعدَ أنْ اختفَى صُوتُها النَّاعمُ.

جاءَ صَباحُ اليومِ، ومضَتْ أوقاتُ النَّهارِ ووقتُ ما بعدَ الظُّهرِ ثمَّ جاءَ المساءُ والكلُّ يبحثُ عَنْ مَسعىً لإنقاذِ البنتِ، والأمرُ بِهِمْ لا يهدَأ! خصُوصَاً أنَّ الكوليرا لعنةٌ قويَّةٌ. ومَعَ انتشارِ الخبرِ، بدا الجميعُ لا يريدُونَ ارتباطَهُ بقريةِ (زرباطَ ـ Zurabad) ولكنَّ الخبرَ كانَ قدْ انتشرَ بينَ النَّاسِ، فكلُّ القرويِّينَ مَذعُورُونَ، وقدْ رفضُوا أنْ يبيعُوا القافلَةَ الصَّغيرَةَ شيئاً مِنَ الغذاءِ أو العلفِ، فكانَ على المسافرِينَ أنْ يمضُوا قدُماً، ووجدَ «بيركنسُ» عِنْدَ نقطةٍ جغرافِيَّةٍ أحدَ سكَّانِ القريةِ على استعدادٍ لحملِ رسالةٍ إلى أورميا، ولكنَّ الآخرِينَ مِنْ أهلِ (زرباط ـ Zurabad) منعُوهُ خوفاً مِنْ حصُولِ أيِّ مساسٍ مَعَ الفتاةِ المَريضَةِ، ورفضُوا السَّماحَ لَهُ بالذَّهابِ.

عاشَ «بيركنسُ» وزوجتُهُ صِراعاً حقيقِيّاً مَعَ ذاتَيْهِما ومَعَ الواقعِ القاسِي وهُما في البرارِي على القمم، وفي منطقةٍ شبهِ بدئِيَّةٍ، فانسحقَ الرَّجلُ تقريباً مِنْ حالةِ القلقِ النَّفسِيِّ، ذَلكَ أنَّ حالةَ «جوديثَ» غدَتْ صَدمَةً قاسِيَةً، ولكنْ كيفَ يمكنُ منعُ العدوى؟ وهل تنفعُ أيَّةُ عمليَّةِ تطهيرٍ وهِيَ أقلُّ مِنْ حدودِ الممكنِ في كثيرٍ مِنَ الأحايينِ؟ كما كانَ هناكَ الخوفُ المرعبُ كَيْ لا يُصَابَ ولَدُهُ «هنري» البالغُ مِنَ العمرِ ثمانَ سنينَ، وهوَ الوحيدُ الذِي ظلَّ خارجَ دائرَةِ الخوفِ، وخلالَ أسوءِ مراحلِ الأزمَةِ، جاءَ ليدخلَ الخيمةَ فيرَى ذلكَ المشهدَ الموجعَ، ولكنْ مِنَ الصَّعبِ عليه ـ وهوَ لمْ يزلْ صَبِيّاً في مُقتبَلِ العمرِ ـ قبولُ احتمالِ وفاةِ أختِهِ الأكبرِ مِنْهُ سنّاً على الرُّغمِ مِنْ رؤيتِهِ لها طريحَةَ الفراشِ تعيشُ معاناتَها، وتمنَّى لو لمْ يحدثْ في الرَّحلةِ شَيْءٌ مِنَ المنغِّصَاتِ أبداً. ولكنْ ثمَّةَ مَشاهدُ أخرَى تميَّزَتْ بها السَّاعاتُ القادمَةُ: ارتفاعُ البكاءِ، صَوْتُ الدَّعواتِ الخاشعَةِ، مُحاوَلاتٌ أخرَى لإحياءِ جوديثَ مِنْ أجلِ راحتِها؛ وَمَعَ انتشارِ الخدرِ في أطرافِها، ارتفعَتْ كلماتٌ ترنُو إلى الخيرِ والإخلاصِ مَعَ الوداعِ والصَّلاةِ وتراتيلِ المغفرَةِ التِي استدعَتْ ذاتَها في ذلكَ المَوقِفِ المحزِنِ منطلقَةً مِنْ رمزِيَّةٍ مرعِبَةٍ.

وَمَعَ حلولِ الّليلِ وغَرَقِ المكانِ بالظَّلامِ الدَّامسِ، كانَ يطوفُ خارجَ خيمتِهِم بعضٌ مِنَ الحيواناتِ المفترسَةِ مِنْ وحوشِ البرِّيَّةِ، إذْ تراءَى لهُم دبٌّ جائعٌ وخنزيرٌ برِّيٌّ، كانا يريدانِ افتراسَ أيِّ كائنٍ يريانِهِ أمامَهُما!.

١١ـ موتُ جوديثَ (١٨٤٠-١٨٥٢)

وُلدَتْ «جوديثُ غرانتُ بيركنسُ» في 8 أغسطسَ / آبَ عامَ (1840م) في (أورميا ـ Oroomiah) ببلادِ فارسَ، وكانَ ترتيبُها الرَّابعُ في سبعَةِ أطفالٍ مِنَ القسِّ "جوستنَ بيركنسَ" وزوجتِهِ "شارلوتَ بيركنزَ باسَ" وكانا مِنْ بينِ أوَّلِ المبشِّرينَ الأميركِيِّينَ الذِينَ أرسلُوا للعملِ في بلادِ فارسَ، وقدْ أمضَتْ "جوديثُ" طفولَتَها وحياتَها القصِيرَةَ بأكملِها

هناكَ، ومنذُ أنْ كانَتْ في سنٍّ مُبْكِرَةٍ جدًّا، انصَبَّ اهتمامُها بطريقَةٍ واضِحَةٍ جدًّا على خدمةِ الآخَرِينَ، وغالباً ما كانَتْ تحدِّثُ نفسَها أنْ تصْبحَ مبشِّرَةً، وأنْ يكونَ مجالُ دعوتِها في الصِّينِ خاصَّةً، وكانَتْ ـ بكلِّ المقاييسِ ـ صَبِيَّةً خيِّرَةً، وكانَتْ متعطِّشَةً للقراءَةِ وبارعَةً في الموسيقَى، وهِيَ مسيحِيَّةٌ متديِّنَةٌ. وقدْ أطلقَ والدُها عليها في مذكِّراتِهِ التِي نُشرَتْ بعدَ وفاتِها لقبَ «زهرةُ فارسَ» وتُظْهِرُ الحروفُ «جوديثَ» أنَّهُ على الرُّغمِ مِنْ أنَّها كانَتْ شابَّةً إلَّا أنَّها كانَتْ تصِرُّ على أنْ تكافحَ مَعَ إيمانِها. ومِنْ أقوالِها: « انها عبرت من خلال مسيحيتها عن سعادتها الكبيرة بما كان ينبغي ان يكون ! ولكن لن يكون الا لارضاء الله.

ولكنْ في وقتٍ لاحِقٍ، عندَما كانَتْ تحتضَرُ مِنَ مرضِ الكوليرا، مالَ والدُها إلى الاعتقادِ في أنَّها كانَتْ متصَالِحَةً مَعَ القدرِ قائلاً لها بكلِّ يقينٍ:

«عزيزتِي جوديثَ: هوَ يسوعُ في الأقداسِ الثَّمينَةِ بالنِّسبَةِ لكِ؟».

فأجابَتْ: «أوه، نعمْ لقدْ كانَ مُجَرَّدَ رأيٍ لَهُ؛ أوه، كمْ هوَ جميلٌ!».

«عزيزتِي جوديثَ: إذا كانَ هوَ صَاحبُ الإرادةِ ليأخذَكِ لنفسِهِ الآنَ، هلْ أنْتِ غيرُ راضِيَةٍ؟».

فأجابت: «أوه، نعمْ بابا؛ وسيتمُّ ذلكَ بإرادتِهِ».

فقالَ لها: «عزيزتِي جوديثَ: ماذا كنْتُ أودُّ أنْ أقولَ لهنري أخيكِ؟».

«أوه، إنَّهُ قدْ يكونُ مسيحِيًّا».

وتسلَّلَتْ كلماتُها الأخيرَةُ، وقالَتْ:

«يا ربُّ تقبَّلْنِي؛ إذا كانَتْ تلكَ إرادتَكَ، واجعلْ لي خِيْرَةً مرَّةً أخرَى؛ وإذا لمْ يكنْ كذلِكَ، فاسمحُوا لي ألَّا أتذمَّرَ».[1]

(1) Justin Perkins. The Persian Flower (Boston, 1853), frontispiece, pp. 112- 116.

وفي السَّاعة 03:00 يومَ السَّبتِ (4) سبتمبرَ / أيلولَ عام (1852) تحشرَجَتْ أنفاسُ «جوديثَ» وتباطَأَتْ حركتُها، وتلاشَتْ نظراتُها وشرعَتْ تنازعُ الموتَ في أنفاسِها الأخيرَةِ بعدَ سبعَ عشرَةً ساعةً مِنْ بدايةِ ظهورِ الأعراضِ، واستسلَمَ «جوستنُ» لإرادةِ الله، وبقيَتْ «شارلوتُ» منتحبَةً، واستنفدَتْ كلَّ عَبَرَاتِها، حتَّى سقطَتْ بجانبِ حطامِ ابنتِها الصَّغيرَةِ التِي ذبُلَتْ بسرعَةٍ مدهشَةٍ وهِيَ بعمرِ الزُّهورِ.

قامَتْ «شارلوتُ» برفعِ جسدِ «جوديثَ» وإلباسِها فستاناً لها تحبَّهُ مِنْ أجلِ دفنِها، وكانَتْ «جوديثُ» قدْ همسَتْ في لحظاتِها الأخيرَةِ أنْ يتمَّ دفنُها بجوارِ أختِها الصَّغيرَةِ «فيديليا». وفي وقتٍ متأخِّرٍ مِنَ الَّليلِ، وعلى الرُّغمِ مِنْ بُعْدِ المسافةِ وحرارَةِ الصَّيفِ، فإنَّ والدَيْها لمْ يفكِّرا أبداً في أيِّ مكانٍ آخرَ بل مضَوا راجعِينَ إلى سيير؛ وقدْ عادُوا بجوديثَ إلى المنزلِ وهِيَ مَحمُولَةٌ على الجزءِ الخلفِيِّ مِنْ بغلٍ، ومَلفُوفَةٌ بعباءَةِ الرَّاعِي ذاتِ الشَّعرِ الكثِّ. ولقدْ قامَ سائقُ البغالِ بابتزازِهِم وطلبَ مِنْهُم أنْ يدفعُوا لَهُ مبلغاً كثيرَاً، وحشدَ لَهُمْ مِنَ القرويِّينَ كَيْ يهدِّدَهُم بالحجرِ عليهِم، لكنَّهُم اتَّفقُوا في نهايةِ المَطافِ، وفي نحوِ السَّاعةِ العاشرَةِ، سارَ المَوكِبُ نحوَ أورميا. ولمْ يصِلُوا حتَّى صَباحِ السَّادسِ مِنْ سبتمبرَ / أيلولَ، وكانَ «بيركنسُ» قد كَتَبَ مُذكِّرَةً إلى طَبيبِ البعثَةِ «أوستنَ رايتَ» قالَ فيها قبلَ وفاتِها: لدَيْنا «جوديثُ» الثَّمينَةُ قد انتهَتْ مِنَ الكوليرا. فثارَ ذعرٌ كبيرٌ، ولكنَّ المبشِّرِينَ ركبُوا بسرعَةٍ وفاءً لها، وعقدُوا الأملَ، ولكنَّ زمنَ وصُولِ المذكِّرَةِ كانَ أطولَ مِنْ وقتِ إمكانِيَّةِ إنقاذِ الفتاةِ، ووصَلَتْ قافلَةُ أورميا في اليومِ التَّالِي بعدَ الظُّهرِ وقدْ وُضِعَتْ «جوديثُ» في قبرِها على سفوحِ جبلِ سيير.

١٢ـ «يرفضُ قلمِي أنْ يقولَ: الخرابُ وطنُنا»

في أعقابِ تلكَ التراجيديا المحزنَةِ، كانَ «بيركنسُ» يعبِّرُ دوماً عَنْ تصَوُّراتِهِ، وقدْ كَتَبَ إلى بوسطنَ في رسالتِهِ قائلاً: يرفضُ قلمِي أنْ يقولَ: الخرابُ وطنُنَا. وكانَتْ هذِهِ آخرَ محطَّةٍ لَهُ في نهايةِ المَطافِ كما عبَّرَ عَنْهَا. وأضَافَ: وصَلْتَ إلى هذِهِ السِّنِّ، وكنَّا نأملُ أنْ تكونَ اليدَ اليمنَى لدَيْنا، زيادةً على الفرحِ الذِي زرعتَهُ في قلوبِنا».

لقدْ أنجزَ «بيركنسُ» واجباتِهِ مَعَ ترجمَةِ العهدِ القديمِ التِي لمْ تزلْ تشقُّ طريقَها مِنْ خلالِ الطَّبعِ، أمَّا الوضْعُ مَعَ «شارلوتَ» فقدْ كانَ مختلفاً! فمِنْ أصْلِ سبعةِ أطفالٍ أنجبتْهُم، لمْ تكنْ محظوظَةً إلَّا بحفظِ واحدٍ فقطُ مِنْهُم! وكانَتْ أربعٌ وأربعُونَ عاماً قضَاها «جوستنُ» و «شارلوتُ» معاً، وذاقا كلَّ مراراتِها وتحدِّياتِها وتجاربَها القاسِيَةَ في ذلكَ الرُّكنِ الصَّعبِ مِنْ آسيا الغربِيَّةِ، ولكنَّهُما لمْ يغادرا ذلكَ «المكانَ» مباشرَةٍ، بل قضَيا خمسَ سنينَ أخرَى، وبعدَ أنْ أكملا مهمَّتَيْهِما في ظلِّ تلكَ الظُّروفِ، غادرا بلادَ فارسَ التِي ازدادَتْ مشكلاتُها والمتاعبُ فيها، وكذلِكَ بعدَ أنْ شعَرا بأنَّهُما يعانيانِ مِنْ سوءِ الصِّحَّةِ، وانتهَتْ حياتُهُما التَّبشيرِيَّةُ، وعادا إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ يرافقُهُما ولدُهُما النَّاجِي مِنَ الموتِ «هنري».

١٣ـ جوستن في عامِ (١٨٥٨م) ثمَّ وفاتُهُ

لمْ يتوقَّفْ «جوستنُ بيركنسُ» في مسارِهِ عِنْدَ خدماتِهِ التِي قدَّمَها في إيرانَ، ولمْ تنتَهِ عِنْدَهُ الحياةُ التَّبشيرِيَّةُ؛ إذْ بدأ بعدَ مدَّةً قصِيرَةً مِنْ رجوعِهِ إلى أمريكا السَّفرَ ذهاباً وإياباً بالباخرَةِ إلى إنكلترا، حيثُ كانَ يحاضِرُ في جامعَةِ أكسفوردَ، إذْ كانَ يملكُ مَعلوماتٍ زاخرَةً عَنْ بلادِ فارسَ ومنطقةِ الشَّرقِ الأوسطِ، وبقِيَ يؤدِّي خدماتِهِ عَنْ غنى تجاربِهِ في ستِّينيَّاتِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ، وخصُوصَاً بينَ عامَيْ (1862م) و (1869م).

وقدْ ذكرَ أنَّهُ تركَ أورميا للمرَّةِ الأخيرَةِ؛ وغادرَ بلادَ فارسَ ليسَ كما كانَ تركَ أمريكا عامَ (1833م)! فهوَ الآنَ مريضٌ جدًّا، ولا يعرفُ ما إذا كانَ سيبقَى حيًّا أمْ يموتُ، لكنَّ مغادرَتَهُ هذِهِ المرَّةَ كانَتْ مختلفَةً لجهةِ وسيلَةِ النَّقلِ بعدَ رحلةٍ برِّيَّةٍ صَعبَةٍ إلى طرابزونَ؛ إذْ يقولُ: كنَّا على ظهرِ سفينَةٍ بخارِيَّةٍ إلى اسطنبولَ ومِنْهَا بالبحرِ إلى مرسيليا، ومِنْهَا بالقطارِ إلى باريسَ، وعبرْنا القناةَ إلى إنكلترا، وركبْتُ أخيراً في باخرَةٍ أبحرَتْ بنا مِنْ ليفربولَ إلى نيويوركَ.

كيف حدث ذلك ؟ ما تفصيلات العودة النهائية إلى أمريكا والوفاة؟

عند الأول من يونيو/ حزيران عام 1869 ، عاد الدكتور بيركنس برفقة العديد من أفراد العائلات التبشيرية إلى الولايات المتحدة الامريكية . على الرغم من أنه كان مترددا في ترك المجال الذي اختاره لنفسه منذ البداية ، إلا أنه شعر أنه مضطر لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة ، جزئياً من خلال تدهور حالته الصحية وجزئيًا من خلال رغبة قوية مرة أخرى في مقابلة أحبائه في أسرته.

عند عبوره للجبال العصية بالقرب من البحر الأسود ، واجهت القافلة عواصف شديدة. ومن جراء تلك التعرضات ، ونتيجة لها ، أصيب الدكتور بيركنس بنزلة برد شديدة ، جّرت الى مضاعفات خطيرة . وبالتالي فقد تفاقمت صعوبة عمل الكبد عنده فكانت تلك الانتكاسة التي رافقتها الالام والاتعاب. ومع ذلك ، فقد تم تمكينه للمضي في الطريق ، وبقي بالرغم من اوجاعه يمارس العناية العامة ليس فقط لنفسه بل لجمع كبير من السيدات وأطفال في القافلة . عند الوصول إلى العاصمة القسطنطينية ، استراح الجميع لبضعة ايام ، وهناك أحيا الدكتور بيركنس عدة جلسات من استعادة الذكريات السارة مع

الراحل الدكتور و. جي. شافلر وآخرين. ثم تم مواصلة تنفيذ الرحلة الجماعية بحرا إلى مرسيليا بشكل مريح.

وفي أثناء الذهاب من مرسيليا إلى باريس ، بعد رحلة طويلة ومتعبة جدا بالقطار، عانى الدكتور بيركنس من الكثير من الألم والإرهاق. ولم تنفع معه طرق العلاج المصاحبة اذ كان يعاني بالفعل من مضاعفات المرض. عند وصوله إلى باريس ، وجد أن قدميه قد تورمتا إلى حد يستدعي قطع حذائه تقطيعا من أجل إزالة تلك الاورام حتى يستطيع السفر من باريس إلى ليفربول ، وكان يعتمد تمامًا على رعاية الآخرين له وهو في حال يرثى لها كانت الرحلة تتشكل من مراحل بطيئة وسهلة. في بعض الأوقات كانت حالته أفضل ، وكان قادرًا على مقابلة عدد من الأصدقاء في إنجلترا. ولم تذكر المعلومات انه قد عولج فيها ، ولكن كان يستعد في أقرب وقت ممكن ليغادر الى نيويورك عملياً ، فانطلقت الباخرة به من ليفربول إلى نيويورك. وفي ابان الرحلة الصعبة ، أصبحت أعراضه أكثر إثارة للقلق ، مصحوبة بزيادة الألم . كان من المتوقع وفاته في اية ساعة ، ويقول ابنه " لكن من خلال انتشار الصلاة الجادة التي قدمها عدد كبير من الركاب ، بقي حيا يخادع الحياة حتى وصل الارض الاميريكية "[1] .

عاشَ بيركنسُ أيَّامَهُ الأخيرَةَ مريضَاً بمرضٍ مميتٍ، وبقيَتْ زوجتُهُ «شارلوتُ» إلى جانبِهِ، وتُوفِّيَ في شيكوبي ماساتشوستس، في 8 ديسمبرَ /

(1) راجع :
Rev. Henry Martny Perkins (His son) , Life of Rev. Justin Perkins, D.D. : Pioneer Missionary to Persia , (New York & Chicago & Toronto : Flaming H. Revell Company, 1887). (New Edition , General Books .Chapter 11 .(LLC, 2012

كانونَ الأوَّلَ عامَ (1869م).[1]

١٤. ما تبقّى من حياة شارلوت:

بدت حياة السيدة شارلوت بيركنس ارملة جوستن بيركنس في فصلها الاخير ، كما جاء في كتاب « التبشير هيرالد « : كان المكان ولويتش مين وكان الزمان 15 ديسمبر / كانون الاول 1897م انها عاشت طويلا ، اذ كانت قد ولدت عام 1808م في ستو فيرمنت ، وبعد رحيل زوجها ، بقيت تقيم مع ابنها القس هنري مارتن بيركنس وعائلته في ولويتش ، قد رحلت وهي في التسعين من العمر الى موطنها في السماء . بعد ان فاقت غيرها في سنوات العمر بالرغم من اوجاعها وامراضها واحزانها ، اذ ولدت خلال عهد رئاسة توماس جيفرسون وماتت على عهد وليام ماكينلي ، وعليه ، فقد امتد عمرها الى ما يقرب من قرن من الزمن[2].

١٥. النهاية

بهذه الكلمات تنتهي قصة حياة كل من جوستن بيركنس وزوجته شارلوت بيركنس عند نهايات القرن التاسع عشر ، وفيها تاريخ مثقل بالاحداث والصور والتوصيفات والحركة والمعاناة والاستكشافات .. فيها تاريخ اول تجربة اميركية في حياة العراق الحديث ابان القرن المذكور ، وفيها اضفاء معلومات جديدة لتاريخ الشرق الاوسط

(1) Henry Martyn Perkins. The Life of Justin Perkins, D.D., Pioneer Missionary to Persia. Chicago, 1887; see also, Rev. Henry Martyn Perkins, Life of Rev Justin Perking Pioneer Missionary to Persia Missionary Annals (Classic Reprint) (Forgotten Books (August 25, 2012). 100 pages.

(2) The Missionary Herald at Home and Abroad, vol. 94, 1883, p. 113.

من نواح عدة سواء كانت تاريخية ام جغرافية ام انثربولوجية وسوسيولوجية وديمغرافية سكانية لم تكن معروفة سابقا .. ادعوكم الان لقراءة الرحلة التي قام بها جوستن بيركنس من اورميا حتى الموصل الكلاسيكية ..

الفَصْلُ الثَّانِي

رحلَةُ بيركنسَ مِنْ أورميا إلى المَوْصِلِ

١ـ البدايةُ

تحرَّك "بيركنسُ" في السَّاعةِ السَّابعَةِ مِنْ صَباحِ يومِ (26) نيسانَ / أبريلَ مِنْ عامِ (1849م) مغادراً محلَّ إقامتِهِ في (سيير ـ Seir)[1] ومتوجِّهاً إلى المَوْصِلِ التِي كانَتْ محطَّ أنظارِ عالمِ الغربِ ذاكَ العصْرَ؛ والتِي بدأ مِنْ أجلِها رحلتَهُ مخترقاً الزَّاويةَ المحوريَّةَ للطَّرفِ الشِّماليِّ الغربِيِّ مِنْ إيرانَ، ليدخلَ عابراً بعدَها السَّلاسلَ الجبلِيَّةِ شاهقاتِ الذُّرى، والتِي تمتدُّ مواقعُها وفجواتُها ومنافذُها الحيَّةُ في كردستانَ العراقِ الواقعَةِ في المنطقةِ الشِّماليَّةِ مِنْهُ، وقدْ سلكَ «بيركنسُ» الطَّريقَ الاستراتيجِيَّةَ التَّاريخِيَّةَ التِي مرَّ مِنْ خلالِ ثغورِها العديدُ مِنْ عظماءِ التَّاريخِ على رؤوسِ جيوشِهم؛ مجتازاً القرَى والقصَباتِ[2] والمدنَ المحلِّيَّةَ التِي تمتدُّ على طولِ هذا الخطِّ الجغرافِيِّ الذِي يصِلُ مدينةَ أورميا بهذِهِ السِّلسلَةِ الجبلِيَّةِ الصَّعبَةِ الممتدَّةِ مِنْ أعماقِ الأناضُولِ إلى الجزءِ الجنوبِيِّ مِنْ أذربيجانَ.

ولمْ يتَّضِحْ لنا كمْ كانَ عددُ جماعتِهِ التِي كانَتْ ترافقُهُ في رحلتِهِ هذِهِ، ولكنَّهُ يعلمُنا أنَّهُ اصْطحبَ بعضَاً مِنَ الأدلَّاءِ مِنَ السُّكَّانِ المحلِّيِّينَ، ليكُونُوا عوناً لَهُ في الطَّريقِ الصَّعبِ الذِي سيسلكُهُ في رحلتِهِ عبرَ الجبالِ التِي لا يمكنُ اجتيازُها أبداً مِنْ دونِ أدلَّاءَ لهُم معرفتُهُم بمسالِكِها الوعرَةِ بينَ وديانِها وسفوحِها وذراها؛ وهِيَ غنيَّةٌ بالأحراشِ والغاباتِ والمياهِ المتدفِّقَةِ

(1) هي قرية في أعماق جبال كردستان إيران، وليست سيير التي ذكرت في التّوراة والواقعة في فلسطين.

(2) القصبات: جمع قصبة وهي القرية.

والحيواناتِ المفترِسَةِ، وليفيدَ كذلِكَ مِنْ خبرتِهم في حيواتِهم البرِّيَّةِ عبرَ المسالكِ الصَّعبَةِ.[1]

٢ـ في أراضي كردستانَ إيرانَ

واصَلَ «بيركنسُ» رحلتَهُ، حيثُ عبرَ جسراً مُقاماً على نهرِ (باراندوز ـ Barandoos)[2] ذلكَ الجسرُ الذِي يكادُ يلامسُ صَفحَةَ الماءِ الصَّافِي، ثمَّ انحدرَ مَعَ جماعتِهِ نحوَ البحيرَةِ المَوجُودَةِ غربَ تلكَ الجبالِ[3] التِي تشتركُ في سلاسلِها بينَ كلٍّ مِنَ العراقِ غرباً وتركيَّا شمالاً وإيرانَ جنُوباً، وتنحصِرُ هنا في محورٍ عريضٍ بفجوةٍ جغرافِيَّةٍ مستطيلَةٍ مِنْ أراضِي أقصَى شمالِ غربِ إيرانَ.[4]

توقَّفَ «بيركنسُ» ليلاً قربَ قريةِ (كرجان ـ Garijan)[5] وتلقَّى دعوةً مِنْ قبلِ صَاحبِها كريمِ خانَ، فلبَّاها بشغفٍ عميقٍ،[6] وقدْ جلسَ مستجمِّاً في الغرفةِ العليا مِنْ بيتِ هذا الخانِ، ليرَى كمْ كانَ منظرُ البحيرَةِ خلَّاباً، ولمْ

(1) The Letter No. 1, dated 25/ 04/ 1849 JAOS, op. cit., p. 71.

(2) يشتهر نهر باراندوز قرب أورميا بمياهه الجارية طوال السّنة ومنابعه من جبال غربي أذربيجان، وقد دمّر الجسر المقام عليه إبّان الحكم القاجاريّ جراء الصّراعات التي كانت ناشبة بين السّلطة والأقوام المختلطة من تركمان أذريّين وسريان آشوريّين وأكراد.

(3) ليس المقصود بها هنا بحيرة أورميا كما يتصوّر بعضهم، تلك البحيرة الكبيرة الواقعة شرقيّ المدينة، بل هي بحيرة صغيرة يغنيها بالمياه نهر باراندوز، وهي بحيرة حسنلو كولو.

(4) يقصد إقليم أذربيجان وعاصمته تبريز الواقعة إلى الشرّق من هذا المكان.

(5) لم أجد لهذه القرية أيّ موقع هذا اليوم، بل وجدت أنّ هناك ثلاث قرى عند تلك البحيرة، هي : باراني كرد وإلى جانبها باراني عجم وإلى الشّمال هناك قرية شيخ أحمد القريبة من ساحل البحيرة.

(6) ذكر المؤلّف أنّه لم يجد هذه القرية. ولكن هي مدينة كركان. وقد زرتها خريف عام 2015. (المقوّم اللّغويّ).

يعكِّرْ صَفوَ استجمامِهِ ذاكَ إلَّا صَوتُ إطلاقاتٍ نارِيَّةٍ دوَّتْ في الأفقِ.[1]

ومضَى في طريقِهِ القريبِ مِنَ البحيرَةِ قاطعاً تلكَ الحقولَ الخضْراءَ، ثمَّ اجتازَ سلسلَةً مِنْ تلالٍ صَخرِيَّةٍ منخفضَةٍ، وعبرَ مُقاطَعَةَ (سولدوز ـ Suldus)[2] ومدينتَها الرَّئيسَةَ (نقاديك ـ Niqaddik)[3] ويذكِّرُنا سيرُهُ

(1) The Letter No. 2, dated 26/ 04/ 1849 ; ibid., pp. 2- 71.

(2) سولدوز: مقاطعة كبيرة، لها امتداداتها الواسعة، ومجتمعها خليط من عشائر كرديّة هي: الزازا والمامش والمكري. راجع عنها:
.W.R. Hay, Two Years in Kurdistan, London, 1921, p. 126
وتقع (Sulduz) في الجزء الجنوبيّ من محافظة أذربيجان الغربيّة في إيران وهي عاصمة بلدة سولدوز (ومعناها: بهرج) وتقع المدينة في سهول خصبة، وتنتشر إلى الشّمال من رأس البحيرة بساتين التّفّاح والعنب، وهي فريدة من نوعها، إذ تأتي في المقام الأوّل؛ إلى جانب الأراضي الخصبة المزروعة بالأرز، وهي واحدة من المنتجات الرّئيسة من شمال البحيرة، وكانت الطّبقة الأرستقراطيّة تملك تلك الأراضي. انظر التّفاصيل في:
ستان شناسى آذربايجان غربى، شركت چاپ و نشر كتاب هاى درسى ايران، سال 1390، ص 31.

(3) هي مدينة نيقدة كما تسمّى اليوم Naghadeh ، ونَقَدة واحدة من المدن الجنوبيّة في مقاطعة أذربيجان الغربيّة، ومركز مقاطعة ناقادية. وتقع على بعد 95 كم جنوب شرق مدينة أورميا، والمعروف أنّها كانت تسمّى مقاطعة ناقاديه في منطقة سلدوسي، ولكن بموجب التّشريعات الأخيرة، تمّ تغيير اسمها إلى نغا، وقد كانت هذه المدينة في قلب الصّراع القوميّ والطّائفيّ على مرّ التّاريخ، وخصوصاً بين الآشوريّين السّريان، والأكراد السّنّة (مع يهود مسالمين) ومن حولها التّركمان الأذريين الشّيعة، وما تعرّض له الجميع من بطش على يد قاجار شاه. وفي سنة 1245 هـ/ تعرّضت لحركات نزوح أقوام خرى من بيبك منطقة إيل من القوقاز بعد فرارهم إلى هذه المنطقة، وكانت فيما سبق قد تعرّضت لهجمة قبيلة أفشار على يد نادرشاه إبّان القرن الثّامن عشر، ونقل ملكيّة منطقة نغادة ترك في سهول أورميا إلى إيران، وكان الصّراع يلتهب من زمن الى آخر، جرّاء بطش الحكّام منذ وقوعها في إطار سيادة ترك أفشار، مروراً بالقرن التّاسع عشر، ووصولاً إلى ما قبل الإبادة الجماعيّة للسّريان الآشوريّين بين عام 1915م إلى عام 1917م، كما هاجر اليهود إليها لاحقا. وتعدّ نيقا غنيّة في السّهول للزّراعة ونموّ الثّروة الحيوانيّة وتعدّ نغاده، مركزا حقيقيّا لكلّ المنطقة. راجع:

بالخطرِ المحدقِ في ذهابِهم مِنْ خلالِ هذا الطَّريقِ؛ ولا سيَّما مِنَ الجماعاتِ التِي تسيطرُ على القممِ متوزِّعَةً بينَ الكهوفِ الغائرَةِ، وهُمْ مِنَ الأكرادِ الذِينَ كانُوا قَتَلُوا العديدَ مِنَ الإيرانيِّينَ في تلكَ المناطقِ. هكذا يعدِّدُ مصَاعبَهُ أثناءَ تقدُّمِهِ في منطقةِ سولدوز، ويصِفُ لنا كمْ كانَتْ الدَّهشَةُ التِي ارتسمَتْ على وجوهِ النَّاسِ الذِينَ صَادفُوهُ في هذا الطَّريقِ كبيرَةً وعلى درجَةٍ مخيفَةٍ مِنَ الغرابَةِ.

كانَتْ الثُّلوجُ وافرَةً وناصِعَةَ البياضِ، وهِيَ تعلُو سلاسلَ ومُنحنَيَاتِ الجبالِ التِي كانَتْ تحتضِنُ طريقَ القافلَةِ، وقدْ وصَلُوا نهرَ (جدير ـ Jdir)[1] بعدَ انهمارِ المطرِ، وكانَ النَّهرُ يبسطُ صَفحتَهُ المائِيَّةَ عرضَاً كلَّما ازدادَتْ القافلَةُ تقدُّماً، وأخذَتْ الرَّحلَةُ طريقاً مباشرَةً عِنْدَ حافَّتِهِ الجنوبِيَّةِ طولُهُ ميلانِ، وأوصَلَتْهُم إلى قريةِ (راختانا ـ Rakhtana)[2] التِي تضُمُّ ستَّ عائلاتٍ مسيحِيَّةٍ نسطورِيَّةٍ، وهُم النَّاسُ الذِينَ توقَّفَ بينَهُم «بيركنسُ» وقدْ اعتبرَهُم مِنْ ملَّتِهِ ـ على حدِّ تعبيرِهِ.

بعدَ أنْ يصِفَ «بيركنسُ» مُقاطعَةَ سولدوزَ، وما يتخلَّلُ طبيعتَها، وما تزخرُ بها مزارعُها؛[3] يواصِلُ مسيرَتَهُ بقطعِهِ (5) فراسخَ ليصِلَ بعدَ ذلكَ إلى مدينةِ (ساوج بلاق ـ Sawj Bulak) وتكتبُ اليومَ (Savoj Bolagh) حيثُ أصْبحَ الآنَ مَعَ رَكْبِهِ بينَ الجبالِ الكردِيَّةِ، وصَعدُوا أعلى قمَّةٍ في تلكَ

طلس گيتاشناسی استان‌های ايران، تهران: مؤسسه گيتاشناسی، 1383. وانظر: آذربايجان غربی در آينه تقسيمات كشوری جمهوری اسلامی ايران – محمد رضا قلی زاد – با همكاری استانداری آذربايجان غربی – انتشارات حسام الدين چلبی – 1391 – ص 31. . ايضا : فرهنگ عامه ايل قره پاپاق – يوسف قهرمانپور – ياز – 1385 ، ص 44.

(1) يسمّى اليوم بـ« نهر جادار»Jadar River .

(2) وجدتها تسمّى اليوم: برودخانة كادلر.

(3) The Letter No. ,3, dated 27/ 04/ 1849 JAOS, op. cit., pp. 3- 72.

السِّلسلَةِ الجبلِيَّةِ وقدْ تركُوا المدينَةَ القائمَةً مباشرَةً تحتَ هامَةِ ذلكَ الجبلِ المطلِّ مِنْ فوقِها، ثمَّ انحدَرُوا وعبرُوا نهرَها بوساطَةِ جسرٍ حجريٍّ عالٍ، مَبْنِيٍّ على أربعِ قناطرَ؛ وقدْ تلفَتْ بعضٌ مِنْ أحجارِها، وكانَ طولُهُ نحواً مِنْ 150 قدماً، وتنتشرُ على طولِ جنوبِ النَّهرِ مزارعُ القمحِ والكهوفُ الحجرِيَّةُ.

ويستطردُ «بيركنسُ» قائلاً: مِنَ المُحتَمَلِ أنَّ اسمَ هذِهِ المدينةِ قدْ اشتُقَّ مِنْ طبيعتِها، والذِي يعنِي (الرَّبيعَ الباردَ).[1]

بدَتْ قممٌ جبلِيَّةٌ مخضَوضِرَةٌ، عدا ما يكسُو بعضَاً مِنْهَا مِنْ ثلجٍ منتشرٍ هنا وهناكَ، وكانَ الفصْلُ مستسَاغاً، والجوَّ جيِّداً لَمَنْ يرغبُ بالسَّفرِ، إلَّا ما يزعجُ مِنْ انهمارِ المطرِ في بعضٍ مِنَ الأحيانِ؛ وعلى الرُّغم ممَّا يحيطُ بالمدينَةِ مِنْ جبالٍ؛ إلَّا أنَّها ستكُونُ ذاتَ حرارَةٍ لاهِبَةٍ صَيفَاً. ويَسكُنُها الأكرادُ، وفيها نحوٌ مِنْ مئةِ بيتٍ مِنَ اليهودِ؛ وكانَتْ البيوتُ حمراءَ داكنَةً، وأسطحُها صَغيرَةً، كمَا إنَّ فيها أربعَ عوائلَ أرمنِيَّةً، وهِيَ ذاتُ تعاملٍ تجارِيٍّ جيِّدٍ مَعَ أماكنَ مهمَّةٍ تستقطِبُها مِنْ كلِّ الاتِّجاهاتِ، وقدْ شاهدَ «بيركنسُ» في السُّوقِ تجَّاراً مِنْ تبريزَ والمَوْصِلِ وأورميا، كمَا يمرُّ خلالَها (الترانسبورت) الذّاهبُ

(1) راجع عن ساوج بلاق» في:
The Encyclopeadia of Isted, vol. 3 p. 188.
محافظة سافوجبولاغ (الفارسيّة: شهرستان ساوجبلاغ؛ أذربيجان: ساوج بولاق، بولاق سابك) مقاطعة في البرز في إيران. هي عاصمة المقاطعة هاشتجيرد. وتنقسم المقاطعة إلى ثلاث مناطق: المنطقة الوسطى، وحي تشاهارباغ، وحي شندر. وهي خمس مدن: هاشتجيرد، تشاهارباغ، جولزار، كسار، وشهر ه هاشتجيرد ه الوادي الجديد. وأعتقد أنّ الرّحالة بيركنس قد أخطأ في التّسمية، ذلك أنّ مدينة ساوج بولاك تقع إلى الشّرق من تبريز قرب بحر قزوين، وربّما قصد غيرها، فالطّريق يوصله إلى مدينة (أوشنفية Oshnavieh). راجع التّفاصيل عن كردستان إيران في: عبد الرّحمن قاسملو، كردستان إيران، ترجمة غزال يشيل أوغلو، دمشق 1999م.

إلى استنبولّ وأوروبّا عَنْ طريقِ أرضروم[1]، وإلى أذربيجانَ وروسيا عَنْ طريقِ بحرِ قزوينَ.[2]

في مسَاءِ 29 أبريلَ / نيسانَ، أُنزِلَتْ الرِّحالُ بعدَ أنْ توقَّفَ الرَّكبُ عِنْدَ قريةِ (دارلك ـDarlik)[3] التِي يسكنُها خمسَ عشرَةَ عائلَةً أرمنِيَّةً، وعشرُ عوائلَ نسطورِيَّةٌ، وانهمرَتْ الأمطارُ ليلاً؛ ولكنْ تغيَّرَ الطَّقسُ، إذْ هبَّ الهواءُ عليلاً، ونشرَتْ شمسُ الصَّباحِ أشعَّتَها على أطرافِ تلكَ البقاعِ.

كانَ «بيركنسُ» خلالَ الرَّحلَةِ يسجِّلُ المَعلومَاتِ الأساسِيَّةَ المهمَّةَ عَنْ المَوْصِلِ والمسالكِ الجبلِيَّةِ المؤدِّيَةِ إليها عبرَ مناطقِ الثُّلوجِ العميقَةِ التِي قدْ يكونُ مِنَ الصَّعبِ اجتيازُها في ذلكَ الفصْلِ مِنَ السَّنَةِ، فكيفَ إذا كانَ الفصْلُ في بواكيرِهِ؟! لأنَّ الثُّلوجَ المتراكِمَةَ في المسالكِ عقبَةٌ كأداءُ تعيقُ حركةَ وتنقُّلَ القوافلِ عبرَ الطُّرقِ القصِيرَةِ.[4]

أمَّا المسلكُ الذِي سيتَّبعُهُ «بيركنسُ» نحوَ العراقِ، فهوَ مِنْ خلالِ القمَّةِ العليا التِي تُدعَى (كاليه شين ـ Galeh Shin)[5] أي الدِّعامةُ اللَّازورديَّةُ

(1) مدينة أرضرُّوم أو أرض الرّوم (أو أرزن الرّوم محرَّفة) مدينة تاريخيّة عريقة، وهي عاصمة محافظة أرضروم، وتقع في شمال شرق تركيّا. ويبلغ عدد سكّانها نحواً من 361,235 نسمة. ٪48 من سكّانها أكراد، والبقيّة أتراك وأرمن وشركس.

(2) The Letter No. 4, dated 28/ 04/ 1849 JAOS, op. cit., pp. 5- 74.

(3) لم أعثر على هذه القرية اليوم في الأراضي الإيرانيّة، بل إنهّا قرية ديرجيك Derecik في الأراضي التركيّة.

(4) The Letter No. 5, dated 29/ 04/ 1849 ibid., p. 75; see also, Letter No. 6, dated 30/ 04/ 1849 loc. Cit.

(5) مسلك كاليه شين: كان لهذا المسلك الاستراتيجيّ «اشنو- راوندوز» شأن كبير في تاريخ الحروب الرّومانيّة ـ الفارسيّة سنة 598م، وذلك بين نرسيس القائد الرّومانيّ وخسرو برويز الفارسيّ (عن منسوخات الأركولوجست راولينسون، ص74-80) من طرف آخر، فقد كانت القوّات المغوليّة

الزَّرقاءُ، والواقعَةُ على المسلكِ بينَ (أوشنوا ورافاندوز ـ Ravanduz) وهِيَ دعامةٌ رخامِيَّةٌ قائِمَةٌ ترتفعُ ثمانيَةَ أو عشَرَةَ أقدام، ويصِفُها "بيركنسُ" وصِفاً دقيقاً، ويذكرُ أنَّ الميجرَ (راولنسون ـ Rawlinson)[1] زارَها منذُ عدَّةِ سنينَ، وكانَ قدْ نسخَ مِنْهَا نقوشَ الحروفِ المسمارِيَّةِ. ويُعدُّ هذا المَسلَكُ مَوقِعاً استراتيجِيّاً، ولَهُ تاريخُهُ العريقُ، فقدْ مرَّ مِنْ خلالِهِ الإسكندرُ المقدونِيُّ

مستفيدة من هذا المسلك المهمّ في حركاتها الحربيّة وتنقّلاتها بين الأقاليم. (انظر: ع. العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ1، ط1، بغداد 1939، ص377). لقد اكتشف بعض من الآثاريّين العديد من الآثار التّاريخيّة في مضيق كاليه شين، وهي عبارة عن مشارات وألواح مكتوبة باللّغة الآشوريّة، وتوضّح تلك الآثار أخبارا عن الخلديّين في حركاتهم الحربيّة ومناوشاتهم مع الآشوريّين إبّان عهد الملك الآشوريّ شلمنصر الثّالث 824–849 ق.م، وإحلال اللّغة الخلديّة محلّ الآشوريّة التي كانت تعدّ اللّغة الرّسميّة وتمثّل لغة الآداب في الإمبراطوريّة. راجع التّفاصيل التّاريخيّة عن ذلك:

‹Cambridge Ancient History›, vol. 1, (Khuldyeen), pp. 211- 255; see also, Morries Jastrow, The Civilization of Babylonia and Assyria, London, 1915, p. 245.

ويمرّ خطّ الحدود بين العراق وإيران بمضيق كاليه شين البالغ في الارتفاع 3480م (عن: طه الهاشميّ، جغرافيّة العراق، ط2، بغداد 1936، ص29). وأعتقد أنّها تسمّى اليوم (Gelisin).

(1) هو الكولونيل والميجر جنرال (السّير) فيما بعد، هنري كرسويك راولينسون، (5 أبريل 1810 – 5 مارس عام 1895) كان ضابط جيش شركة الهند الشّرقيّة البريطانيّة، وهو سياسيّ ومستشرق، يوصف في بعض من الأحيان بأنّه أبو الآشوريّات. وقد كان واحدا من أهمّ الشّخصيّات البريطانيّة، وقد عمل على تحقيق الطّموحات البريطانيّة على العهد الفكتوريّ في آسيا، كما كان من أشهر المنقّبين الآثاريّين البريطانيّين في القرن التّاسع عشر، والقائم بشؤون شركة الهند الشّرقيّة ببغداد للمدّة 1834–1855م، وكان قد أخذ على عاتقه مسؤوليّة البرنامج العامّ للحفريّات الآثاريّة في العراق، والخاصّة بالمتحف البريطانيّ بعد الدّور الذي كان مناطاً بالآثاريّ البريطانيّ الشّهير هنري لايارد. اشترى راولينسون للمتحف البريطانيّ ثورين مجنحين «برأسي إنسان». وهما من تماثيل خرسياد الهائلة (المعلومات عنه في النشرة الحديثة لقسم آثار غرب آسيا في المتحف البريطانيّ، سنة 1979عام منحوتات البلاد الآشوريّ)(British Musuam: Dept. of Western Asiatic Antiquities).

في حركاتِهِ الحربيَّةِ ضِدَّ الملكِ الفارسِيِّ (داريوسَ).[1]

يواصِلُ «بيركنسُ» رحلتَهُ في 2 أيَّارَ / مايو عبرَ المسلكِ الذِي يوصِلُ إلى طرابزونَ ـ أرضروم، ويسهِبُ في وصْفِهِ، ويصَوِّرُ لنا مروجَهُ، والطُّيورَ التِي تتلاعَبُ في سمائِهِ، وأشجارَ الكمَّثرَى والمشمشِ المزدهرَةَ في بساتينِهِ، ونهرَهُ، والأشجارَ الوارفَةَ المتناثرَةَ على حافَّةِ النَّهرِ، كأنَّها حاشيَةٌ شريطِيَّةٌ خضْراءُ ملتحمَةٌ مَعَ زرقَةِ الماءِ الشَّفَّافَةِ. وبعدَ خمسَةِ أميالٍ، يصِلُ إلى قريةٍ صَغِيرَةٍ تُدعَى (بايرام شاه ـ Bayram Shah)[2] التِي يتركُها منحرفاً نحوَ الغربِ، ويرَى ينابيعَ الماءِ تتفجَّرُ في الوديانِ رقراقَةً صَافِيَةً، أو ترسمُها الطَّبيعَةُ على صَفحاتِ الجبالِ خطوطًا متوزِّعَةً متعرِّجَةً بعدَ ذوبانِ الثُّلوجِ؛ وافترشَ «بيركنسُ» الأرضَ مَعَ جماعَتِهِ في أحدِ تلكَ الوديانِ الكبيرَةِ، وكانَتْ متعتُهُ كبيرَةً وهوَ يشاهدُ لوحاتِ الطَّبيعَةِ، متنسِّماً عبقَ الزُّهورِ الطَّريَّةِ، وروائحَ أشجارِ الجوزِ والتُّفَّاحِ، وكانَتْ نغماتُ الطَّبيعَةِ تتبدَّدُ في خفُوتٍ وتبقَى زقزقَةُ العصَافيرِ المنبعِثةُ عَنْ قربٍ تمزِّقُ سكونَ ذلكَ الوادِي الجميلِ، أمَّا الشَّمسُ فتُسْقِطُ حليَّها كلَّ يومٍ على تلكَ الجبالِ المكسوَّةِ بالبياضِ. ويتحدَّثُ عَنْ لمدرتِهِ ـ هوَ نفسُهُ ـ على تذوُّقِ الحليبِ الرَّائبِ، والَّلبنِ، و (القيمر ـ K –

(1) The Letter No. 7, dated 01/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 6/ 75.

عند هذه العبارة تخطئ هيئة تحرير المجلّة (JAOS) الدّكتور بيركنس بالاعتماد على منسوخات الميجر رولينسون وأحيل القارئ إلى الحوليّتين التّاليتين.

Journal of Royal Asiatic Society, vol. X, p. 25; and Journal of Royal Geographical Society, vol. X, p. 21. See, JAOS, op. cit., p76n.

وللاستزادة والتّأكّد من صحّة الأحداث والتّفاصيل التّاريخيّة، راجع:

Arrian, The Campaigne of Alexander, tr. By Aubrey de Selincourt, Introduction and Notes by J.R. Hamilton, Reprinted in Britian, 1978.

(2) لم أجد لها أي وجود اليوم!.

mak) الذِي أهداهُ إليهِ أحدُ الجيرانِ الذِينَ كانُوا يخيِّمُونَ لبعضٍ مِنَ الوقتِ بالقربِ مِنْهُم.[1]

مضَتْ القافلَةُ في طريقِها، وهبَّتْ الرِّيحُ فأخذَتْ الأشجارُ تتراقَصُ، ثمَّ انهمرَتْ الأمطارُ ثقيلَةً فملأتْ التُّرَعَ وأجْرَتْها، واستمرَّتْ نحوَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمنِ قطَعَتْ فيها الجماعَةُ نحواً مِنْ ميلَيْنِ، ولا زالُوا في الطَّرفِ الغربِيِّ المباشرِ تتراءَى لهُم على الحدودِ الجنوبِيَّةِ نقطةٌ جبلِيَّةٌ عظيمَةٌ تشكِّلُ الحدودَ العامَّةَ بينَ العراقِ وإيرانَ[2] وقدْ غُطِّيَتْ بالثُّلوجِ الوفيرَةِ، وبدَتْ نهاياتُها لا يحدُّها شَيْءٌ سوى الأفقِ.

انحرفَتْ القافلَةُ الآنَ لأربعَةِ أو خمسَةِ أميالٍ نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ، ووصَلَتْ سهلَ (لوجان ـ Lujan) وهوَ ذو تربَةٍ غنيَّةٍ ومياهٍ وفيرَةٍ، ويجرِي في شمالِهِ الشَّرقِيِّ نهرٌ صَغيرٌ يُسمَّى (روبري ـ Rubari)[3] وهناكَ نهرٌ آخرُ يجري عرضَاً يُسمَّى (ليفان ـ Livan) ويدخلُ السَّهلَ مِنْ جنوبِهِ الغربِيِّ نهرانِ تجرِي على جانبَيْهِمَا جداولُ صَغيرَةٌ تروي جميعَ القرَى التِي تتوزَّعُ تلكَ المنطقَةِ، وتصِلُ الجنوبَ حتَّى المنطقَةِ المُسمَّاةِ (سرادشت ـ Se - dasht).[4] كانَتْ الأشجارُ الصَّنوبرِيَّةُ كثيفَةً تظلِّلُ عدداً مِنَ الكهوفِ،

(1) The Letter No. 8, dated 02/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 8- 77.

(2) للمزيد من التّفاصيل الجغرافيّة وطبيعة منطقة الحدود العراقيّة + الإيرانيّة + التّركيّة، انظر: طه الهاشميّ، المرجع السّابق، ص27-29.
ولتوخّي الدّقّة في المعلومات والشّروح والخرائط، راجع:
Major Lioyd 'The Geography of the Mosul Boundary', Geographical Journal, vol. lviii (1926).

(3) هو نهر روبار شاكيو Rubar Shakiu

(4) للمزيد من التّفاصيل عن إقليم (سرادشت) انظر:
Walter, B. Harris, From Batum to Baghdad, London, MDCCCXCVI, pp. 219- 225.

وكانَتْ الصُّخورُ ممتدَّةً مِنْ (سولدوز) على طولِ طريقِ سلسلَةِ الجبالِ المنخفضَةِ؛ وتقطنُ هذِهِ المنطقَةَ قبيلَةُ (البلباس)[1] وخلالَ ما يقربُ مِنْ تسعِ ساعاتٍ، قطعَتْ القافلَةُ نحواً مِنْ ثلاثِينَ ميلاً بينَ أحراشِ (الاستبس) ثمَّ خيَّمَ الرَّكبُ ليلاً في الجنوبِ الغربِيِّ مِنَ السَّهلِ عِنْدَ قريةِ (هانيه ـ Hanee) [2] التِي تُعدُّ محلَّ إقامَةِ (قره يني آغا) الرَّئيسِ البارزِ لقبيلةِ (البلباس) صَاحبَةِ النُّفوذِ، وهوَ الذِي قادَ القبائلَ الكردِيَّةَ الرُّحَّلَ التِي غزَتْ أورميا في الخريفِ المنصَرِمِ، ونهبَتْ خمسَ عشرَةَ قريَةً جنوبَ السَّهلِ، فكانَتْ لَهُ سمعتُهُ في الأماكنِ التِي اجتازَتْها الرَّحلَةُ.

وعلى أيَّةِ حالٍ، فقدْ صَرَفَ «بيركنسُ» نظرَهُ عَنْ رؤيةِ هذا الرَّجلِ الذِي كانَ غائباً عَنْ قريتِهِ حيثُ ذهبَ إلى (أوشنو) فكانَ أنْ استضَافَهُم ولدُهُ الأكبرُ (مراد أغا) ورحَّبَ بهِم بحرارَةٍ. وكانَ مرادُ شابَّاً يناهزُ الثَّلاثِينَ مِنَ العمرِ، وقدْ جالسَهُم وأكرمَهُم بعشَاءٍ سَخِيٍّ، وقضَوا ساعاتِ المساءِ عِنْدَهُ، ويذكرُ «بيركنسُ» أنَّهُ عُومِلَ مِنْ قبلِ هذا الرَّجلِ بمُنتَهَى الاحترامِ والرِّقَّةِ، وأنَّهُ بسطَ لَهُ القولَ كونَهُ لمْ يشاهدْ أبداً مِنَ الأوربِّيِّينَ أناساً عبرُوا سهلَ ليجانَ قبلَ هذا التَّاريخِ.

يعبِّرُ «بيركنسُ» بعدَ ذلكَ عَنْ هواجسِهِ وقدْ ملأ الخوفُ قلبَهُ حينَ يشرحُ

(1) البلباس: من العشائر الكرديّة التي تقطن في قضائي اوشنو وراوندوز في محافظة أربيل. وتنقسم إلى أقسام كبيرة: بيران، ومنكور، وماش؛ والذي يقطن منها منطقة رانية. وقد تعرّض الميجر راولينسون لذكر هذه العشائر أثناء دراسته القيّمة لعاصمة (ميديه) القديمة، وذلك أثناء رحلته المفيدة للمنطقة وفحصها ميدانيّا سنة 1836م.

Notes on a marche from Zohab at the foot of Zagros, a long the mountains to Khuzistan (Susiana) and from the nee through the provinces at Luristan to Kermenshah in year 1836 by Major Rawlinson, of the Bombay army serving in Persia, p. 33.

(2) لم أجد لها أيّ وجود اليوم!.

لنا كيفَ تسلَّلَ بعدَ ذلكَ مَعَ جماعتِهِ بصُورَةٍ خاطِفَةٍ لمسافةِ عشرَةِ أميالٍ مِنَ المكانِ الذِي توقَّفَ فيهِ عِنْدَ مقابلَتِهِ لرئيسِ البلباس الذِي نصَحَهُم بالحيطَةِ والحذرِ، وحمايَةِ أنفسِهِم مِنَ النَّاسِ الذِينَ «لا يخافُونَ اللهَ»! ففي الخارجِ صَمْتٌ مرعبٌ، وكانَ يوماً غائماً أسرعَ فيهِ المساءُ إليهِم، وإنَّهُ لمكانٌ ملائمٌ، ووقتٌ مناسبٌ جدّاً للرِّجالِ «الدَّمويِّينَ» وللأعمالِ اللَّعينَةِ المخزيَةِ على حدِّ ذكرِ صَاحبِ الرَّحلَةِ الذِي يستأنفُ قائلاً: إنَّنا نأملُ أنْ ندخلَ حدودَ ولايةِ المَوْصِلِ غداً، وهوَ المكانُ الذِي يُعدُّ أكثرَ أمناً، نظراً لوجودِ حكومَةٍ فاعلَةٍ فيهِ، وبناءً على ذلكَ فإنَّ خطرَ القبائلِ قليلٌ.

ولقدْ صَرَّحَ لنا مضِيفُنا الشَّابُّ ـ رئيسُ البلباسِ ـ عَنْ الرَّغبَةِ القويَّةِ المَوجُودَةِ لدَى الجميعِ في العيشِ تحتَ ظلِّ حكمِ الأتراكِ بدلاً مِنَ الحكمِ الإيرانِيِّ،[1] وبقِيَ مرادُ آغا برفقَةِ «بيركنسُ» حتَّى صَباحِ الرَّابعِ مِنْ نيسانَ، وقدْ أكرمَهُم فيهِ كعادَتِهِ بهائدَةِ إفطارٍ شهيَّةٍ، تضَمَّنَتْ الخبزَ واللَّبنَ و «الدُّوشابَ» المغلِيَّ أي (دبسَ السُّكَّرِ). وتقدَّمَ مَعَهُم نحواً مِنْ أربعِينَ ميلاً مِنْ رحلتِهِم المتواصِلَةِ؛ في الوقتِ الذِي وصَلَتْ فيهِ الأخبارُ عَنْهَا إلى القنصُلِ الإنكليزِيِّ في المَوْصِلِ[2] عَنْ طريقِ استخباراتِهِ.

٣ـ الدُّخولُ إلى (كردستانَ العراقِ)

عرفَ «بيركنسُ» أثناءَ مسيرِهِ المزيدَ مِنَ المَعلوماتِ عَنْ كيفِيَّةِ عبورِ الحدودِ العراقِيَّةِ ـ الإيرانِيَّةِ وما يتخلَّلُها مِنْ مناطقَ جميلَةٍ وقرَىً جبلِيَّةٍ، كَما

(1) The Letter No. 9, dated 03/ 05/ 1849 JAOS, op. cit., pp. 78- 82.

(2) لم أجد للكولونيل وليامز ترجمة خاصّة به، أمّا ارتباطه السّياسّي فيكون مع القنصل البريطانيّ العام المقيم في بغداد، ويرتبط الأخير دبلوماسيّا بالسّفير البريطانيّ الموجود في مقرّ عمله بالعاصمة العثمانيّة (استنبول). ومن المؤكّد أنّ للكولونيل وليامز أوراقا سياسية ورسائل دبلوماسيّة، ووثائق تاريخيّة أثناء وجوده في الموصل. ربّما سيأتي أكثر من باحث بعدي ليبحث في ذلك مستقبلا ويستخلص معلومات نادرة عنه وعن الموصل.

ألمَّ بطبيعَةِ (كاليه شين) والمرورِ عبرَ هذا المفصَلِ التَّاريخِيِّ ـ الجغرافِيِّ بينَ البلدَيْنِ، والذِي يُعدُّ أشبَهَ بالنَّافذَةِ الجبلِيَّةِ الحادَّةِ التِي دخلُوا ولايةَ المَوْصِلِ مِنْهَا، ووصَلُوا إلى (شيخ محمّد ـ Shaikh Muhammad)[1] ذلكَ المكانِ الرَّائعِ الذِي يتَّصِلُ بالمسلكِ الجبلِيِّ، وهوَ أحدُ الأضْرحَةِ الكبيرَةِ الذِي يؤمُّهُ الزُّوَّارُ داخلَ بناءٍ صَغيرٍ تخيِّمُ فوقَهُ ظلالُ أشجارِ الصَّنوبرِ، وهوَ مُقدَّسٌ مِنْ قِبَلِ الأكرادِ، وحولَهُ قبورٌ وزهورٌ جميلَةٌ. ثمَّ وصَلُوا قريةَ (بالك ـ Balak)[2] التِي تقعُ ضِمْنَ إقليم (راوندوز ـ Rawandoz)[3] الذِي يرتبطُ إداريَّاً بـ (باشوية بغدادَ ـ Baghdad Pashaliq)[4] وقدْ قطعَتْ الرَّحلَةُ هذا اليومَ نحواً مِنْ ثلاثِينَ ميلاً، وما زالَتْ في طريقِها الذِي بدأ ينحرِفُ قليلاً نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ.

يأخذُ الطَّريقُ بالالتواءِ نزولاً بعدَ الدُّخولِ إلى الأراضِي الكردِيَّةِ مِنَ العراقِ، وهوَ ضَيِّقٌ وشاهقٌ، وعلى جانبِهِ وادٍ صَخرِيٌّ سحيقٌ، وتذوبُ الثُّلوجُ على الجبالِ مِنْ حولِهِ لتشكِّلَ جدولاً كبيراً يتهادَى ماؤهُ ليصِلَ إلى

(1) لم أجد لهذه القرية أيّ وجود اليوم!.

(2) لم أجد لها وجودا اليوم!.

(3) يعدّ قضاء راوندوز اليوم من أقدم أقضية محافظة أربيل في كردستان العراق. وكان تاريخيّا عاصمة لإمارة سوران التي حكمت المنطقة الجبليّة الكرديّة لقرون عدة مضت، ويشكّل إقليم راوندوز مساحات واسعة من كوردستان العراق. ولقد استحدثت منه أقضية جومان ميركة سور وسوران بعد أن كانت تابعة لروانذوز، فتقلّصت مساحته، وتتبعه حاليّا ناحية واحدة هي ناحية ورتي و12 قرية. وتقع مدينة راوندوز عند سفح جبليّ صخريّ، ويحيط بها واديان عميقان، وتحيط بكلّ المنطقة على وجه العموم سلاسل جبال شاهقة جدّا، وهنالك طريق يمرّ عبر مدينة سوران نحو راوندوز ومن سوران يمكن رؤية راوندوز قبل بلوغها؛ ويمكن للزّائر من راوندوز يمكن أن يواصل سيره مرورا بمنتجع بانك وصولا إلى مصيف وشلال بيخال الشّهير وتبلغ مساحة مركز القضاء اليوم نحوا من 487 كم.2

(4) كان راوندوز يرتبط إداريّا بباشوية الموصل وليس بباشوية بغداد في ذلك الوقت، وقد ارتبط سهرزور بباشويّة بغداد لاحقا.

وادٍ مشابِهٍ لَهُ يقعُ على الطَّرفِ الآخرِ مِنَ الطَّريقِ؛ ليكوِّنَ بعدَ ذلكَ نهرَ «رواندوز» الذِي يُعدُّ مِنْ أهمِّ روافدِ نهرِ الزَّابِ (زاباتوس ـ Zabatus) [1] عِنْدَ (اكزنافون ـ Xenophon) وتراءَتْ لبيركنسَ بعضُ مِنْ حقولِ القمحِ الصَّغيرَةِ، يانعَةَ الاخضِرارِ، وعلى البعدِ مِنْهَا تتفرَّقُ شجيرَاتُ البلُّوطِ، وأشجارُ السِّنديانِ على هيئةِ مجاميعَ على سفحِ الجبلِ.

انحدرَتْ الجماعةُ إلى أسفلِ قاعِ الوادِي، وأصْبَحَتْ الجبالُ في الطَّرفِ الآخرِ نافذَةً حادَّةً تغشاها قطعُ الغيومِ المتفرِّقَةُ في أعلاها، وقطَعُوا مسافَةً أوصَلَتْهُم إلى قريةِ (رايات ـ Rayat)[2] وقدْ ظنَّ أصْحابُها أنَّ مَعَ القافلَةِ سلعاً وبضَائعَ، ولمْ يصَدِّقُوا ما أُعلِنَ مِنْ أمرِ هذِهِ الرَّحلَةِ، إذْ توقَّعُوا العكسَ تماماً، فابتدرُوا الجيادَ ووقفُوا يفحصُونَ صَناديقَ المؤنِ المَحمُولَةَ عليها، وتراشقُوا مَعَ الأدلَّاءِ بالكلماتِ الحادَّةِ، وكادَ يعصِفُ الأمرُ بينَهُم لولا التَّهديدُ الذِي مُورسَ مَعَهُم! وقدْ بعثَ مَوقفُ أحدِ الأدلَّاءِ المرافِقِينَ على الارتياحِ عِنْدَ «بيركنسَ» لأنَّهُ نجحَ بتجاذبِهِ العنيفِ مَعَ بنِي قومِهِ وبجلجلَتِهِ اللُّغويَّةِ التِي لمْ يفهمْها «بيركنسُ» على حدِّ تعبيرِهِ.

أمَّا قريةُ راياتٍ، فقلعَةٌ قويَّةٌ مبنيَّةٌ بالحجرِ والكلسِ، وتتشابَهُ مَعَ غيرِها مِنَ القرَى في هذا الوادِي الذِي تشكِّلُ منطقتُهُ هذِهِ تحصِيناتٍ قائمةً ومَوجُودَةً منذُ ما يقربُ مِنْ عشرينَ عاماً، حيثُ شيَّدَهَا محمَّدُ باشا أوكورمير[3] الرَّئيسُ

(1) Bosworth, C.E. , «AL-Zāb», in Bearman, P.; Bianquis, Th.; Bosworth, C.E. et al., Encyclopaedia of Islam, Second Edition, (Leiden: Brill , 2020)

(2) رايات. قرية في أعماق كردستان العراق، لا تزال موجودة بهذا الاسم.

(3) محمّد باشا الذي اشتهر بـ «كور» أي «الأعور» بسبب إصابته بعلّة في إحدى عينيه. راجع أخباره المقتضبة عند المؤرّخ لونكريك في كتابه الشّهير «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث».
S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925, pp. 6- 282.

الأعلى لرواندوز، والذِي تمرَّدَ ضِدَّ حكومةِ السُّلطانِ العثمانِيِّ، ونشرَ الخرابَ في كلِّ مكانٍ مِنْ مُقاطَعَتِهِ، كما نشرَ الرُّعبَ في جميعِ الأقسامِ المتاخِمَةِ لها.[1]

نزلَتْ القافلَةُ في طريقِها حتَّى صَارَتْ إلى قريةِ (ديربنت ـ Derbent)[2] القريةِ اللَّطيفَةِ التِي تقعُ على مفرقٍ طويلٍ ما بينَ نهرِ رواندوزَ وروافدَ أكبرَ تدخلُ مِنَ الشِّمالِ، وينحدرُ هذا النَّهرُ كثيراً ممَّا يجعلُ مياهَهُ تندفعُ بقوَّةٍ عظيمَةٍ جدَّاً؛ وعلى الرُّغمِ مِنْ صِغرِ القريةِ إلَّا أنَّها مَأوىً ينعمُ بالدِّفءِ ومَحجُوبٌ تماماً عنْ الأنظارِ. ويقفُ «بيركنسُ» مُعلِّقاً على قوَّةِ اندفاعِ مياهِ النَّهرِ بقولِهِ: إنَّهُ لو كانَ ذلكَ مَوجُوداً في بلدٍ متمدِّنٍ، لتحوَّلَتْ قوَّةُ النَّهرِ هذِهِ عبرَ آلافِ الدَّواليبِ لخدمَةِ الأغراضِ الصِّناعِيَّةِ، والاستفادةِ مِنْ طاقتِها في تشغيلِ المعاملِ التِي تحيكُ الأصْوافَ المَأخُوذَةَ مِنْ عشراتِ الآلافِ مِنْ خرافِ القطعانِ المَوجُودَةِ في كلِّ مكانٍ مِنْ هذِهِ المُقاطَعَةِ؛ وهوَ ذاتُهُ الذِي يُقالُ عَنْ عدَّةِ أنهارٍ أخرَى شبيهَةٍ تجري بينَ الجبالِ.

إنَّ موقعَ ديربنت شاهقٌ جدَّاً، والبيوتُ مبنيَّةٌ بالحجارَةِ وهِيَ متقارِبَةٌ فيما بينَها، وتتجمَّعُ الأشجارُ الخضْراءُ الجميلَةُ أعلى حافَّةِ النَّهرِ، وتتوزَّعُ حقولُ القمحِ أدنَى القريةِ، أمَّا الجبالُ الصَّخرِيَّةُ الجانبِيَّةُ فقدْ غُطِّيَتْ في هذا الوقتِ

(1) للمزيد من التّفاصيل التّاريخيّة ـ التّحليليّة عن محمّد باشا كورمير (الزّاوندوزيّ) ودوره السلبيّ المؤثّر في الأحداث السّياسيّة المهمّة لعراق القرن التّاسع عشر، انظر بالألمانيّة الأطروحة الأكاديميّة الرّصينة: (دكتوراه) عن جامعة هامبورغ بألمانيا:

Jemal – eddin Nebez, aus Sulaimani, Kurdistan Der Kurdische Furst Mer Muhammad – I Rawandizi genannt Mir-I kora irn Spiegel der Morgenlandischen und Abendlandischen Zengnisse (Ein Beitag Zur Kurdischen Geschichte); Dissertation Zur Universitat Hamburg, 1970.

وتحتفظ بهذه الأطروحة مكتبة الجامعة.

(2) لم أجد لها أي وجود اليوم، وربما يسعفني بالمعلومات عنها من يملك ذلك.

مِنَ السَّنَةِ بطبقَةٍ ثخينَةٍ مِنَ الطَّحالبِ التِي نادراً ما «كنَّا نراها» في إيرانَ، ومِنَ المُحتَمَلِ أنَّ نموَّها بسببِ حالةِ الرُّطوبَةِ التِي يتمتَّعُ بها الهواءُ في هذِهِ المنطقَةِ ـ على حدِّ قولِ «بيركنسَ».

انحدرَتْ القافلَةُ بعضَاً مِنَ الأميالِ تحتَ (ديربنت) وكانَ طريقُها صَخرِيَّاً وعراً إلى أنْ يصِلَ إلى وادٍ ضَيِّقٍ تقومُ عِنْدَهُ قريةُ (ميميحال ـ memehall) [1] وقدْ تحدَّثَ إلى «بيركنسَ» بعضُ مِنَ المسافرِينَ الأكرادِ الذِينَ مرُّوا بِهِ عَنْ الجيشِ التُّركِيِّ الجرَّارِ الذِي كانَ محتشداً عِنْدَ «راوندوز» وبالفعلِ فقدْ علمُوا عِنْدَ وصُولِهم هذِهِ المدينةَ أنَّ ألفَ جنديٍّ جاؤوا مِنَ المركزِ بغدادَ إلى المنطقَةِ المجاورَةِ لـ (خوى ـ Khoy)[2] ليقُومُوا بعمليَّاتٍ تأديبِيَّةٍ للخارجِينَ عَنْ القانونِ، والذِينَ جاؤوا إلى إيرانَ بعدَ تقدُّمِ الجيشِ التَّركِيِّ الذِي كانَ يحتوِي على الآلافِ مِنَ الجنودِ النِّظامِيِّينَ، وقدْ اهتاجَ مِنْهُم أولئكَ القرويُّونَ الأكرادُ الذِينَ أعلمُوا «بيركنسَ» بخطورَةِ المَوقِفِ.[3]

كانَتْ القافلَةُ قدْ نصَبَتْ خيامَها في الَّليلَةِ الماضِيَةِ على بعدِ نصْفِ ميلٍ مِنْ قريةِ (ميمحال) حيثُ برارِي كردستانَ الموحشَةُ، ولكنَّ أصْحابَنا كانُوا مطمئنِّينَ في نومِهِم مِنْ دونِ حاجةٍ إلى مُراقَبَةِ المَوقِفِ أو خشيَةٍ مِنْ أحدٍ، وتبدَّدَ قبلَ رقادِهِم كلُّ ما علقَ بهِم مِنْ وعثاءِ السَّفرِ وأتعابِهِ، ويعودُ السَّببُ في هذا كلِّهِ إلى وجودِ حكومَةٍ فاعلَةٍ على العكسِ ممَّا عليهِ الحالُ في إيرانَ، فخلالَ خمسةَ عشَرَ عاماً لمْ يستطعْ أحدٌ مِنَ الأوربِّيِّينَ الاحتكاكَ بهذا

(1) كذلك لم أجد اليوم اسم قرية مثل هذه!.

(2) تعدّ (خوي = Khoy) من المراكز الاستراتيجيّة الشّهيرة التي قامت بدور مهمّ في التّجمّعات العسكريّة في أحقاب متلاحقة وعديدة من التّاريخ. كما إنّ لها أهمّيّتها البارزة كحلقة وصل لخطوط التّجارة الشّرقيّة، انظر:
The New Encyciopeadia Britannica, vol. v, London, 1974, p. 796.

(3) The Letter no. 10, dated 04/ 05/ 1849 JAOS, op. cit., pp. 6- 82.

الإقليم، أمَّا الآنَ فقدْ أثمرَتْ الجهودُ المُكثَّفَةُ لكلٍّ مِنَ الأتراكِ (العثمانِيِّينَ) والإيرانِيِّينَ في إزالةِ تلكَ الرَّهبَةِ التِي كانَ قدْ زرعَها (كورمير محمَّدُ) وعادَ الأمنُ والاستقرارُ إلى ربوعِ هذِهِ الجبالِ.

واصَلَتْ الرَّحلَةُ طريقَها غرباً لِمَا يقربُ مِنْ ثلاثِينَ ميلاً، متَّبعَةً في نزولِها نهرَ (رواندوز) وذلكَ مِنْ خلالِ طريقٍ صخرِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ يبلغُ طولُ قاعدتِها نحواً مِنْ مئةِ قَدَم، ولها ارتفاعٌ شاهقٌ على جانبِها الآخرِ يعلُوهُ بمئاتِ الأقدام، أمَّا الجبالُ هنا فقدْ لبسَتْ سفوحُها أشجارَ البلُّوطِ، وكُسيَتْ الأرضُ بالمَروجِ المُلوَّنَةِ الجميلَةِ التِي تتماوجُ على حافَّةِ النَّهرِ، أمَّا أشجارُ الصَّنوبرِ الكثيفَةُ، فإنَّها تنتشرُ على مدِّ البصَرِ؛ وهِيَ التِي نادراً ما تُوجدُ في الجبالِ الإيرانِيَّةِ، تلكَ الجبالُ التِي وصَفَها «بيركنسُ» بالجبالِ «الصَّحراوِيَّةِ».

وتابَعُوا سيرَهُم بعدَ أنْ انحدَرُوا غرباً بموازاةِ هذا النَّهرِ المتدفِّقِ لنحوٍ مِنْ أربعةِ أميالٍ، ثمَّ عبرُوا جدولَ ماءٍ بوساطةِ جسرٍ خشبِيٍّ، وانحرَفُوا نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ مِنَ الضِّفَّةِ، ومرُّوا بثلاثِ قرىً تُدعى على التَّوالي (جومان ـ Choman) و (ريزان ـ Rizan) ثمَّ (عمرافا ـ Omarava). وتحيطُ بهذِهِ القرى أشجارُ الفواكِهِ ومزارعُ القمحِ، ثمَّ عبَرُوا عِنْدَ القريةِ الأخيرَةِ إلى الجانبِ الآخرِ مِنَ النَّهرِ، وأخذُوا بالصُّعودِ إلى قمَّةِ الجبلِ العاليَةِ المَكسوَّةِ بغابةٍ كثيفَةٍ مِنَ البلُّوطِ، حتَّى وصَلُوا قريةَ (جاماركين ـ Chamarkin) للشَّبيهَةِ بتلكَ التِي مرُّوا بها سابقاً، ووصَلُوا مِنْهَا إلى قريةِ (ديركالا ـ De gala) وهِيَ قلعةٌ قويَّةٌ وكبيرَةٌ، يقطنُها اليهودُ، وقدْ هرعَ العديدُ مِنَ الأطفالِ راكضِينَ إلى الطَّريقِ ليرَوْا مَوكِبَنَا، وخاطَبُوا «بيركنسَ» بالسُّريانِيَّةِ ـ كما يذكرُ ـ التِي تُعدُّ لغتَهَم المحلِّيَةَ؛ وبدأَتْ السَّماءُ تمطِرُ مطراً ثقيلاً على طولِ الطَّريقِ، فسبَّبَ للرَّحلَةِ مصَاعبَ جمَّةً.

ثمَّ يقدِّمُ «بيركنسُ» بعدَ صُعودِهِ مئاتٍ بل آلافَ الأقدامِ منذُ دخولِهِ منطقَةَ الرُّعبِ التُّركِيِّ ـ كما يسمِّيها ـ يقدِّمُ وصْفاً لغلالِ أشجارِ (العفص)

وكيفِيَّةَ جمعِهِ مِنْ قِبَلِ سكَّانِ تلكَ الجبالِ رجالاً ونساءً وأطفالاً، وذلكَ خلالَ المَوْسِمِ المُحدَّدِ مِنْ كلِّ سنَةٍ.[1]

تلألأَ بريقُ الشَّمسِ، وانتشرَ على تلكَ البقاعِ صَباحَ يوم 6 مايو / أيَّارَ، وانحدرَ الرَّكبُ مِنَ القريةِ نحوَ مركزِ الوادِي، والتَقَوا مرَّةً أخرَى مَعَ نهرِ (راوندوز) وقدْ قطعُوا خلالَ ذلكَ خمسَةَ أو ستَّةَ أميالٍ، واقترَبُوا مِنْ مدينةِ (رواندوز)[2] بعدَ مصَادفتِهِم لبعضٍ مِنَ المتاعبِ في الطَّريقِ، إذْ انكسرَتْ (العجلةُ) بسببِ الأمطارِ.

٤ـ راوندوزُ[3]

هِيَ المدينةُ التِي توضَّحَتْ حالتُها مِنْ ثنيَّاتِ ذلكَ الوادِي المنخفضِ،

(1) The Letter No. 11, dated 05/ 05/ 1849; ibid., pp. 9-86.

(2) The Letter No. 12, dated 06/ 05/ 1849; ibid., pp. 89-90.

(3) مدينة راوندوز. هي مدينة قديمة تمتاز بموقعها الاستراتيجيّ الفريد. كانت مركزا يجمع خطوط المواصلات التّجاريّة التي تربط الموصل باشنو نحو أذربيجان. وراوندوز، هي المدينة القلعة التي شهدت على مقربة منها انتصارات الرّوم على الفرس سنة 627م. ولهذه المدينة مكانتها في العصور العراقيّة الحديثة، إذ كانت تعدّ أحد المراكز العسكريّة ـ الاستراتيجيّة للجيوش العثمانيّة ضدّ الفرس. واسمها (روان) ولفظ (دز) في اللّغة الفارسيّة القديمة معناه «القلعة». وتسكنها عشيرة الرّاونديّ التي اختلطت بها عشائر أخرى. راجع عنها: (محمّد أمين زكيّ، تاريخ الكرد والكردستان، القاهرة، 1936، ترجمه عن الكردية: محمّد عليّ عوني، ص393. أمّا الأصل، فقد طبع ببغداد عام 1931م).
وللمزيد من التّفاصيل الطّبوغرافيّة والمعلومات الاجتماعيّة والأنثروبولوجيّة عن راوندوز، انظر:

A.M. Hamilton, Road Through Kurdistan: The Narrative of an Engineer in Iraq, with a foreward by Major-General Row An – Robinson, London, (n.d.), pp. 9- 270.

وقدْ ذُكِرَ لصَاحبِ الرَّحلَةِ أنَّها حارَّةٌ وغيرُ مريحَةٍ، ولكنَّها بلدَةٌ صحِّيَّةٌ، ويبلغُ عددُ سكَّانِها ألفاً وخمسَ مئةِ عائلَةٍ كردِّيةٍ، فيهم ثمانُونَ عائلَةً يهوديَّةً، إضَافةً إلى وجودِ يهودٍ آخرِينَ أيضَاً في عددٍ مِنَ القرَى المجاورَةِ، وهناكَ قريةٌ صَغيرَةٌ تُدعى (بابال ـ Papal) يسكنُها "النَّساطرةُ" ويتكلَّمُ اليهودُ اللُّغةَ السُّريانِيَّةَ. وعبثاً حاولَ "بيركنسُ" أنْ يحرزَ عيِّنَةً مِنْ منطقِهِم، إذْ يقولُ: إنَّ نزعتَهُم إلى الشَّكِّ القديمِ الذِي مَرَدُّهُ إلى حاخامِهِم، لن تجعلَهُم يتقبَّلُونَ حتَّى الكتابةَ لَمِنْ يملي عليهِم فصْلاً مِنْ فصُولِ العهدِ الجديدِ (الإنجيلِ).[1]

(1) عاش يهود العراق أكثر من 2500 سنة في بلاد ما بين النّهرين ، وتعايشوا مع العراقيّين يوما بعد آخر، وغدوا عراقيّين مع مرور الزّمن، وكانوا قد أسهموا في التّطوير الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثّقافيّ. ويعدّ يهود كردستان جزءا من يهود العراق، لأنّ أصلهم واحد، ولكنّهم تميّزوا منذ نفيهم من قبل الملك بختنصر واستقرارهم في شمال بلاد الرّافدين. ويعدّ يهود كردستان من أقدم التّجمّعات اليهوديّة في العالم خارج فلسطين ومن أكثر المجموعات البشريّة انعزالاً من النّاحية الأنثروبولوجية، حيث تميّزوا بالطّقوس الخاصّة بهم، وهي مختلفة تماما عن طقوس بقيّة اليهود في مناطق أخرى من العالم. ويعدّ وجود اليهود في إقليم كردستان لأوّل مرّة تاريخيّا بعد التّرحيل الإجباريّ لهم والنّفي الذي صدر بحقّهم من قبل (الآشوريّين) وخصوصا من مملكتيهم المندثرتين (يهودا وإسرائيل) ويرى «هه لويست» أنّ يهود كردستان لهم خصوصيّتهم من خلال ما تمتّعوا به من صفات خاصّة تميّزهم عن بقيّة يهود العالم حيث كانوا حتّى زمن متأخّر متمسّكين بعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم الذي ورثوه عن أسلافهم الذين عاشوا على أرض كردستان جنبا إلى جنب مع الأكراد منذ مئات السّنين، إذ تعايشوا معا تعايشا سلميّا، وقام اليهود بالعديد من الأعمال الدّينيّة وخدم ابنهم صموئيل حاخاما في مدينة الموصل، وقد عُدّ أبا روحيّا لإسرائيل في وقت من الأوقات، وقد بقي عدد من اليهود العراقيّين في كردستان بعد هجرة الباقين من العراق عام 1948، وتأسّست منظّمة للعلاقات الكرديّة الإسرائيليّة باسم (يديدوت) عام 1993. وكان مركزهم الحقيقيّ في مدينة الموصل، وكانت لهم أضرحتهم في مناطق متعدّدة، أمّا أعمالهم ومهنهم، فقد عملوا بالزّراعة والتّجارة وكذلك في أعمال يدويّة، وقد كانت أحياء اليهود داخل أحياء المسلمين. وقد أدّت هجرتهم إلى فلسطين منذ أربعينيّات القرن العشرين إلى اختفاء اليهود من الموصل وكردستان تقريبا، وأصبح عددهم قليلا جدّا، واختفى أيّ أثر لشعب عاش على أرض ميزوبوتاميا لآلاف السّنين مع بقيّة أبناء الأديان والطّوائف الأخرى. انظر:

تمركزَ في «رواندوز» أربعُ مئةِ جندِيٍّ تركِيٍّ (عثمانِيٌّ) ليساعدُوا في حكمِ هذِهِ المدينَةِ وإقليمِها؛ وكانَتْ البيوتُ هنا مَبنِيَّةً على درجاتٍ، إضَافةً إلى الأسطحِ المتدرِّجَةِ التي يعلُو الواحدُ مِنْهَا الآخرَ.

هذا إذنْ شكلُ (راوندوز) الاسمُ الذِي كانَ يقلقُ تلكَ الأقاليمَ الإيرانِيَّةَ التِي مرَّتْ بها الرَّحلَةُ لأوَّلِ مرَّةٍ، وهِيَ بالذَّاتِ مكانُ (محمَّد باشا) أو (كورمير) كما كانَ يُدعى عشائرِيًّا[1] والذِي كانَ لدَيْهِ عشرونَ ألفاً مِنَ الأتباعِ البدائيِّينَ ـ على حدِّ قولِ بيركنسَ – وقدْ قُهِرَ كورميرُ في نهايةِ الأمرِ سنةَ (1836م) بسببِ الجهودِ المُكثَّفَةِ لكلٍّ مِنَ الجيشَيْنِ التُّركِيِّ (العثمانِيِّ) والإيرانِيِّ.

ويتابعُ «بيركنسُ» قولَهُ فيصِفُ كورميرَ بأنَّهُ: رجلُ دم، ويُروَى عَنْهُ مثلاً أنَّهُ في إحدَى المرَّاتِ كانَ هاجعاً يغطُّ في نومِهِ صَيفاًعلى سطحِ قلعتِهِ المتغطرسَةِ العالِيَةِ؛ فأزعجَهُ بكاءُ طفلتِهِ اليافعَةِ التِي كانَتْ مضْطجعَةً في المهدِ بجانبِهِ، فنهضَ حانقاً، وأخذَ الطِّفلَةَ بيدِهِ فقذفَها في النَّهرِ الهادرِ في أعماقِ الوادِي السَّحيقِ، وذاعَ صِيتُ توحُّشِهِ بينَ بنِي قومِهِ الذِينَ ظلُّوا يذكرُونَ هذِهِ المَأساةَ المريرَةَ.[2]

هه لويست عمر قادر، يهود كردستان ، ط1 (أربيل : مؤسّسة حمديّ للطّباعة والنّشر، 2009).

(1) يصف المؤرّخ البريطانّي «لونكربك» القسوة التي اتّصف بها محمّد باشا كورمير بـ «القسوة العادلة» على حدّ تعبيره، من دون أن يلتفت ليدرس مليّا الفضائح التي اقترفها. انظر: S.H. Longrigg, op. cit., pp. 6-285. وللاستزادة عن شخصيّة "كورمير" وسياسته القبليّة والمحلّيّة، انظر الفصلين الأوّل والثاني من أطروحة جمال الدّين السّليمانيّ المذكورة آنفا.

(2) إمارة سوران: تأسست إمارة سوران الكرديّة على تخوم شمال شرق كردستان العراق، وعاصمتها رواندوز التي تفصل كردستان العراق عن كردستان إيران، وقد نزح الأكراد من هذه البوّابة الاستراتيجيّة على مرّ القرون باتّجاه الشّمال والغرب، وهي التي دخل منها «جوستن بيركنس» في رحلته. ولقد ارتبط اسم هذه الإمارة باسم (محمّد باشا الرّواندوزيّ) الذي اشتهر بـ (مير

نجحَ «رسولُ باشا» أخو «كورميرَ» مُؤخَّراً في إدارةِ حكومةِ راوندوزَ،

كور) (أي: الأمير الأعور) وكان العثمانيّون قد منحوه لقب «باشا» لقاء خدماته التي قدّمها لهم قبل أن يتمرّد عليهم، ومن هنا بات يُعرف بـ (محمّد باشا مير كور).

ولد في رواندوز عام (1783م) وتولّى شؤون الإمارة عام (1813م) وكان شابّا، وهيمن على الحياة العامّة في شمال العراق، لمدة تزيد على العشر سنين. وكتب عنه المبشّر «لوري توماس» وكان معاصرا له: عرف عنه تعصّبه الدّينيّ، واعتاد قلع أعين معارضيه، وإن يديه ملطخة بدماء المسيحيّين، أمّا عن صعوده إلى قمّة السّلطة والسّيطرة، فقد كان دمويّا مرعبا، فمنذ استلامه الحكم، قتل أقرب المقرّبين إليه، فجهّز حملة على اثنين من أعمامه فقتلهما! وجهّز حملات الإبادة ضدّ معارضيه من جيرانه الأكراد، ومن بين من فتك بهم زعيم قبيلة الخوشناو المجاورة لرواندوز؛ وتميّز محمّد كورمير بطموحه إلى توسيع حدود إمارته التّقليديّة باتّجاه منطقة الجزيرة الفراتيّة، حيث تمتد مناطق السّريان واليزيديّة والعشائر العربيّة والتّركمانيّة، وقد حصّن قلعة راوندوز وبنى فيها المتاريس الحربيّة ونظّم جيشه الذي بلغ حسب مختلف المصادر أكثر من ثلاثين ألفا، وسكّ النّقود باسمه، واتّصل سرّا بخصوم العثمانيّين.

ثمّ شكّل جيشا منظّما بلغ تعداد أفراده من المشاة والفرسان نحوا من خمسين ألفا، ورغب بتوسيع إمارته وبناء حكومة قويّة، فقام بشنّ هجوم على مناطق الموصل وبهدينان، وبعد معارك قصيرة استطاع إخضاع ولايات أكري، وأميدي، وماردين، وجزيرة ابن عمر، وأوصل حدود إمارته حتّى الحدود السّوريّة، وارتبطت إمارته بحدود مشتركة مع ايران، بينما ضيّق الخناق على بغداد من الوسط؛ وتشير بعض من المصادر إلى أنّ علاقة سياسيّة ربطته بإيران الخصم اللدود للعثمانيّين.

أعلن محمّد كورمير سنة (1826م) تمرّده على «الباب العالي» وكانت الدّولة العثمانيّة تعيش ظروفا صعبة مع أطراف عدّة، فتمهّلت قليلا في تأديبها أمير سوران الذي طغى وتجبّر وأقام علاقات مع أعداء الدّولة العثمانيّة وخصومها، وبدأ بشن ضربات قاسية ضدّ السّريان المسيحيّين وكذلك ضدّ اليزيديّين الذين اتّهمهم بعبادة الشّيطان كي يبرّر عمليّات القتل والتّطهير العرقيّ التي قام بشنّها ضدّهم لاحقا. وبسبب ذلك خشي الجميع سطوته، وتحوّلت إمارته إلى مركز استقطاب لأكراد فارس، وبسط سيطرته في عمق مناطق العراقيّين من السّريان واليزيديّين والعرب وحتّى التّركمان. وباشر أمير سوران مذابحه وحملاته سنة (1831 ـ 1832) ولم يتدخّل العثمانيّون لإيقافه بسبب انشغالهم بالحروب. وقد استمرّت عمليّاته الدّمويّة والمرعبة، فكانت بلدة «القوش» العريقة في شمال العراق بالقرب من مدينة الموصل أولى ضحاياه، وأخضع منطقتي حدياب وأربيل ذواتي الكثافة التّركمانيّة

إلَّا أنَّ (العشمانِيِّينَ) التُّركَ وجدُوا أنَّ ثقتَهُم بِهِ كانَتْ في غيرِ مَوضِعِها؛ وكانَ

والسّريانيّة والكلدانيّة والآثوريّة، وبقي أمامه القضاء على القوّة اليزيديّة في أطراف الموصل وخصوصا في جبل سنجار الذي يعدّ معقلهم التّاريخيّ.
كان مير كور قد أعلن استقلال إمارته عام (1826م) وبدأ في توسيع رقعتها باتّجاه المناطق الغربيّة غير الكرديّة، فكان لابدّ من أن يصطدم بالعرب والسّريان واليزيديّة والآثوريّين المنتشرين في جبل سنجار وجبال هكاري وطور عبدين وصولا إلى ماردين، وبدأ بالفعل بين أعوام (1831 ـ 1836م) جملة من حملات القتل والفتك والإبادة للسّكّان المحلّيّين وإهراق دمائهم وإحراق قراهم وألحق الدّمار والخراب بمنطقة الشّيخان وسهل نينوى.
ويذكر لايارد أنّه قتل من اليزيديّين ما يناهز ثلاثة أرباع سكّان الجبل، وكان يرمي إلى التّخلص من أمير اليزيديّة صاحب النّفوذ الواسع (عليّ بيك) فاتبع أسلوب الخيانة وسياسة المواربة، فكان أن لبّى الأمير اليزيديّ عليّ بيك الدّعوة التي تلقّاها من غريمه كورمير لزيارة عاصمته رواندوز من أجل التّشاور، ولكنّ المفاوضات فشلت بين الاثنين، ولمّا عاد عليّ بيك، فتك به رجال كورمير وقتلوه في الطّريق.
بدأ كورمير حملته الدّمويّة ضدّ السّريان والكلدان في مناطق القوش وتلّ سقف وتلّ كيف وكلّ القرى المجاورة للموصل بتاريخ 15 آذار / مارس 1832م، وعاث فسادا بدير مار هرمزد القريب من القوش وقتل رهبانه. وأعاد ارتكاب جرائمه مرّة أخرى وممارساته في القتل والنّهب عام (1833م) فاستولى هذه المرّة على كلّ من قصبتي عقرة والعماديّة، ومن أجل أن يضمن دوام حكمه، نصّب أخاه «رسول» حاكما عليها. وكان حكم المماليك قد سقط ببغداد عام (1831م) في حين سقط الحكم الجليليّ في الموصل عام (1834م) وذهبت كلّ من قوّة بغداد المركزيّة وقوّة الموصل المحلّيّة، وازداد عبثه واضطهاداته الدّمويّة و«بلغ عدد القتلى من الرّجال فقط ثلاث مئة وسبعين رجلا عدا الأطفال والفتيات، وقتل سبعة كهنة من القوش، وثلاث راهبات، ورئيس الدير». «وفي غضون ستّ سنين أو أكثر (1826–1832م) كان محمّد باشا أمير رواندوز المعروف بمير كور يعيث فسادا في الأقطار الشّماليّة العراقيّة وقد قتل عددا كبيرا من المسيحيين، ثم أقبل إلى القوش وحاصرها وأباد من سكّانها خلقا كثيرا».
ويجمع كلّ المؤرّخين وشهود العيان على أنّ كورمير قد تحوّل فعلا إلى كائن متوحّش فوضويّ هائج يتلذّذ بالدّماء ويبحث دائما عن طرائد بشريّة لسفك دمها، فبعد كلّ حملات القتل الفظيعة وعمليّاته الوحشيّة التي أوقعها بالسّريان واليزيديّين في شمال العراق الحاليّ، وجّه فلوله صوب أعالي الجزير ة الفراتيّة لقمع السّكّان السّريان، وقام بتخريب قرى طور عبدين السّريانيّة المناضلة وكسر شوكة بلدة أزخ (بازبدا) الصّامدة، وقتل في تلك المرحلة العصيبة

على مدَى ثلاثِ سنينَ مضَتْ مُجبَرَاً على تفادِي العصْيانِ، وذلكَ قبلَ زحفِ

مطران أزخ مار عبد النّور من قبل جماعات كرديّة مسلّحة، وقد تكبّد السّريان الأبرياء خسائر كبرى في الأرواح والممتلكات، وهي لا تعدّ ولا تحصى، ونجح ميركور زعيم رواندوز في رسم أبشع الصّور الفظيعة وإنجاز أسوأ الأحداث المؤلمة التي بقيت مغروسة في الذّاكرة الشّعبيّة السّريانيّة، والتي عبّر عنها شعراؤهم في قصائدهم الحزينة، وعبّروا في رواياتهم الأليمة عن مدى الحزن الرّاسخ في نفوسهم بكلّ جراحاتها الدّمويّة وما مورس من قسوة في قتل الرّجال وسبي النّساء وتشريد الأطفال.

ولقد تفاقمت الأوضاع المزرية لأولئك السّكّان الآمنين على عهد مير كور عقب انتشار القهر والمذابح في كلّ مكان، فكان أن تقلّصت فرص التّعايش المشترك فيما بين مختلف الشّرائح الاجتماعيّة في أعالي ما بين النّهرين. وكان ميركور قد علا شأنه بين بني قومه بعد بسط نفوذه على مناطق واسعة باستثناء كلّ من الموصل لكونها مركز الولاية، والسّليمانيّة، وكانت أخبار العنف تصل إلى العواصم الأوربيّة من خلال القناصل المنتشرين في العراق، وخصوصاً في الموصل؛ فأمر السّلطان محمود الثّاني (1808 ـ 1839م) بإرسال حملة عثمانيّة عسكريّة سنة (1836م) بقيادة رشيد باشا، كي يضع حدّا لتمرّد أكراد سوران والقضاء على كورمير ومظالمه، فضيّقوا الخناق عليه، ولم يستطع المقاومة، فسلّم نفسه للعثمانيّين في آب / أغسطس 1836م. ومثل أمام السّلطان ليقدم له الطّاعة والولاء ولكنّه قُتل عقب مكيدة عام (1837م) فانطوى ذكره، وبقيت الرّوايات التّاريخيّة عنه متداولة بين النّاس، كما ألقت نتائج تلك التّجربة القاسية الصّعبة ظلالها فيما بعد على المنطقة التي تكاد تكون قد أفرغت من سكّانها المتنوّعين بعد قتلهم أو تهجيرهم أو تشريدهم في مناطق أخرى بعيداً عن الجحيم. راجع:

القس سليمان صائغ «تاريخ الموصل» (3 أجزاء) ج1 (القاهرة 1927م) ج 2 (بيروت 1928م) ج 2، ص266.

رفائيل بابو إسحاق «أحوال نصارى بغداد» (بغداد: مطبعة شفيق،1960) ص 51.

ستيفن هيمسلي لونكريك «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» ترجمة: جعفر الخيّاط (بيروت: دار الكشّاف، 1949).

باسيلي نيكيتين «الكرد» نقله من الفرنسيّة نوري طالبانيّ (لندن: دار السّاقي 2001م).

هرمز أبّونا «الآشوريّون بعد سقوط نينوى» المجلّد الخامس (شيكاغو 1999م) ص 308 ـ 309.

نبيل يونس دمان «الرّئاسة في بلدة القوش» (أميركا، 2001م) ص 19.

روفائيل بابو إسحاق، «تاريخ نصارى العراق، بغداد (1948م) ص 135.

الجيشِ التُّركِيِّ (العثمانِيِّ) إلى إيرانَ، ثمَّ بوساطةِ التَّدخُّلِ الإنكليزِيِّ، سُمِحَ لَهُ بالرُّجوعِ إلى بغدادَ وبقائِهِ فيها كشخصٍ عادِيٍّ.

إنَّ الحاكمَ الحاليَّ لرواندوزَ هوَ التُّركِيُّ (العثمانِيُّ) المخلصُ حاجِي محمَّدُ آغا، الذِي أخضَعَ هذا الإقليمَ المتطرِّفَ بفعالِيَةٍ بالغَةٍ، وتحوَّلَ الأكرادُ في سنينَ قليلَةٍ إلى قرويِّينَ هادِئِينَ ـ على حدِّ قولِ بيركنسَ ـ وُيذكرُ أنَّهُ مِنَ المستحيلِ أنْ يدخلَ أحدٌ مِنَ الأوروبِّيِّينَ هذِهِ الجبالَ مِنْ دونِ خطرٍ محدِقٍ وأكيدٍ يتعرَّضُ لَهُ. ثمَّ يوردُ أخباراً عَنْ كورميرَ، وحركاتِهِ الدَّمويَّةِ للقرَى المنتشرَةِ حولَ راوندوزَ وإخضَاعِهِ لـ (التَّيَّاريَّةِ ـ Tiyari)[1] كما بدَّدَ مِنْ دونِ رحمَةٍ القرَى النَّصْرانِيَّةَ، وحطَّمَ القريةَ البابويَّةَ الكبيرَةَ (القوشَ ـ Alqush).[2]

تهادَى مساءً في «راوندوز» على جانبٍ مِنْ مخيَّمِهِ صَوتُ الموسيقَى المارشالِيَّةِ الحربِيَّةِ، إذْ كانَ ينبعثُ رخيماً مِنْ ثكناتِ الجنودِ، ولقدْ استساغَ «بيركنسُ» هذا الصَّوتَ ـ كما يذكرُ ـ ونقلَتْهُ تلكَ المَقطوعاتُ الموسيقِيَّةُ التِي يعهدُها إلى ذكرَى وطنِهِ وأهلِهِ! ويتابعُ كلامَهُ بالقولِ: وهنا نتذكَّرُ أيضَاً طبيعةَ التَّكتيكِ الأوروبِّيِّ، وما جرَى مِنَ العمليَّاتِ على مدَى الثَّلاثِينَ

يوسف جبرائيل القس و إلياس هدايا، «آزخ: أحداث ورجال» (حلب: دار الرّها، 1991م).

(1) راجع عن جماعات «التّيّاريّة» بالتّفصيل في كتاب لايارد الشّهير:
H.A. Layard, Nineveh and its Remains, ed., intro., and nots: H.W.F. Saggs, London, 1970, p. 156.

(2) القوش: هي القرية النّصرانيّة التي وصفها المستر لايارد في كتابه آنف الذّكر (Jeffrey S.J.Klaiber loc.cit) وذكر أنّها تقطن من قبل الكلدانّيين الأقحاح الذين تحوّلوا إلى المذهب الكاثوليكيّ ـ الرّومانيّ، بموجب التحدار (تسلسل الموارث) العامّ للعرف الدّينيّ. وتحتوي القوش على معبد للنّبيّ ناحوم الألقوشيّ ـ كما يُدعى – والمكان مقدّس من قبل المسلمين والنّصارى واليهود، ويقع بالقرب منها دير الرّبّان هرمزد الذي يقوم على سفح جبلها. انظر
ibid., p. 185.

سنةً الأخيرَةَ في سبيلِ أنْ يستتبَّ الأمنُ ويزدهرَ التَّقدُّمُ الحضَاريُّ في تركيَّا (الدَّولةِ العثمانِيَّةِ) ولقدْ جعلتْنَا هذِهِ الأطرافُ الأكثرُ تطرُّفاً، نحسُّ بأنَّها ليسَتْ في مركزِ قلبِ الامبراطوريَّةِ؛ مَعَ إنكارِنا مِنْ طرفٍ آخرَ لإيمانِ الجيشِ وفاعليَّتِهِ وتنظيمِهِ بالنِّسبةِ إلى كلِّ ذلكَ.

نستمعُ لبيركنسَ في زيارتِهِ لمدينةِ (راوندوز) ووصْفِهِ لها كمَا يراها، فبيوتُها مبنيَّةٌ بصُورَةٍ مُجزَّأةٍ مِنْ قطعِ الصَّخرِ والآجرِّ الذِي يُصْنعُ مِنَ الطِّينِ المَمزوجِ مَعَ كمِّيَّةٍ كبيرَةٍ مِنَ التِّبنِ على الأسلوبِ المصْرِيِّ القديمِ،[1] والشَّوارعُ ضَيِّقَةٌ، ومتعرِّجَةٌ، وملتويَةٌ؛ وقذرَةٌ، وفي الأسواقِ بعضٌ مِنْ تجَّارِ المَوْصِلِ الصِّغارِ، غيرَ أنَّ عددَهُم هنا أكثرُ بصُورَةٍ واضِحَةٍ.

وقدْ دُعِيَ «بيركنسُ» مِنْ قِبَلِ حاكمِ الإقليمِ الذِي وصَفَهُ بذلِكَ الرَّجلِ البغدادِيِّ الذَّكِيِّ الذِي يتمتَّعُ برقَّةٍ عاليَةٍ والذِي انسجمَ مَعَهُ، واهتمَّ بِهِ، وأنَّهُ وجَّهَ رسالةً بصَدَدِهِ لتكونَ عوناً لَهُ ولجماعتِهِ في تذليلِ ما قدْ يعترضُهُم في الطَّريقِ. يقولُ «بيركنسُ» في ذلكَ: وقدْ هنَّأناهُ على خطَطِهِ، وتقدُّمِهِ في إقليمِ كردستانَ، وأفصحَ لنا عَنْ أملِهِ في أنْ يبقِيَ التَّغيُّراتِ الأعظمَ، ويطوِّرَها نحوَ الأحسنِ دوماً.

ويذكرُ «بيركنسُ» أنَّهُ صَادفَ أحدَ التُّجَّارِ الأكرادِ في «راوندوز» اسمُهُ محمَّدُ أمينُ آغا، وصَفَهُ بالرَّجلِ المحبِّ والذَّكِيِّ، والذِي كانَ زارَ استانبولَ وتبريزَ ومدناً أخرَى؛ ولمْ يستطعْ «بيركنسُ» أنْ يقنعَ نفسَهُ بكيفَ أنَّ رجلاً متحضِّراً مثلَ هذا يعيشُ في جبالٍ موحشَةٍ مثلِ هذِهِ! ويستطردُ قائلاً: إنَّ هذا الرَّجلَ كانَ ثائراً في إطرائِهِ للتَّغييرِ مِنَ الكردِيَّةِ إلى الحكمِ التُّركِيِّ العثمانِيِّ مَعَ أنَّهُ كردِيُّ المنبتِ، وهوَ نفسُهُ الذِي كانَ قدْ صَاحبَ «كورمير» في مُحاولاتِ

(1) إنّ هذا الأسلوب الكلاسيكيّ في البناء، إنّما يرجع إلى العصور العراقيّة الغابرة والسّحيقة في القدم. وهو الأسلوب الذي تمثلته طُرُزُ البناء المتنوّعة عند البابليّين والآشوريّين، انظر التّفاصيل: Jastrow, op, cit., p. 216.

اعتداءاتِهِ غيرِ النَّاجحَةِ على مناطقَ عديدَةٍ.[1]

٥ـ وتبدأ الرَّحلَةُ مِنْ جديدٍ

تبدأ في 8 مايو / أيَّارَ الرَّحلةُ مِنْ جديدٍ في طرقٍ ملتويَةٍ صَعبَةٍ، فقدْ كانَ تقدُّمُهُم ضَئيلاً نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ مِنْ راوندوزَ، وقدْ عبرُوا جسراً يقومُ على نهرِ المدينَةِ التِي حَمَلَ «بيركنسُ» بيدِهِ توصِيَةً مِنْ حاكمِها القديرِ للقرَى التِي سوفَ يمرُّ بها. إضَافةً إلى ذلكَ، فقدْ انتدبَ هذا الحاكمُ للقافلَةِ بعضَاً مِنَ الحرَّاسِ ليكُونُوا عيناً ساهرَةً لأجلِها حتَّى آخرِ الَّليلِ. وعادَ «بيركنسُ» ليصِفَ لنا المكانَ الذِي يمرُّ بِهِ، وذلكَ النَّهرَ وحافَّاتِهِ الصَّخريَّةَ، ومجراهُ واتِّجاهَهُ نحوَ اليمينِ مِنْ ممرٍّ ضَيِّقٍ[2] تتعلَّقُ فوقَهُ قلعةُ الحكَّامِ الجاثمَةُ على ضِفَّتِهِ الصَّخريَّةِ التِي يُقدَّرُ ارتفاعُها بمئةٍ وخمسينَ قدَماً؛ وقدْ صَاحبَ «بيركنسَ» خارجَ المدينَةِ تجَّارُ المَوْصِلِ، حيثُ يذكرُ مستطرداً: إنَّ هؤلاءِ التُّجَّارَ إضَافَةً إلى مصَاحبَتِهِم لنا، فإنَّهُم أطلَعُونا على بعضٍ مِنَ الأمورِ، وأرشَدُونا، واهتَمُّوا بنا، ورافقَ ذلكَ مزيدٌ مِنَ الكياسةِ واللُّطفِ الشَّرقِيِّ الأصِيلِ.

تمتازُ حكومَةُ هذا الإقليمِ التِي تديرُها باشويَّةُ بغدادَ[3] بقدرتِها، وضَبطِها، وفاعليَّتِها على جميعِ الأطرافِ ـ على حدِّ تعبيرِهِ – وكيفَ استطاعَتْ في وقتٍ قصِيرٍ أنْ تجعلَ السَّعادَةَ تغمرُ جميعَ الطَّبقاتِ والمِللِ التِي تتعايشُ جنباً إلى جنبٍ، موظِّفَةً اليهودَ والأكرادَ في الدَّوائرِ الحكوميَّةِ، وخصُوصَاً في دوائرِ

(1) The Letter No. 13, dated 07/ 05/ 1849; Jaos, op. cit., pp.90 -4.

(2) أظنّ أنّ هذا الممرّ الضّيّق الذي يقصده بيركنس هو الممرّ الشّهير الذي يُعرف اليوم بـ «مضيق كلي علي بيك» والواقع بالقرب من راوندوز.

(3) معنى ذلك أنّ نفوذ باشويّة الموصل قد تقلّص بعد زوال الحكم الجليليّ عنها، فارتبطت بباشويّة بغداد. وكانت كلّ من الباشويّتين ترتبطان بالنّظام العثمانيّ المركزيّ بعد زوال كلّ من الحكّام المماليك من بغداد عام (1831م) والزّعماء الجليليّين من الموصل عام (1834م).

الجمارِكِ، ولَكَمْ يُرَى الأطفالُ لدَى هذا المُجتمَعِ سعداءَ أكثرَ بكثيرٍ مِنْ أطفالِ إيرانَ، حيثُ يُرونَ لاعبِينَ فرحِينَ حتَّى ساعةٍ متأخِّرَةٍ مِنْ ساعاتِ المساءِ.

بعدَ أنْ غابَتْ أسوارُ راوندوزَ وبساتينُها المزهِرَةُ الجميلَةُ عَنْ عيونِ القافلَةِ، أخذَتْهُم تلكَ الطَّريقُ الجبلِيَّةُ العميقَةُ إلى منطقَةِ (زك زاك ـ Zig Zag) التِي تمتازُ بصُخُورِها الانكسارِيَّةِ البارزَةِ. أمَّا الطَّريقُ هنا، فإنَّها صَعبَةُ الاجتيازِ! وما يلفْتُ النَّظرَ حقَّاً هوَ تلكَ الأعدادُ الكثيرَةُ مِنَ الأشجارِ والشُّجَيْراتِ التِي تتوزَّعُ في كلِّ حدْبٍ وصَوْبٍ، ثمَّ جماعاتٌ مِنَ الأكرادِ التِي تتوزَّعُ في أماكنَ شتَّى، فقدْ كانُوا يتحرَّكُونَ مَعَ عائلاتِهم ومواشِيهِم مِنَ المناطقِ الدَّافئَةِ الأدنَى، تلكَ الأماكنِ التِي قضَوا فيها فصْلَ الشِّتاءِ، ثمَّ قَدِمُوا لينشُرُوا أنفسَهُم الآنَ فوقَ الجبالِ المتاخِمَةِ. وكانَتْ هذِهِ الجماعاتُ الكردِيَّةُ مِنَ (الهركيَّةِ ـ Harkis)[1] الذِينَ عادةً ما يتحوَّلُونَ شتاءً نحوَ أراضِي (باشويةِ المَوْصِلِ ـPashalik Mosul) ثمَّ ينتقلُونَ صِيْفاً إلى الجبالِ فوقَ (تركور ـ Tergawar[2]).

إنَّ المخاطرَ في العبورِ مِنْ قمَّةِ الجبلِ داخلَ الثَّغرَةِ الضَّيِّقَةِ كبيرَةٌ، حيثُ تعبرُ مِنْهَا العوائلُ الكردِيَّةُ مَعَ مواشِيهِم وأحمالِهم، وذلكَ بطريقَةٍ بارعَةٍ، إذْ يتخلَّلُونَ هذا الممرَّ الواحدَ باتِّجاهاتٍ متنوِّعَةٍ في آنٍ واحدٍ، ولكنْ كمْ هوَ

(1) الهركيّة من العشائر الكرديّة القديمة والشّهيرة، وقيل: سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى جدّهم (هيركي والد بكر) وقد توزّعت مساكنها ما بين أربيل والموصل والسّليمانيّة يرأسهم الشّيخ أسعد جانكير آغا جانكير، والشّيخ جوهر محي جانكير آغا.

(2) تركور: كانت تشغل مركز إمارة تحت أيدي عشيرة «برادوست» ولكنّها ضعفت فتلاشى شأنها، ونقص عدد سكّانها. انظر: محمّد أمين زكيّ، المرجع السّابق، ص 392–393. أمّا بخصوص العائلة الكرديّة ومواصفاتها، فقد كتب ثوماس بويس فصلا كاملاً عنها. انظر:

Thomas Bois, Connassance does Kurdes, Beyrouth khayats, 1962, chap. No. 7.

الخطرُ المحدقُ مِنَ العلوِ الشَّاهقِ نحوَ الوادِي السَّحيقِ؟!.

يصِلُ «بيركنسُ» هاويةَ (خليفان ـ Khalifan)[1] التِي يتسلَّلُ حجمُها المنجرِفُ العظيمُ مِنَ الطَّرفِ الجنوبِيِّ الغربِيِّ متخلِّلاً الأعمالَ المَثْنِيَّةَ مَعَ ضِفافٍ شبيهَةٍ بتلكَ التِي رآها هذا الرَّحَّالةُ عِنْدَ نهرِ راوندوزَ؛ وينعطفُ الطَّرِيقُ الآنَ نحوَ جرفٍ مَفتُوحٍ نحوَ الجنوبِ، ويأخذُ القافلَةَ ليوصِلَها إلى الحافَّةِ المقابلَةِ، فتصْبحُ جوانبُ الجبلِ على اليدِ الأخرَى، أمَّا اتِّجاهُها فقدْ بدأ الآنَ معاكِساً تماماً، وكانَتْ اللَّواحقُ الأخرَى مِنَ الأقسامِ الدُّنْيا لهذِهِ الهاويَةِ مَكسُوَّةً بأشجارِ الجوزِ الثَّقيلَةِ، وشجيراتٍ خضْراءَ صَغيرَةٍ زاهِيَةٍ، أمَّا حوافُّ ذلكَ المجرَى فقدْ كانَتْ غنيَّةً بالحشائشِ والأعشابِ، وبقربِها تنسجُ الطَّحالِبُ أليافَها التِي تطفُو في مجاري المياهِ الصَّافِيَةِ. ويتجمَّعُ الأكرادُ بأعدادٍ كبيرَةٍ قربَ ضِفافِ هذا النَّهرِ، لكَيْ يرعُوا قطعانَهُم مِنَ الماشِيَةِ، وقدْ جلسُوا ليتنعَّمُوا بالظِّلِّ الباردِ.

وعبرَتْ القافلَةُ إلى الضِّفَّةِ الغربِيَّةِ مِنْ هذا الرَّافدِ بوساطةِ جسرٍ مَبنِيٍّ على دعاماتٍ حجرِيَّةٍ، وواصَلَتْ سيْرَها الهادِئَ لأكثرَ مِنْ ميلَيْنِ؛ بعدَ تركِها قريةَ (خليفان) التِي تبعدُ نصْفَ ميلٍ أعلى النَّهرِ، وهِيَ القريةُ الوحيدَةُ التِي رأتْها القافلَةُ في هذا اليومِ، وقدْ اكتملَ ممرُّ السِّلسلَةِ الجبلِيَّةِ العظيمَةِ.

وينقلُ «بيركنسُ» لنا بعضَاً مِنْ صُوَرِ الحياةِ الاجتماعِيَّةِ التِي رآها بنفسِهِ، فالعائلَةُ الكردِيَّةُ متماسكَةٌ فيما بينَها، ومترابطَةٌ في تكوينِها، يتَّصِفُ الرَّجلُ بصَلابَتِهِ وعنادِهِ، والمرأةُ بقوَّتِها ونظافَتِها؛ وأنَّها تحمِلُ مهدَ طفلِهَا الرَّضِيعِ على ظهرِها، وهِيَ تراقبُ بقيَّةَ أطفالِها الذِينَ مِنْ حولِها، وهُم يسيرُونَ مَعَهَا، ثمَّ ما أكثرَ الرَّعاةَ والفقراءَ في هذِهِ المناطقِ.

(1) لم تزل، ولها موقع استراتيجيّ مهمّ جدّا. وهي ناحية خليفان، إحدى النّواحي التّابعة لقضاء سوران في محافظة أربيل في العراق وتبعد مسافة (48) كم عن مدينة أربيل ومن قراها قرية ملكان.

خيَّمَ «بيركنسُ» ليلاً إلى الجنوبِ الغربيِّ مِنْ جبلٍ عالٍ، وقدْ تسلَّقَهُ ثلاثَةُ جنودٍ مِنْ راوندوز، ودخلُوا علينا ـ كما يذكرُ ـ ليقصُّوا لنا الرِّواياتِ المهمَّةَ عَنْ فرارِ كورميرُ وهروبِهِ مِنَ الطَّريقِ القريبَةِ منَّا، ومُلاحَقَةِ الجيشِ التُّركِيِّ (العثمانِيِّ) لَهُ. وكانَ الجنودُ بالتَّعبئَةِ العسكريَّةِ المُنظَّمَةِ ينتزعُونَ ـ على سبيلِ المثالِ ـ مدفعَهُم بوساطةِ الحبالِ، ثمَّ يحفرُونَ قليلاً في الثُّلوجِ المُتوَّجَةِ العاليَةِ، ويغمرُونَهُ بها، حتَّى إذا ما تحرَّكُوا في تقدُّمِهِم ثانيَةً، نقلُوهُ مِنْ مكانِ وجودِهِ إلى طريقٍ آخرَ، وقدْ مرَّ الجيشُ عبرَ المسلكِ الذِي اجتازَتْهُ القافلَةُ، بحسبِ روايةِ أولئكَ الجنودِ.

رحلَ الجيشُ التُّركِيُّ (العثمانِيُّ) هذا اليومَ في قوَّةٍ كبيرَةٍ مِنْ (خوى ـ Khoy)[1] بغرضِ مُطارَدَةِ رئيسِ (النَّفارد ورد) الذِي سادَ سابقاً على تسعِينَ قريةً، وقدْ كانَ خائفاً، فلاذَ بالفرارِ طائراً كالحجلِ بينَ تلكَ الأقاليمِ، مرتكِباً السَّرقاتِ خلالَ المُطارَدَةِ المُحكَمَةِ.[2]

هذا هوَ اليومُ التَّاسِعُ مِنْ مايو / أيَّارَ، تقدَّمَتْ فيه الرَّحلَةُ نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ لأكثرَ مِنْ عشرينَ ميلاً، وعبرَتْ سلسلَةَ جبالٍ انكسارِيَّةٍ، تُقدَّرُ امتداداتُها بستَّةٍ أو ثمانيَةِ أميالٍ، وتُدعَى بعضٌ مِنْ أماكِنِها الجبالَ المنخفِضَةَ، ولكنَّ هذِهِ التَّسميَةَ تُعدُّ مغايرَةً في صُورتِها لتلكَ الطَّبيعَةِ الصَّعبَةِ القاسِيَةِ، فقدْ كانَتْ الطَّريقُ صَخريَّةً وعرَةً تمرُّ خلالَ ارتفاعاتٍ حادَّةِ الأطرافِ ومُغطَّاةٍ بشجيراتِ البلُّوطِ الشَّبيهَةِ بتلكَ التِي كانَتْ متكاثرَةً على الجبالِ العاليَةِ؛ وإضَافةً إلى هذا، تنتشرُ هنا حقولُ قمحٍ صَغيرَةٌ، وشجيراتُ الكرومِ الجميلَةُ المُبعثَرَةُ هنا وهناكَ.

(1) خوي مدينة أذريّة عاصمة إقليم خوي وتعتبر من أكبر مدن أذربيجان وكان يتجاذبها الإيرانيّون والرّوس والعثمانيّون.

(2) The Letter No. 14, dated 08/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 9- 94.

لاحَ لبيركنسَ بعدَ قطعِهِ هذِهِ المسافَةَ سهلٌ عظيمٌ متماوجٌ على امتدادِ ثلاثِينَ ميلاً كاملَةً أو أكثرَ، حيثُ يمتدُّ مِنَ الشَّمالِ الغربِيِّ إلى الجنوبِ الشَّرقِيِّ، أمَّا عرضُهُ فيبلغُ عشرَةَ أميالٍ على الأقلِّ، وقدْ تركَ الجبالَ الانكسارِيَّةَ وراءَهُ.

٦ـ نهرُ الزَّابِ الأعلى ومُواصَلَةُ الرَّحلَةِ

تعبرُ القافلَةُ في هذا السَّهلِ العريضِ نهراً كبيراً هوَ نهرُ الزَّابِ،[1] ذلكَ

(1) الزّاب الكبير (أو: الزّاب الأعلى) أو أعالي الزّاب (تسميته العربيّة: الزّاب الكبير) وبالكرديّة البادينانيّة: (Zêy) وبالسّريانيّة: ܙ ܒ ܙ ܒ ܠ ,ܙ (زابا عليا) وطوله نحو من (400) كيلومتر (250 ميلا) يجري بين جبال تركيّا والعراق. وتصل منابعه العليا إلى شرق الأناضول بالقرب من بحيرة (فان ـ Van) ويمتدّ بمحاذاة (حكارى) وينضمّ إلى نهر دجلة عند جنوب الموصل. تبلغ مساحة حوضه نحوا من (40،300) كيلومترا مربّعا (15،600 ميل مربع)، وخلال مساره الطّويل بين الجبال، يصبّ فيه عدد كبير من الرّوافد: وروبار –I– شين، Rukuchuk، روبار –I–Ruwandiz،Rubat Mawaran وBastura تشاي. ويتغذى هو وروافده في المقام الأوّل من هطول الأمطار وذوبان الثّلوج، ولهذا فهو متقلّب الغزارة بشمل كبير على مدار السّنة. ولقد كشفت الأركيولوجيّات والأنثربولوجيّات الحديثة أنّ حوض الزّاب الكبير كانت له أهمّيّته القديمة جدّا، وخصوصا في بيئة تمتدّ في جبال زاغروس، وذلك منذ العصر الحجريّ السّفليّ القديم، إذ شهد حركة وأنشطة إنسان الـ (نياندرتال) في حوض الزّاب الكبير من خلال ما جرى من فحوصات في الموقع الأثريّ المسمى كهف (شنايدر أ Shanidar) إذ تتوفّر سجلّات تاريخيّة للمنطقة تمتدّ من نهاية الألفيّة الثّالثة قبل الميلاد فصاعدا، وكانت مياه الزّاب الكبير في الأزمنة الآشوريّة الحديثة، قد وظّفت على درجة من المعرفة والتّنظيم في ريّ الأراضي الممتدّة في جميع أنحاء المدينة العاصمة الآشوريّة (نمرود) إذ استُخدم أحدُ روافد الزّاب الكبير القريبة، وجرت في العصور الوسطى معركة الزّاب الفاصلة التي أنهت حكم الخلافة الأمويّة، وتم بعد مئات السّنين، توظيف وديان نهر الزّاب الكبير مأوى للّاجئين العراقيّين من الغزو المغوليّ للعراق. وشهد الحوض في العصر الحديث وخصوصا في القرنين التّاسع عشر والعشرين، انتفاضات متكررة من قبل القبائل الكرديّة المحلّيّة التي كانت تسعى للحكم الذّاتيّ.
يتدفّق الزّاب الكبير في العراق في أراضي كلّ من محافظتي دهوك وأربيل، جنبا إلى جنب مع نهر دجلة، ويشكّل الحدود بين محافظتي أربيل ونينوى. وتتدفّق مياهه في المجرى العلوي، عبر الوديان الصخرية التي تمتد بين العمادية وبخمة

المجرَى العريقُ الذِي مرَّ بنا حديثُهُ، ويُسمَّى هذا النَّهرُ أيضَاً في التَّاريخِ القديمِ (زاباتيوس ـ Zabatus) والذِي عبرَهُ اكزانافون مَعَ عشرَةِ آلافٍ مِنَ البشرِ كانُوا تحتَ قيادَتِهِ.

يخترقُ نهرُ الزَّابِ طريقَهُ مِنْ أعالِي تخومِ الجبالِ المرتفعَةِ، منحدراً على طولِ الجانبِ الشِّماليِّ لهذا السَّهلِ، ثمَّ ينحرفُ غرباً تاركاً الجبالَ وراءَهُ، وهوَ ليسَ ببعيدٍ جدَّاً عَنْ تلكَ التُّخومِ التِي تُعدُّ أماكنَ رئيسَةً مثلِ (جيلو ـ Jilu) و (باس ـ Bass) و (تيخومو ـ Tekhomo) و (تياري ـ Tiarre).

خانق – حيث لا يزال سدّ بخمة غير مكتمل. وبسبب طبيعته الغزيرة، فقد وصفه الجغرافيّون العرب في القرون الوسطى بالكبير تمييزا له عن الزّاب الصّغير، حيث يملك قدرات ديناميكيّة هائلة. وقد تمّ التّخطيط في مجلس الإعمار الملكيّ في العراق منذ خمسينيّات القرن العشرين لإقرار بناء ما لا يقلّ عن ستّة سدود على الزّاب الكبير وروافده، وقد بدأ العمل منذ ذلك الوقت ببناء سدّ واحد فقط، هو سد بخمة، ولكن لم تنفذ تلك المشروعات الحيويّة بسبب إلغاء مجلس الإعمار من قبل النّظام الجمهوريّ في العراق. راجع:

Al-Soof, Abu (1968), «Distribution of Uruk, Jamdat Nasr and Ninevite V Pottery as Revealed by Field Survey Work in Iraq», Iraq 30 (1): 74–86, ISSN 0021-0889, JSTOR 4199840

Benlic, S. (1990), "Underground works at the Bekhme Scheme", International Water Power and Dam Construction 42 (6): 12–14, OCLC 321079949

Biglari, Fereidoun; Shidrang, Sonia (2006), "The Lower Paleolithic Occupation of Iran", Near Eastern Archaeology 69 (3–4): 160–168, ISSN 10942076-, JSTOR 25067668

Bosworth, C.E. (2010), "AL-Zāb», in Bearman, P.; Bianquis, Th.; Bosworth, C.E. et al., Encyclopaedia of Islam, Second Edition, Leiden: Brill

Braidwood, Robert J.; Howe, Bruce (1960), Prehistoric investigations in Iraqi Kurdistan, Studies in Ancient Oriental Civilization, 31, Chicago: University of Chicago Press,

مرَّتْ القافلَةُ قربَ المنطقَةِ السُّفلى لتلكَ السِّلسلَةِ الصَّخريَّةِ التي عبرَتْها هذا الصَّباحَ مِنْ خلالِ مُنحَدَرٍ وعرٍ، ومرَّتْ في طريقِها بأكثريَّةٍ مِنَ الأكرادِ الذِينَ كانُوا يحتشدُونَ حولَها، وهُم مِنْ عشيرَةِ الهركيِّ الكبيرَةِ، ويوجدُ هنا وهناكَ كذلِكَ قليلٌ مِنْ عشيرَةِ (الشِّقاقِيَّةِ ـ Shiqaqis)[1] مِنْ أرومِيةَ، كانُوا قدْ أتَوا في السَّنةِ الماضِيَةِ بسببِ النَّقصِ في المُؤَنِ وقلَّتِها جرَّاءَ اجتياحِ الجرادِ ذلكَ الإقليمَ؛ والذِي أصْبحَ مشابهاً لغيرِهِ مِنَ الأقاليم، فقدْ وصَلَ إليه الجرادُ مِنَ السُّهولِ الحارَّةِ (سهلِ المَوْصِلِ وسهلِ أربيلَ) والسَّلاسلِ الجبليَّةِ المعتدلَةِ المُغطَّاةِ بالثُّلوجِ.

يقولُ «بيركنسُ»: ولمْ نستطعْ أنْ نقدِّمَ أيَّ دعمٍ أو مُساعَدَةٍ للجماعاتِ التِي مررْنا بها، وقدْ خلَّفُوا في أنفسِنا آثاراً محزنَةً على الرُّغمِ مِنَ الثَّراءِ الفاحشِ الذِي ينعمُ بِهِ رؤساءُ ـ أغواتُ ـ الأكرادِ، والذِي تبدَّى لنا واضِحاً مِنْ خلالِ اجتيازِنا الطَّريقَ بينَ آلافِ القطعانِ مِنْ أغنامِهِم، والمئاتِ مِنْ خيولِهِم.

غادرَتْ القافلَةُ تخمَ (بياك ـ Bayak) بعدَ عبورِها السِّلسِلَةَ الصَّخريَّةَ والسَّهلَ الواسعَ الذِي يُعدُّ جزءاً مِنْ مُقاطَعَةِ (حرير ـ Harir) وسكَّانُهُ أكرادٌ مِنْ قبيلَةِ (الزَّروكِيِّ ـ Surkis)[2] ويتوَّزعُونَ في عدَّةِ قرىً تمتازُ بأرضِهَا الخصْبَةِ الجيِّدَةِ وحقولِها الواسعَةِ الغنيَّةِ بمَحاصِيلِ الحنطَةِ، وكانَ مَوْسِمُ الحصَادِ قدْ اقتربَ، فيا لَها مِنْ حقولٍ ثريَّةٍ بالسَّنابلِ الذَّهبيَّةِ المتماوِجَةِ مَعَ حركَةِ الرِّيحِ هنا وهناكَ.

(1) عشيرة الشّقاقيّة من القبائل الكرديّة الكبيرة التي تعيش عند الحدود بين إيران والعراق وتركيّا، ولها اتّصالها بالهركيّة، وقد استمدّت تسميتهم من جدّهم إسماعيل الشّقاقيّ، وهم يتوزعون في كلّ من أربيل ونينوى والسّليمانيّة.

(2) عشيرة السّورجيّ من العشائر الكرديّة الكبيرة التي تنتشر في محافظة أربيل، ويبلغ عدد عائلاتها (4300) أسرة. وتنتشر مستقرّة فيما بين الشّاطئ الشّماليّ لنهر الزّاب الصّغير و راوندوز، ولهم خمسون قرية. انظر: م. أ. زكيّ، المرجع السّابق، ص 408.

كانَتْ الشَّمسُ دافئَةً جدَّاً، عِنْدَما قطعَتْ القافلَةُ وادِياً عميقَاً يقعُ في قلبِ هذا السَّهلِ، ثمَّ دنَتْ رويداً نحوَ الزَّابِ، لمسافةِ ميلٍ قربَ قريةِ (قنديل ـ Kandil)[1] وتُعدُّ هذِهِ القريةُ أحدَ المسالكِ التِي تقطعُ النَّهرَ إلى المَوْصِلِ، ثمَّ توجَّهَتْ القافلَةُ إلى الجنوبِ الغربِيِّ كونَهُ الطَّريقَ الأقربَ، وقدْ نصَبَتْ خيامَها قربَ السِّلسلَةِ الجبلِيَّةِ المنخفضَةِ التِي تجاورُ سهلَ حريرٍ في الجنوبِ قربَ قريةِ (هارش ـ Harash) بنحوٍ مِنْ ميلٍ؛ أمَّا هذِهِ السِّلسلَةُ فقدْ غُطِّيَتْ بشجيراتِ البلُّوطِ الصَّغيرَةِ التِي كانَتْ نادرةً في ربوعِ السَّهلِ ذاتِهِ «ولقدْ كانَ مهمَّاً جدَّاً أنْ نجدَ أنفسَنا الآنَ قريبينَ جدَّاً مِنْ نهرِ الزَّابِ المَشهُورِ على امتدادِ التَّاريخِ ـ على حدِّ تعبيرِ صَاحبِ الرَّحلَةِ.

وتوزَّعَتْ حيثُ خيَّمَ الرَّكبُ عدَّةُ مُخيَّماتٍ كردِيَّةٍ على جانِبَي المكانِ، وظهرَ فجأةً رئيسُ عشيرَةِ تلكَ المنطقةِ «بايازٍ آغا» ممتطِياً صَهوَةَ حصَانِهِ الرَّشيقِ، وحاملاً حربتَهُ في يدِهِ وقدْ أُحيطَ بحاشيتِهِ، فأسرَعَ نحوَهُ دليلُ الرَّحلَةِ؛ وأطلعَهُ على رسالةِ حاكمِ راوندوز «حاجي محمَدُ آغا» التِي صَرَّحَ فيها لِمَنْ يعنِيهِ الأمرُ بحراسَةِ ركبِ الرَّحلةِ ومُخيَّماتِهِ ليلاً مِنْ فضُولِ القرويِّينَ؛ بعدَ برهةٍ مِنَ الوجومِ، كانَ الرَّعبُ فيها مَرسُوماً على وجوهِ خدمِ بايازٍ آغا؛ ويتابعُ «بيركنسُ» حديثَهُ قائلاً: لقدْ كنَّا لعبةً جيِّدَةً في يدِهِ، ثمَّ عادَ دليلُنا بعدَ أنْ أُشبِعَ بكلماتٍ مُؤذِيَةٍ، وفي نهايةِ الأمرِ، أمرَ هذا الآغا أربعَةً مِنْ رجالِهِ ليتظاهَرُوا بحمايتِنا، ولكنْ مَعَ كلِّ ذلكَ، فإنَّهُم بدَوا لنا أبعدَ مِنْ مُراعاةِ مَنزلَتِهِ الرَّفيعَةِ، وبدلاً مِنْ أنْ يرحِّبَ بنا مَعَ جماعتِهِ ذوي النَّظَرَاتِ الحادَّةِ، فإنَّهُم تبختَرُوا في طريقِهِم وراءَ التِّلالِ عندَما أخذْنا ننصُبُ خيامَنا؛ وقدْ خشينا مِنْهُ كثيراً، إذْ ربَّما يضْمِرُ جدِّيَّاً فكرَتَهُ، ليلعبَ بنا في اللَّيلِ لعبتَهُ، أو لربَّما يفعلُها مِنْ خلالِ الحرَّاسِ الذِينَ انتدَبَهُم لحمايَتِنا! وبناءً على ذلكَ، فقدْ أزلْنا خيامَنا بمُجرَّدِ طلوعِ الشَّمسِ.

(1) لم تزل قنديل موجودة، وهي من أجمل المناطق المطلّة على الزّاب الأعلى في أعماق كردستان العراق.

ثمَّ تحرَّكَتْ القافلَةُ مرَّةً أخرَى، وقطعَتْ نحواً مِنْ ميلَيْنِ عبرَ ـ زك زاك ـ لتصِلَ بعدَ خفوتِ الشَّمسِ بوقتٍ قصيرٍ قريةً متوسِّطَةَ السَّعةِ اسمُها (باباجيجيك ـ Babajijik)[1] وقدْ سادَها الظَّلامُ، وتوزَّعَ أفرادُها على أسطحِ بيوتِها الصَّغيرَةِ، ورقدُوا نائمِينَ متنعِّمِينَ بالهواءِ الطَّلقِ، وذلكَ لغرضِ أنْ يبكرُوا في مُغادرَتِهم صَباحاً قبلَ اشتدادِ حرارَةِ الشَّمسِ.

يصِفُ ـ بيركنسُ ـ هذِهِ القريَةَ بأنَّها تقعُ في جنوبِ السِّلسلَةِ الجبلِيَّةِ، وتتكوَّنُ مِنْ أربعِينَ بيتاً مبنِيّاً بالصَّخرِ، وتحمِيها قلعَةٌ عالِيَةٌ، وفيها جامعٌ ذو حجمٍ مناسِبٍ، وهناكَ على عُلْوٍ واضِحٍ مِنَ القريةِ يوجدُ مَدفَنٌ مُقدَّسٌ جدّاً يُدعَى (مون صُوفي قره سولي ـ Munsufi Qara Suli) وتظلِّلُهُ الأشجارُ الباسقَةُ، وتبدُو هذِهِ القريَةُ هادئَةً يلفُّها السُّكونُ، وتعمرُ فيها روحُ الإيمانِ نظراً لمَكانَتِها الدِّينِيَّةِ، وعَيْشِ المتصَوِّفَةِ والأولياءِ الصَّالِحِينَ فيها.[2]

كانَ (الكيتخدا ـ Kethodeh) الشَّيخَ الذِي يقيمُ مَعَ جماعَتِهِ مِنَ الدَّراويشِ الذِينَ كانُوا يصَلُّونَ ويرتِّلُونَ بعذوبَةٍ في هذا الجامعِ إلى ساعةٍ متأخِّرَةٍ مِنْ الليلِ، وما إنْ ينْهُوا صَلواتِهم حتَّى يبدَؤُوا بتكرارِ عبارَةِ " لا إلهَ إلَّا اللهُ" وذلكَ في صَوتٍ واحدٍ متناغِمٍ في انسجامِهِ وضَبطِهِ وموسيقاهُ، ثمَّ يبدأ بعدَ ذلكَ ترديدُ ذكرِ اسمِ "الله" مئةً مرَّةٍ بذاتِ الصَّوتِ والنَّغمِ.[3]

استيقظَ «بيركنسُ» مَعَ جماعتِهِ في تمامِ السَّاعةِ الثَّانِيَةِ صَباحاً، ليأخذُوا طريقَهُم ممتطِينَ ظهورَ البغالِ، وقطعُوا مسافَةَ خمسَةَ عشَرَ ميلاً قبلَ طعامِ الفطورِ. وكانَ النِّصْفُ الأوَّلُ مِنَ الطَّريقِ يمتدُّ باتِّجاهِهِ نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ،

(1) قرية تقع في أعماق كردستان، ولم تزل موجودة حتّى يومنا هذا بهذا الاسم.

(2) راجع عن المتصوّفة الأكراد كتاب المؤرّخ الإنكليزيّ: J.S. Trimingham, The Orders in Islam, Oxford, 1971, pp. 5-124.

(3) The Letter No. 15, dated 09 /05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 99- 102.

ثمَّ ينحرِفُ نصْفُهُ الآخرُ ليلتفَّ إلى الغرب قليلًا فوقَ سلسلَةٍ جبليَّةٍ، لتمرَّ الرَّحلَةُ بعدَ ذلكَ بوادٍ وعرٍ عميقٍ تتخلَّلُهُ الأعمدَةُ الصَّخريَّةُ، ووصَلَتْ القافلَةُ عِنْدَ تلكَ النُّقطَةِ إلى وادٍ آخرَ لَهُ دائرَةٌ واسعَةٌ وفيهِ مَجرَى ماءٍ ينحدِرُ مِنَ الجنوبِ الشَّرقِيِّ نحوَ نهرِ الزَّابِ، ويُدعَى كلٌّ مِنَ الوادِي ونهرِهِ بـ (بره برووش).

وتُرَى على بعدِ ميلٍ إلى الجنوبِ مِنْ هذا الطَّريقِ قلعةٌ تُدعَى (ديفيرى ـ Deveere) وتُعدُّ مِنْ إحدَى القواعدِ الأماميَّةِ للمتمرِّدِ (محمَّدِ باشا كورمير الرَّاوندوزيِّ) في عصْيانِهِ وتمرُّدِهِ على الأتراكِ (العثمانِيِّينَ).

ويتحدَّثُ «بيركنسُ» بعدَ هذا عَنْ عبورِهِ لذلِكَ المَقطَعِ مِنَ النُّتوءِ الجبلِيِّ، ويصِفُ صُخورَهُ الهشَّةَ وترابَهُ الدَّاكِنَ، وقدْ قطَعَ مسافَةً كبيرَةً مَعَ جماعتِهِ خلالَ هذا الصَّباحِ، ووصَلُوا أخيراً إلى القمَّةِ العليا مِنْ تلكَ السِّلسلَةِ؛ وبإشرافِهِ على ذلكَ الامتدادِ مِنَ الأعلى، توضَّحَتْ لَهُ تلكَ المناظرُ الخلَّابَةُ لكلٍّ مِنَ السَّهلَيْنِ العظيمَيْنِ سهلِ المَوْصِلِ، وسهلِ أربيلِ. ويتابعُ كلامَهُ فيقولُ: إنَّ تلكَ الجبالَ التِي كنَّا قدْ قطعْناها في بضْعَةِ أيَّامٍ، كانَتْ غالباً ما تملَؤ أحاسيسَنا بالسُّمُوِّ الذِي لا يُوصَفُ أمَّا الآنَ فإنَّ اتِّساعَ رقعَةِ السُّهولِ المستويَةِ قدْ أسَرَنا وأخذَ بألبابِنا، حيثُ كانَتْ رؤاها بعيدَةً عَنْ مخيلتِنا، وها هنا أصْبحْنا لا نجدُ شيئاً أمامَ ناظرِينا إلَّا الأرضَ والسَّماءَ.

٧ـ سهلُ أربيلَ

يمتدُّ سهلُ أربيلَ الهائلُ الخصِيبُ، أو سهلُ مدينةِ (أربيلا ـ Arbila)[1]

(1) يقول صاحب الرّحلة في أحد هوامش رسائله – في معرض حديثه عن سهل أربيل: يدعى هذا السّهل من قبل الأكراد والنّساطرة (هولير ـ HOLER) ويُدعى من قبل الأتراك (أربيل ـ ARBIL). (انظر: ibid., p. 103 n.). وهذه التّسمية مأخوذة من "أربل" وهي تسمية عربيّة منذ القديم مأخوذة من لفظ "أر بثيللو". ومن دون شكّ فإنّ صاحب الرّحلة قصد بالأتراك سكّان المنطقة بمختلف انتماءاتهم العرقيّة، والذين كانوا تحت حكم السّيطرة العثمانيّة

للتِي انتزعَها (الإسكندر ـ Alexander) المقدونِيُّ مِنْ (داريوس ـ Dar – us) يمتدُّ على اليسارِ مِنْ امتدادِ مسلكِ الرَّحلَةِ، ويمتدُّ على اليمينِ مِنْهُ سهلُ (نوكير ـ Noker) الكبيرُ، وتتوزَّعُ الخصُوبَةُ بينَ الاثنينِ على حدٍّ سواءٍ، وتُعدُّ مدينةُ (عقرةَ ـ Aqra) مركزَ هذا السَّهلِ؛[1] أمَّا نهرُ الزَّابِ الكبيرُ

ذاك العصر.

(1) عقرة (بالكرديّة ـ ئاكرێ Akrê) أحد أقضية لواء الموصل سابقا، وهي اليوم تابعة لإقليم كردستان العراق، ومن معالمها جامعها الكبير الذي يعدّ من أقدم المساجد التّاريخيّة التي بُنيت بعد فتح العراق وانتشار الإسلام، إذ كان قد بني في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب سنة (20) هجريّة تقريباً. يحدّ عقرة نهرّ الزّاب والعماديّة من جهة الشّمال، وشقلاوة شرقا، والموصل جنوبا، ونهر الخازر والشّيخان غربا، ومساحتها الكلّيّة (6418) كم2 أي (1.047.622) دونما، وهو قضاء قديم حيث تأسّس في عهد الدّولة العثمانيّة عام (1877م) مركزه قصبة عقرة، وتعدّ من الأقضية الكبيرة في العراق.
تعدّ بلدة عقرة من المدن الشّرقيّة العريقة في القدم، حيث يعود تاريخها إلى العصر الطّباشيريّ الجيولوجيّ، وهو عصر بدايات ظهور القرى والمدن. ويُعتقد في أنّ عقرة أو (ئاكرى) قد برزت نحو سنة (700) قبل الميلاد كمركز بشريّ استيطانيّ له صفاته الإنتاجيّة. ويُقال: إنّ من أسّسها كان يسمّى الأمير (زيد) وسمّاها (ئاكرا) لأنّهم كانوا آنذاك من الزّرادشتيّين، ويقال إنّ اسمها مشتقّ من الكلمة الكرديّة (ئاگر) وتعني النّار. وثمّة شواهد أركيولوجيّة وتاريخيّة في عقرة تؤكّد أهمّيّة هذه البلدة قبل الميلاد وبعده، وقد عدّها بعض من المؤرّخين من بلاد (المرج)، إذ تنتشر بالقرب منها بعض من الآثار القديمة تدلّ على امتلاكها تاريخ حافل مثل (شوش، شرمن، كندك). ولقد جاء ذكرها في كتب المؤرّخين والجغرافيّين العرب، فذكرها ياقوت الحمويّ في «معجم البلدان» قائلا: والعقر قلعة حصينة في جبال الموصل، أهلها كرد، وهي شرق الموصل تعرف (بعقر الحميديّة). وذكرها المؤرّخ ابن الاثير في أماكن عدّة، ووصفها بوفرة المياه وكثرة الخيرات، وكان للبلدة تاريخ مجيد على عهد أميرها الكرديّ (عيسى الحميديّ). ويقول المؤرّخ الموصليّ «ياسين الخطيب العمريّ» في كتابه (غرائب الأثر): حتّى إنّهم يسمّونها (كجك اسلامبول) أي اسلامبول (استانبول) الصّغيرة تشبيها بالمدينة التّركيّة لفرط خيراتها ووفرة مياهها وجمال طبيعتها.
ملك عليها الأمير عماد الدّين زنكيّ مؤسّس الدّولة الزّنكيّة في الموصل في سنة (528هـ / 1133م) وأقرّ عليها الأمير (عيسى الحميديّ) وعندما تأسّست إمارة بادينان، كانت عقرة خاضعة لها وذات موقع استراتيجيّ بالنّسبة إليها،

المتدفِّقُ فكانَ يجري على بعدٍ واضِحٍ مِنَ المسلكِ، وكانَ الجبلُ المنخفضُ يحاذِي مجراهُ على نطاقٍ صَغيرٍ أبعدَ مسافةً إلى الغربِ، وقدْ توضَّحَ الآنَ مَوقِعُ المَوْصِلِ على سهلِ المَوْصِلِ، وتوضَّحَتْ أيضاً نينوى القديمَةُ والأرضُ الكلاسيكِيَّةُ التِي قامَتْ عليها حضَارَةٌ مزدهِرَةً قديمَةٌ.

يعلنُ «بيركنسُ» بعدَ ذلكَ قولَهُ: كمْ هوَ أصِيلٌ وعريقٌ، إضَافةً إلى كونِهِ

وكان عليها أحد المقرّبين إلى الباشا أو أحد أفراد أسرته. وكان الذي حكم عليها من أسرة ميرسيفدينا (إسماعيل باشا الثّاني آخر حكّام بادينان؛ وأوّل من حصّنها كان (السّلطان حسين وه لي) في عام (956هـ / 1549م).
بنيت عقرة منذ القدم على امتداد سفح الجبل، إذ تتدّرج المساكن والدّور فيها إلى قرب القمّة بشكل هندسيّ رائع، إذ يشكّل ذلك منظرا فريدا ومتميّزا، وتطلّ على واديين فسيحين فيهما بساتين فواكه متنوّعة، ويقع داخل الوادي الشّرقيّ شلال شهير اسمه (السّيبه) الذي يؤمّه الزّوار والمصطافون من أجل التّمتع بمنظره الخلّاب والجوّ البارد صيفاً، زيادة على وجود ضريح (سيّدي مجذوب) بالقرب منه. ويقع في الوادي الشّماليّ الغربيّ من القصبة مقام الشّيخ عبد العزيز الكيلانيّ حيث تجري المياه الغزيرة ويتناسق خريرها مع حفيف الشّجر الكثيف؛ وقد سمّي المقام باسمه ويقصده الآلاف من المتصوّفة والدّراويش للتّبرّك والزّيارة، وقد توسع البناء اليوم، وهناك فوق المقام مسجد ترتفع عليه قبّة بيضاء. وإلى جانب هذا المزار، تقع مزارات أخرى منها للشّيخ إسماعيل الوليانى، والشّيخ أحمد، والشّيخ محمّد، والشّيخ بديع سورجي، والشّيخ عبد القادر الكيلانيّ؛ ويعتمد العقراويّون على الزّراعة بموسميها الشّتويّ والصّيفيّ إضافة إلى بساتين الفاكهة المتنوّعة والزّيتون والرّمّان والتّين والإجاص مستفيدين من مياه العيون المنتشرة في وديانها. كما يزرع الرّزّ فيها بكثرة وهو من أجود أنواع الرّز، إذ يسمّى بالرّزّ العقراويّ والذي يعتمده سكّان المنطقة كلّهم، زيادة على التّجارة، حيث تزدهر عقرة بأسواقها التّجاريّة المحلّيّة. وكانت علاقة عقرة قد ترسّخت بالموصل. وقطن الموصل عدد من العوائل التي تعود في أصولها إلى عقرة، ومن أشهر تلك العوائل: عائلة آل عقراويّ الموصليّة الشّهيرة. راجع بشأن مدينة عقرة: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، جـ4، بيرت، 1960، ص 136. وانظر: فائق أبو زيد سليم عقراويّ، دليل عقرة السّياحيّ (د. م. د. ت) ياسين الخطيب العمريّ، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثّالث عشر، ط1، نشره: محمّد صدّيق الجليليّ، الموصل (1940م) عبد الأحد يوحنا نيسان، تاريخ أبرشيّة عقرة والزّيبار، ط1 (دهوك: دار المشرق الثّقافيّة 2010م).

سامِياً رفيعاً منظرُ هذِهِ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ التِي نجيلُ فيها أعينَنا؛ كونَها المهدَ البكرَ للجنسِ البشرِيِّ وقدْ حوتْ ركاماً هائلاً مِنَ الحادثاتِ الخطيرَةِ، والآثارِ الناطقَةِ في تاريخِهِ، وكلُّها منضويَةٌ تحتَ نطاقِ كلٍّ مِنَ الدِّينِ والدَّنْيا.

سستمر «بيركنسُ» في حديثِهِ، حينَ يصِلُ إلى قريةِ (بواهلين ـ Bawaha – len) التِي يتناولُ فطورَهُ فيها، فيقولُ: كانَتْ هذِهِ القريَةُ تتربَّعُ على مكانٍ ساحرٍ، وتتعلَّقُ مستقرَّةً فوقَ قمَّةٍ عاليَةٍ مطلَّةٍ على وادٍ اصْطبغَتْ سفوحُهُ بالخضْرَةِ الوارفَةِ، وتكلَّلَ جرفُهُ بأشجارِ الفواكِهِ مِنْهَا التِّينُ والرُّمَّانُ، وكرومُ العنبِ. ثمَّ يصِفُ بيوتَ القريةِ التِي يمرُّ بينَ جدرانِها في ذلكَ الصَّباحِ المبكِرِ فيقولُ: في القريةِ خمسَ عشرَةَ عائلَةً كردِيَّةً، وثلاثُ عائلاتٍ يهودِيَّةٌ. وقدْ تحدَّثَ سكَّانُها مَعَهُ، وكانَتْ ملابسُهُم سوداءُ اعتياديَّةٌ؛ وهِيَ التِي تُدعَى (كازيك ـ Kasik) ولُحِظَ في هذِهِ المنطقَةِ أنَّ أشجارَ الجوزِ أقلَّ مِنْهَا ممَّا كانَتْ عليه في المناطقِ العالِيَةِ.

تريَّثَ صَاحبُنا بعدَ ساعاتٍ قليلَةٍ مِنَ الفطورِ وقعدَ مَعَ جماعتِهِ تحتَ ظلٍّ رائعٍ نشرتْهُ أشجارُ العرعرِ (Juniperus) (الصُّنوبرِ) الكثيفَةُ، وزوَّدَتْ الخيولَ بالعلفِ واستراحَتْ ثمَّ امتُطِيَتْ ومَضَتْ في سيرِها لأكثرَ مِنْ خمسَةَ عشَرَ ميلاً، ولمْ تتوقَّفْ حتَّى قريةِ (ريشوان ـ Reshwan) وكانَ سَيْرُ الرِّحلةِ العامُّ أثناءَ ذلكَ اليومِ متَّجِهاً نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ، وقدْ انتشرَتْ حقولُ القمحِ والشَّعيرِ في تلكَ المَناطقِ التِي تمتازُ بترابِها الأحمرِ، عدا ما كسَا بعضَاً مِنْهَا صُخورٌ وأحجارٌ.

لاحَ لبيركنسَ في نهايةِ ذلكَ الطَّريقِ التَّدريجِيِّ المنحدرِ منظرٌ شاملٌ وعريضٌ لمدينةِ أربيلَ التِي بدا ارتفاعُها واضِحاً للعيانِ، وكانَتْ تبعدُ ما يقربُ مِنْ عشرينَ ميلاً، وقدْ احتضَنَها ذلكَ السَّهلُ العظيمُ الذِي يُطلَقُ عليهِ الاسمُ ذاتُهُ، وكانَتْ الطَّريقُ ممتدَّةً إليه على طرَفَي الجنوبِ والغربِ، فما استطاعَ البصَرُ التقاطَهُ، حيثُ تلتصِقُ السَّماءُ بالأفقِ البعيدِ.

وبينَما كانَتْ القافلَةُ تجتازُ تلكَ التَّموُّجاتِ الخصْبَةَ، كانَ ظبيانِ جميلانِ قدْ ظهرا فوقَ التِّلالِ ثمَّ غابا مِنْ أمامِها كلمحِ البصَرِ. وقدْ ذُكِرَ لبيركنسَ أنَّ مثلَ هذِهِ الحيواناتِ البرِّيَّةَ وحيواناتٍ أخرَى مفترسَةً تنتشرُ بكثرَةٍ في أطرافِ هذِهِ الرُّبوعِ كالذِّئابِ والدِّببَةِ والخنازيرِ البرِّيَّةِ.[1]

انحدرَتْ القافلَةُ في نهايةِ مُغادَرَتِها الأراضِيَ المتموِّجَةَ نحوَ ذلكَ السَّهلِ الغرينيِّ الكبيرِ، وهوَ أحدُ السُّهولِ الخصْبَةِ العظيمَةِ في الشَّرقِ ـ كَما يذكرُ بيركنسُ – وقدْ اختفَتْ هنا الأشجارُ إلَّا قليلاً مِنْها كانَتْ عِنْدَ الطَّرفِ الشِّماليِّ مِنْ هذا السَّهلِ؛ مَعَ استثناءٍ نادرٍ لبعضٍ مِنَ الأماكنِ مِنْهُ. أمَّا ما يمتازُ بِهِ هذا السَّهلُ فهوَ تلكَ الحقولُ الكبيرَةُ الشَّاسعَةُ الأمداءِ والغنيَّةُ في هذِهِ الأيَّامِ بمَحصُولاتِ القمحِ والشَّعيرِ، حيثُ تتمايلُ السَّنابلُ الذَّهبيَّةُ في كلِّ اتِّجاهٍ يحرِّكُها النَّسيمُ إليه حيثُ يسري، وهِيَ مثقلَةٌ بثمارِها المُكتنزَةِ مِنَ الحبوبِ، أمَّا الحشائشُ فقدْ كانَتْ كثيفَةً حيثُما كانَ التُّرابُ قدْ تُركَ مِنْ دونِ زرعٍ، ولكنْ ما أقصَرَ حياةَ هذا المنظرِ الطَّبيعيِّ الرَّائعِ، فسوفَ تلفحُهُ حرارَةُ الشَّمسِ ليذبلَ بعدَ أيَّامٍ، إذْ تعتمدُ هذِهِ الأرضُ على الأمطارِ، وهِيَ لمْ تُسقَ بعدَ زراعتِها ولا خلالَ أيَّامِ النُّمُوِّ.

يعودُ «بيركنسُ» ليصِفَ لنا القريةَ التِي كانَ قدْ توقَّفَ عِنْدَها، حيثُ خيَّمَ هناكَ الرَّكبُ ليلاً؛ فيقولُ: هِيَ قريةُ رشوانَ الكردِيَّةُ التِي تتألَّفُ مِنْ نحوِ مئةِ بيتٍ، مَعَ بيتَيْنِ اثنَيْنِ لليهودِ الذِينَ كانُوا يتكلَّمُونَ النَّسطورِيَّةَ. ولها أطيانِها، وأسطُحُها الصَّغيرَةُ، وحيطانُها المتشابِهَةُ، وسقوفُها الخشبِيَّةُ، وهناكَ نهرُ (بوستورا ـ Bostora) الصَّغيرُ الذِي ينحدرُ مِنَ الجنوبِ الشَّرقِيِّ، ليفصِلَ إقليمَ راوندوزَ عَنْ هذا المكانِ مِنْ مُقاطَعَةِ أربيلَ، حيثُ إنَّ رشوانَ تبعدُ عَنْهَا ما يقربُ مِنْ خمسةَ عشَرَ ميلاً، إذْ تقعُ أربيلُ عِنْدَ الطَّرفِ الجنوبِيِّ

(1) من أجل تفاصيل جغرافيّة، راجع: محمود فهمي درويش، ومصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل الجمهوريّة العراقيّة لسنة (1960م) (بغداد: دار مطبعة التمدّن 1961م).

مِنْ هذِهِ القريةِ.

٨ـ أربيلُ وبستورا، وعبورُ الزَّابِ الأعلى

إنَّ جزءاً مِنْ مدينةِ أربيلَ مَبْنِيٌّ على تلٍّ مستديرَةٍ، ويُطوَّقُ هذا الجزءُ بجدارٍ أو سورٍ، وينتشرُ ما تبقَّى مِنْهَا حولَ قاعدَةِ تلكَ التَّلَّةِ الكبيرَةِ. ويعيشُ في أربيلَ نحوٌ مِنْ 2500 أو 3000 عائلَةً مِنَ الأكرادِ والأتراكِ مَعَ عشرينَ عائلَةً نسطورِيَّةً نصْفُهُم يعاقِبَةٌ،[1] والنِّصْفُ الآخرُ نساطرةٌ يتَّبعُونَ التَّعاليمَ البابويَّةَ.[2] ويعلِّقُ «بيركنسُ» بعدَ ذلكَ بقولِهِ: إنَّ ذلكَ يُعتبرُ نقصَاً محزِناً في عددِ سكَّانِ المدينةِ عمَّا كانَتْ عليهِ في العصُورِ القديمَةِ، ويتردَّدُ عليها في أعمالِ التِّجارَةِ الكردُ والعربُ.[3]

---

(1) اليعاقبة هم من السرّيان الأرثوذكس الذين يؤمنون بأنّ المسيح ذو طبيعة وحدويّة متكاملة امتزج فيها عنصر الإله بعنصر الإنسان. التّفاصيل عن الشّهرستانيّ: الملل والنّحل، جـ2، ص 45.

(2) النّساطرة البابويّون: هم من النّصارى الكاثوليك الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكيّة في روما، وقد تكثلكوا في بداية القرن التّاسع عشر. للمزيد من التّفاصيل التّاريخيّة، انظر:

Sayyar K. Al-Jamil, A Critical Edition of al-durr al-Maknun fi al-Ma' athiral – Madiya min al- Qurun of Yasin al – Umari (9201226- A.H. 16141515/ A.D. – 18111812/ A.D.) ; Ph.D. Thesis, St. Andrews Univ., Scotland, 1983, 3 vols., (The Library of St. Andrews Univ.).

(3) أربيل أو إربل (بالعربيّة الفصحى) أو هولير (بالكرديّة: Hewlêr هه ولر، بالسّريانيّة: ܐܪܒܝܠ) وهي مركز لواء سابقا ومحافظة لاحقا وعاصمة إقليم كردستان العراق الآن. وهي رابع مدينة عراقيّة من حيث المساحة في العراق بعد بغداد والموصل والبصرة، وتقع في شرقيّ مدينة الموصل، وتبعد عنها (89) كيلومترا ومعظم سكان أربيل حاليّا من الأكراد إضافة إلى أقليّات أخرى كالتّركمان والآشوريّين. تعدّ أربيل من أعرق مدن العالم حيث استمر بها الاستيطان البشريّ منذ آلاف السّنين، إذ يعود تاريخ الاستيطان الأوّل لهضاب أربيل إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وتتوزّع مناطق أثريّة قديمة جدّا في أربيل؛ وقد تعاقبت عليها دول وحضارات، إذ تبعت الاشوريّين والبارثيّين

لمْ يدخلْ «بيركنسُ» مدينةَ أربيلَ، بل مضَى في طريقِهِ، مسترسلاً في رؤاهُ الرُّومانتيكِيَّةِ، إذْ كانَ لروعَةِ الطَّبيعَةِ أثرُها الكبيرُ في ازديادِ تشوُّقِهِ للمزيدِ مِنَ الأماكنِ الهادئَةِ الجميلَةِ؛ بعدَ أنْ تعبَ فكرُهُ وأعصَابُهُ في الجبالِ العاليَةِ على الرُّغمِ ممَّا منحَتْهُ تلكَ الجبالُ مِنْ آياتِ جمالِ الطَّبيعَةِ.

ويعودُ «بيركنسُ» ليواصِلَ حديثَهُ عَنْ الرَّئيسِ الكردِيِّ لمنطقَةِ بستورا (السَّيِّدِ حسنِ ـ Saiyed Hasan) الذِي يقيمُ في قريةِ رشوانَ فيقولُ: ولكنْ عِنْدَ مرورِنا بقريتِهِ كانَ «حسنُ» في زيارةِ «رواندوز» وكانَ ولدُهُ قدْ

والسّلوقيّين والسّاسانيّين والعرب والعثمانيّين والبريطانيّين وغدت لواء إداريّا في المملكة العراقيّة منذ العام (1921م) ثمّ مركز محافظة على عهود الجمهوريّة العراقيّة، وغدت في السّنين الأخيرة عاصمة لإقليم كردستان العراق.
يعود أصل تسميتها أربيل إلى الاسم الآشوريّ للمدينة (أربائيلو) أي الآلهة الأربعة التي وجدت في المعابد الآشوريّة المهمّة فيها إذ كانت على الأزمنة الآشوريّة مركزا أساسيّا لعبادة الإلهة عشتار، وكان الآشوريّون يقدّسون مدينة أربيل، ويحجّ إليها ملوكهم قبل الإقدام على أيّة حملة عسكريّة تبركا بها، وقد وقعت بالقرب منها معركة أربيلا الشّهيرة بين جيوش الإسكندر المقدونيّ وجيوش داريوس الثّالث أي التي وقعت بين الفرس واليونانيّين سنة (331 ق م) وغدت أربيل مسيحيّة وسمّيت باسم آراميّ (حدياب) وصارت من أهم مراكز الدّيانة المسيحيّة العراقيّة (النّسطوريّة). وقد فتحت جيوش العرب المسلمون أربيل وما يجاورها على عهد الخليفة عمر بن الخطّاب سنة (32 هـ / 652م) بقيادة عتبة بن فرقد عقب مواجهات صعبة، وكان من أبرز الشّخصيّات في العصور الوسطى والتي تنتسب لمدينة أربيل، الشّخصيّة الإسلاميّة صلاح الدّين الأيوبيّ (1137م 1193–م) والذي ينتسب أجداده إلى قرية دوين شمال المدينة. ومن أهمّ المعالم الأثريّة قلعة أربيل وتل السّيّد أحمد والمنارة المظفّريّة في أربيل. وتتألف المحافظة من خمسة أقضية تتبعها إحدى عشرة ناحية أمّا الأقضية الخمسة، فهي: مخمور وكويسنجق وراوندوز ورانية وزيبار. وغدت أربيل في الظّروف الصّعبة التي عاشتها كلّ من بغداد والموصل وبقيّة المناطق الأخرى ملاذا للعرب الهاربين من جحيم الأحداث.
راجع: محمّد أمين زكيّ، تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة: محمّد عليّ عونيّ، القاهرة عام (1936م) زبير بلال إسماعيل «أربيل في أدوارها التّاريخيّة، النّجف (1971) عبّاس العزّاويّ أربل في مختلف العصور: اللّواء والمدينة. راجعه وعلّق عليه وقدّم له محمّد عليّ القره داغيّ، ط1 (بغداد، عام 2001).

خيَّمَ مَعَ النَّاسِ في القريةِ التِي تقعُ على ضِفَّةِ النَّهرِ على مسافَةِ نصْفِ ميلٍ إلى الأعلَى مِنْ مسلكِ الرَّحلَةِ؛ لقدْ اعتنَى ولدُهُ هذا بحراسَةِ الرَّكبِ أثناءَ اللَّيلِ بوساطَةِ اثنَيْنِ مِنْ رجالِهِ، وقدْ بدا أنَّهُ ميَّالٌ للمُساعَدَةِ أكثرَ بكثيرٍ مِنْ ذلكَ الذِي توقَّفْنا عِنْدَهُ أمسِ.

يعيشُ النَّاسُ في هذِهِ المنطقَةِ في مُخيَّماتٍ لعدَّةِ أسابيعَ خلالَ هذِهِ المدَّةِ، ثمَّ ترجعُ جماعاتُهُم إلى البيوتِ الأولى وقدْ ألقَوا بخيامِهِم أرضَاً، أو حجبُوها عَنْ الحرارَةِ الشَّديدَةِ التِي ستلفحُ هذِهِ المناطقَ بعدَ أيَّامٍ، فهذا ما يتميَّزُ بِهِ المناخُ.

نهضَ جميعُ أفرادِ القافلَةِ في الصَّباحِ الباكرِ مِنْ يومِ 11 مايو / أيَّارَ، وسارُوا متقدِّمِينَ خمسَةَ أو ستَّةَ أميالٍ على أطرافِ وادِي «بستورا» الخصْبِ، ومعابرِ وثنِيَّاتِ حقولِهِ الغنِيَّةِ بالقمحِ والشَّعيرِ، ثمَّ وصَلُوا ضفَّةَ نهرِ الزَّابِ الكبيرِ؛ وقدْ لحظَ مِنْ خلالِ مرورِهِم بإحدَى تلكَ الحقولِ، أنَّ النَّاسَ كانُوا مستعدِّينَ لحصَادِ الشَّعيرِ، وقدْ لفتَتْ نظرَ «بيركنسَ» تلكَ الطَّريقَةُ في حصَادِهِم، ذلكَ أنَّهُم لا يحزمُونَ الحبوبَ داخلَ أكياسٍ، ولكنَّهُم يتركُونَها مجمُوعَةً في أكوامٍ وبصُورَةٍ طليقَةٍ في أماكنِها على الأرضِ؛ حيثُ تبقَى عدَّةَ أسابيعَ، بغرضِ درسِها ودَوْسِها في الحقلِ ذاتِهِ في وقتٍ لاحقٍ، وقدْ أخبرَهُم دليلُهُم أنَّها الطَّريقَةُ المُتَّبعَةُ في الحصَادِ، وأنَّها تُمارَسُ على نحوٍ كبيرٍ في تلكَ المنطقَةِ وعِنْدَ جميعِ المزارعِينَ.

لا تزالُ القافلَةُ سائرَةً في طريقِها، وقدْ كانَتْ انطلَقَتْ مِنْ قربِ (قنديلَ ـ Kandil) وأخذَتْ مسلكَها المنحدرَ نحوَ المَوْصِلِ، ثمَّ قطعَتْ نهرَ الزَّابِ الكبيرَ الذِي يمجِّدُ "بيركنسُ" تاريخَ تدفُّقِهِ منذُ عصُورٍ سحيقَةٍ. ثمَّ عبرَتْ القافلَةُ في طريقِها قريةَ (كيردامامِيش ـ Girdamamish) التِي يتدفَّقُ عِنْدَها نهرُ الزَّابِ بقوَّةٍ كبيرَةٍ، خصُوصَاً في هذا الفصْلِ، بل إنَّهُ مِنَ المُحتَمَلِ أنْ يمتلئَ مجراهُ بالماءِ لأكثرَ مِنْ نصْفِهِ، ثمَّ يعودُ مَنسوبُهُ فينخفِضُ. ويصِفُ

«بيركنسُ» في هذا المكانِ بالذَّاتِ، العوَّاماتِ ورجالَها الذِينَ يعبرُونَ النَّهرَ بطريقتِهِم الخاصَّةِ؛ وقدْ رآهُ بعضُهُم يسجِّلُ شيئاً مِنْ مَلحُوظاتِهِ التِي مِنْ جملتِها ذكرُهُ أنَّ هذِهِ المناطقَ سكَنَهَا (الفرنجةُ ـ Frank)[1] في القدمِ (كذا).

أمَّا الأكرادُ فإنَّهُم قليلُونَ في هذِهِ المناطقِ على أيَّةِ حالٍ، لأنَّهُم كانُوا على درجةٍ واضحَةٍ مِنَ القلقِ بسببِ المَخاوفِ المُرتَقَبَةِ. ويتابعُ «بيركنسُ» ذلكَ بقولِهِ: إنَّهُم طلبُوا منِّي أنْ أسجِّلَ أسماءَ بعضِهِم على سبيلِ الذِّكرَى، ويجبُ عليَّ أنْ أستجيبَ ـ على الأقلِّ ـ لطلبِ رئيسِهِم الذِي كانَ يتكلَّمُ بينَهُم، والمدعُو (باخير ـ Bakhir) وهوَ مالكُ العوَّامَةِ التِي عبرْنا عليها.

وقدْ ذكرَ هذا الشَّخصُ لبيركنسَ أنَّهُ نفسَهُ كانَ سائحاً كبيراً، وأنَّهُ رأى بغدادَ والبصْرَةَ، وبوشهرَ الإيرانِيَّةَ.

قضِى "بيركنسُ" مَعَ جماعتِهِ في العوَّامةِ عدَّةَ ساعاتٍ، وخلالَ ذلكَ الوقتِ كانَتْ الصُّحبَةُ عاليَةً في روحِيَّتِها، وكانَ الحديثُ مَشُوقاً ولطيفاً، أمَّا الشَّمسُ فقدْ اشتدَّتْ حرارتُها، وشعرُوا بالتَّغيُّرِ الواضِحِ في الطَّقسِ، ثمَّ نصَبُوا خيامَهُم في جانبٍ مِنْ شمالِ غربِ الزَّابِ، ولمْ تعدْ الأشجارُ العالِيَةُ

(1) الفرنكيّون: هم «فرنجة» أوربّا عند الإغريق والعرب. وإنّ الرّأي الذي يطرحه بيركنس هنا، هو رأي خاطئ! فالعراق لم يشهد خلال حياته التّاريخيّة الطّويلة، أي شكل من أشكال استيطان الأوربيّين سواء كانوا من «الفرنجة» أم غيرهم، أو استقرارهم، ولم تشهد هذه البلاد العريقة إلّا بعضا من الحملات الإغريقيّة والرّومانيّة التي مرّت عبر شمال العراق لحرب الفرس، وسرعان ما كانت تتبدّد، ولم تترك آثارها على تاريخيّة العراق. إذن، نستنتج أنّ البلاد العراقيّة لم تتأثّر سكّانيّا بالرّومان أو الإغريق قديما، ولا بالفرنجة خلال عصور الحروب الصّليبيّة في التّواريخ الوسيطة، ولا حتّى الحملة النّابليونيّة في التّاريخ الحديث؛ إذا استثنينا حركة التّجّار الأوربيّين المتنوّعين الذين كانوا أفرادا، فإذا كان من هؤلاء من استقرّ في دمشق وحلب فإنّ بغداد والموصل لم تشهد استقرار أو توطّن أيّ أوربيّ، وأوّل ما شهد العراق من الجماعات الأوربّيّة الأنكلوسكسونيّة على أرضه، إنّما جاء بعد الاحتلال البريطانيّ للعراق خلال الحرب العالميّة الأولى في التّاريخ المعاصر.

يراها النَّاظرُ في هذِهِ الأماكنِ، وقدْ أشعرَهُم الجوُّ فعلاً بمَا يشبهُ الصَّحراءَ.

كانَ عبورُهُم الزَّابَ لأوَّلِ مرَّةٍ عِنْدَ مرورِهِم في إقليم راوندوز، ذلكَ النَّهرِ الذِي تتَّصِلُ منابعُهُ بـ (العماديَّةِ ـ Amadiyya)[1] وهوَ ذاتُهُ الذِي

(1) العماديّة قلعة قديمة وعريقة في تاريخها الوسيط، تقع على بعد (168كم) شمال الموصِل. اشتهرت كثيرا خلال العصور (بالكرديّة: ئاميدي) هي مدينة قديمة تجلس فوق جبل، ومركز «قضاء» إداري كانت تابعة سابقا للواء الموصل، ثمّ غدت تابعة لمحافظة دهوك، وتتبع اليوم إقليم كردستان، وتقع على بعد (70) كيلومترا شمال مدينة دهوك وتعلو (1400) متر عن مستوى سطح البحر، وكانت مدينة مسورة تضم بوابات قديمة. وتقترب بحدود الـ (10) كيلومترات من الحدود التّركيّة. وأكثر سكّانها من الكرد المسلمين ومن النّواحي التّابعة لها: جامانكي، وسرسنك، وديرلوك، وبامرني، وشيلادزي، وكاني ماسي.
كانت العماديّة التي بناها السّلطان عماد الدّين زنكيّ أمير الموصل على أنقاض قلعتها القديمة «أمات» وسمّيت باسمه، وقد غدت عاصمة لإمارة «بهدينان» الكرديّة التي كانت موالية للدّولة العثمانيّة وتدفع الضّرائب وتؤدّي واجباتها حسب الأصول، إذ كانت قد اتّخذت في أوائل القرن التّاسع الهجريّ مركزا لإمارة البهدينان التي ينتسب أمراؤها إلى الخلفاء العبّاسيّين في بغداد. وكان يسكنها أمير اليزيديّة وكذلك بعض من العرب واليهود والمسيحيّين. وكان هذا أحد أسباب العداء الذي حمله أمير ولاية «سوران» في «راوندوز» للعماديّة ومحاولاته لضمّها؛ بدعوى نشر الإسلام فيها، وقد نجح في احتلالها بالقوّة، وقتل أمير اليزيديّين الذي كان في حماية والي العماديّة.
ثمّة تسجيلات تاريخيّة تقول: إنّ العماديّة تقع على طريق الحرير الاستراتيجيّ، حيث كان تأسّس فيها ثلاثة أبواب، هي: باب زيبار شرقا، ويمتدّ منه أحد المسالك لقوافل الحيوانات نزولا إلى «كلي زنطة» ومنه إلى مدينة أربيل التاريخية، وهناك باب الباشا الذي يرفع شعار الإمارة في أعلاه، ويمتدّ منه مسلك يدعونه «كولانا قوجا» ومنه نزولا إلى «كلي مزيركا» حيث يأخذ المسافرين شمالا وصولا إلى الحدود التّركيّة وتحديدا إلى مدينة «جلميرك» التّاريخيّة الواقعة في أراضي تركيّا. وهناك يقف في الغرب باب الموصل، إذ يمتدّ منه مسلك القوافل غربا وجنوبا إلى مدينة الموصل. وقد أنجز فتح طريق للسّيّارات نحو العماديّة سنة (1914م) من خلال السّولاف.
وقد اكتشفت في العماديّة جملة من الآثار الآشوريّة والعربيّة الإسلاميّة ومنقوشات بالخطّ العربيّ الكوفيّ لآيات قرآنيّة، كما ضمّت العماديّة كنيسة أثريّة وأنقاض كنيس يهوديّ. والقلعة العماديّة الواقعة شمال غرب المدينة،

يتوزَّعُ بينَ بَاشَوِيَّتَيْ بغدادَ والمَوْصِلِ، ويستوطنُ على امتدادِهِ كلٌّ مِنْ قومَي (السُّورانِ ـ Suran) و (بادينا ـ Badina) وذلكَ ضمنَ الامتدادِ الجغرافِيِّ لكلٍّ مِنَ البَاشَوِيَّتَيْنِ، وعلى رقعتِهِما الواحدَةِ تُستقطَبُ كلٌّ مِنْ (راوندوز) في الشِّمالِ الشَّرقِيَّ، و (العمادِيَّةِ) ذاتِ الاتِّصَالِ الاقتصَادِيِّ والثَّقافِيَّ اللَّاحقِ بالمَوْصِلِ إلى الشِّمالِ مِنْهَا.

ويقلبُ «بيركنسُ» صَفحَةَ التَّاريخِ مرَّةً أخرَى وهوَ في طريقِهِ حينَ يذكرُ: إنَّنِي سأكونُ مهتمًّا جدًّا للتَّعرُّفِ فقطْ على المكانِ الذِي عبرَ مِنْهُ (اكزانافون ـ Xenophon)[1] ورفاقُهُ الزَّابَ مَعَ جيشِهِ الذِي يتقدَّمُهُ رماةُ السِّهامِ

وفيها مدرسة أثريّة كانت مخصّصة لتدريس الفقه الإسلاميّ. راجع التّفاصيل عند: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ6، ص 214. وانظر: صدّيق الدّملوجيّ، إمارة بهدينان الكرديّة، الموصل، (1952م). عبّاس العزّاويّ، العماديّة في مختلف العصور، تحقيق: حميد عبد المجيد السّلفيّ. وعبد الكريم فنديّ. أربيل كوردستان، (1998م). وأنور المائيّ، أكراد باهدينان، الموصل (1956م).

(1) اكزانافون Xenophon أو زينوفون (430-354 قبل الميلاد) هو الفيلسوف اليونانيّ، والجنديّ، والمؤرّخ، وكاتب المذكّرات، ومؤلّف العديد من الأطروحات العمليّة حول موضوعات تتراوح بين الفروسيّة والتّاريخ؛ وفي حين اشتهر مؤرّخا، عرف أيضا في العالم الفلسفيّ المعاصر، وهو مؤلّف سلسلة من الرّسومات، كما قدّم مجموعة من صور حيّة ومثيرة للاهتمام من قبل سقراط وعرض بعض التّناقضات الحادّة للصّور المعروفة عند أفلاطون. كان تأثير زينوفون في العصور القديمة، والوسطى، وفي الأوساط الفكريّة الحديثة كبيرا جدًّا منذ وقت مبكر. وكان رائدا للعديد من الأنواع الأدبيّة بما في ذلك مذكّرات أوّل شخص خدم جنديّا في منظومته العسكريّة (وهو يروي معاناته من تفاقم المرض) وقدّم رواية السّيرة الذّاتيّة (وكيفيّة التّعليم من سايروس) والتّاريخ الهيلينيّ (Hellenica) وكان بارعا في تقديم مجموعة كتابات في مجالات تخصّصه تميّزت بسحر تعبيره وأسلوب كتابته واهتمامه بما كان يجري على الأرض. ومن أبرز آرائه التي قدّمها مثلا في واحد من أعماله في الفلسفة الأخلاقيّة، إذ شدّد على أهمّيّة ضبط النّفس، والتي تضمّ واحدة من فضائل الأخلاق لدى الشّعب اليونانيّ. وقد برز ذلك من خلال زينوفون في نواح كثيرة. (انظر ترجمته لاحقا) راجع التّفاصيل في:
Higgins, W., Xenophon the Athenian: the problem of

وقاذفُو المقالعِ؛ ولكنْ ليسَتْ لدينا أيَّةُ مَعلوماتٍ عَنْ تلكَ النُّقطَةِ التِي توقَّفَ عِنْدَها ذلكَ المُؤرِّخُ، ولربَّما كانَتْ في مَوقِعٍ أدنَى مِنْ مكانِنا هذا، وقدْ كانَ نهرُ دجلةَ قريباً إلى جهةِ اليسارِ قليلاً.

إنَّ النَّهر الذِي عيَّنَهُ (اكزانافون) ذو عرضٍ يُقدَّرُ بأربعِ مئةِ قدمٍ،[1] ولابدَّ مِنْ أنَّهُ كانَ منخفِضَاً في ذلكَ الوقتِ، ولمْ يكنْ عرضُ المجرَى بذاتِ الاتِّساعِ يومَ قطَعَهُ «بيركنسُ» إذْ يعتقدُ الأخيرُ في أنَّ اتِّساعَهُ اليومَ يبلغُ سبعَ مئةِ قدمٍ، ولمْ توجدْ أيَّةُ جسورٍ على نهرِ الزَّابِ ـ على حدِّ تعبيرِهِ.

تنتابُ «بيركنسَ» فِكَرٌ عديدَةٌ ذاتُ أصْلٍ دينِيٍّ أسطورِيٍّ للمراثِي الغنائِيَّةِ الكلاسيكِيَّةِ، ثمَّ يعلِّقُ على اسمِ «الزَّابِ» كونَ الأكرادِ يدعُونَهُ (زاي ـ Zay) ويدعُوهُ النَّساطرَةِ (زافا ـ Zava) أمَّا العربُ فيدعُونَهُ (الزَّابَ ـ Zab) وهوَ ما يشتهرُ بِهِ هذا النَّهرُ الأصِيلُ.

وتتشابَهُ في هذِهِ المنطقَةِ ملابسُ أهلِها، فأزياؤُهُم عربِيَّةٌ، وهِيَ ملابسُ سميكَةٌ فضْفاضَةٌ مَعَ أثوابٍ قطنِيَّةٍ بيضَاءَ متكيِّفَةٍ مَعَ الطَّقسِ والمناخِ في السُّهوبِ، فهِيَ متغايرَةٌ في سمكِها، وعباءاتٌ ثقيلَةٌ يتغطُّونَ بها، ولكنَّها متماثلَةٌ مَعَ الأثوابِ، وقدْ ضمَّتْ عدَّةَ ألوانٍ مُبهرجَةٍ، وقدْ عكسَ هذا وذاكَ

the individual and the society of the polis, Albany: State University of New York Press, 1977.
Howland, J., , "Xenophon's Philosophical Odyssey: On the Anabasis and Plato's Republic", in American Political Science Review, 94. 2000. 4: 875- 889.
Johnson, D. , , "Xenophon's Socrates on Justice and the Law", in Ancient Philosophy, 23:, 2003, 255- 281.
Judson, L. and Karasmanis, V. (edd.), , Remembering Socrates, Oxford: Clarendon Press; New York : Oxford University Press, 2006.

(1) انظر كتاب «Anabasis" الجزء 2، الفصل 54، والجزء 3، الفصل 3، هامش بيركنس: (JAOS op. cit. p. 108).

صُورةً مُقارنَةً لَمَا رآهُ «بيركنسُ» مِنْ ملابسَ رثَّةٍ باليَةٍ عِنْدَ أكرادِ المناطقِ الجبليَّةِ العالِيَةِ.

غادرَ ركبُ القافلَةِ ضِفافَ نهرِ الزَّابِ الكبيرِ عِنْدَ غروبِ الشَّمسِ، ومضَى بارتفاعِهِ في سيرِهِ خلالَ الوادِي وعبرَ مجاريهِ، ويصِفُ «بيركنسُ» ذلكَ الوادِيَ الحجريَّ، والحقولَ المحيطَةَ بِهِ والحشائشَ التِي تنموُ في مداخلِهِ. ثمَّ خيَّمَ النُّعاسُ على أعينِهِم بعدَ مسيرِ ثلاثِ ساعاتٍ ونصْفِ السَّاعةِ، قطَعُوا خلالَهَا ما يزيدُ على عشَرَةِ أميالٍ، فانتشرُوا وافترشُوا الأرضَ مِنْ غيرِ أنْ ينصُبُوا خيامَهُم، فقدْ جرَى كلُّ ذلكَ سريعاً حيثُ أخذَهُم النَّومُ، وغطُّوا فيهِ عميقًا.[1]

٩. الأرضُ الكلاسيكيَّةُ

عبرَتْ القافلَةُ أثناءَ سيرِها يومَ 12 مايو / أيَّارَ السَّهلَ الحشائشِيَّ الذِي خيَّمَ عليهِ الظَّلامُ، ووصَلَتْ إلى حقولٍ مَزرُوعَةٍ حنطةً وشعيراً، وعبرُوها تضُمُّهُم السَّنابلُ النَّاضِجَةُ وسيقانُها المثقلَةُ، ثمَّ جنحَتْ القافلَةُ نحوَ الغربِ بعدَ قطعِها اثنَي عشَرَ ميلاً، ووصَلَتْ نهرَ (الخازر ـ Khazir)[2] ذلكَ النَّهرَ

(1) The Letter No. 17, dated 11/ 05 /1849; JAOS, ibid., pp. 9- 106.

(2) الخازر: نهر جار على امتداد السّنة، يقع بين أربيل والموصل، ويبعد عن الموصل نحوا من (٣٧) كم، وقال ياقوت في ضبط اسمه: خازر نهر بين إربل والموصل ثمّ بين الزّاب الأعلى والموصل وعليه كورة يقال لها: نخلا، وأهل نخلا يسمّون الخازر بريشوا، مبدؤه من قرية يقال لها: أربون من ناحية نخلا ويخرج من بين جبل خلبتا والعمرانية وينحدر إلى كورة المرج من أعمال قلعة شوش والعقر إلى أن يصبّ في دجلة، وهو موضع كانت عنده وقعة بين عبيد الله بن زياد وإبراهيم بن مالك الأشتر النخعيّ في أيّام المختار، وقتل يومئذ ابن زياد الفاسق، وذلك في سنة (66) للهجرة / (685م). ولقد وجدت أنّ الخازر يصب في الزّاب الكبير وليس في دجلة. ويكتسب الخازر أهمّيّته الاستراتيجيّة من كونه يفصل ما بين محافظتي نينوى وأربيل.
عن: ياقوت، معجم البلدان، جـ3، ص 388. وانظر: ياسين الخطيب العمريّ، منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق: سعيد الدّيوه جيّ،

الذِي ينسابُ صَافِياً رقراقاً ينزلُ مِنْ نواحِي الجبالِ، وقاطِعاً سهلَ (نوكرَ ـ Noker) ويمتدُّ هذا النَّهرُ على بعدِ أميالٍ عدَّةٍ في الجنوبِ مِنْ خطِّ الرَّحلَةِ؛ ليتَّحِدَ مَعَ نهرِ الزَّابِ الكبيرِ، ويبلغُ عرضُ هذا النَّهرِ نحواً مِنْ مئةٍ وخمسِينَ قدَماً، وقدْ سَهُلَ على القافلَةِ عُبُورُهُ، وهوَ نهرٌ قديمٌ وتاريخِيٌّ أيضَاً! فقدْ اقتتلَ على أحدِ جوانبِهِ الفسيحَةِ كلٌّ مِنَ الإسكندرِ المقدونِيِّ و داريوسَ في معركَةٍ فاصِلَةٍ. ويؤكِّدُ «بيركنسُ» أنَهُ مِنَ المستحيلِ تعيينُ أو ضَبطُ المَوقعِ الصَّحيحِ لتلكَ المعركةِ، أو تقديرُهُ ولو على وجهْ الإجمالِ، ولكنْ مِنَ المُحتَمَلِ أنَّ هذِهِ المعركَةَ وقعَتْ على بعدِ أميالٍ قليلَةٍ إلى اليسارِ مِنْ مسلَكِ الرَّحلَةِ بمسافةٍ تُقدَّرُ بنحوٍ مِنْ خمسَةٍ وثلاثِينَ ميلاً إلى الشِّمالِ الغربِيِّ مِنْ أربيلَ.

يقولُ المُؤرِّخُ (أريان ـ Arrian): إنَّ نقطةَ "كاوكاميلا ـ Gaugam la" تقعُ في "أشوريا ـ Assyria" تلكَ النُّقطةُ التِي تورَّطَ عِنْدَها كلٌّ مِنْ داريوسَ و الإسكندرِ في قتالِهما، ومعركتِهما العنيفَةِ، لقدْ كانَ مكاناً صَغيراً وذا أهمِّيَّةٍ ضَئيلَةٍ جدَّاً، وتُدعَى تلكَ المعركةُ معركةَ (أربيلا = أربيلَ) أمَّا المدينةُ، فقدْ كانَ وجودُها حيَّاً وقريباً إلى أرضِ المعركةِ؛ وتقعُ قريةُ (كوكاميلا) في سهلِ أربيلَ على نهرِ "بامادوس ـ Bumadus" وهِيَ القريةُ التِي اختارَها داريوسُ، ونصَبَ عِنْدَها خيمتَهُ الملكِيَّةَ منتظِراً الإسكندرَ الذِي سحقَهُ فيها، وتركاها وقدْ اصْطَبَغَتْ أرضُها بصَفْحَةٍ حمراءَ مِنَ الدِّماءِ القانِيَةِ، وتراكَمَتْ فيها الجثثُ.[1]

الموصل (1955م) ص 144.

(1) انظر: «كتاب أريان ـ Arrian) الجزء 7، الفصل العاشر والحادي عشر. ثمّ الجزء 3، الفصل الثّامن والحادي عشر" هامش صاحب الرّحلة: (jaos, op. cit., p. 110)

متابعة لما كتبته عن اكزينوفون سابقا، لابدّ لي نت أن أقدّم للقارئ نبذة مختصرة عن المؤرّخ (أريان ـ ARRIAN). هو (فلافيوس أريانوس اكزينوفون ـ F.I. Xenophon) الإغريقيّ الشّهير، ولد في نوكوميديا عاصمة إقليم بثيانيا الرّومانيّ لسنين خلت قبيل سنة (90م) درس الفلسفة، واستفاد من تجاربه ودوره في السّياسة الرّومانيّة في الكتابة والسّياحة والتّقدّم العسكريّ

واصَلَتْ رحلةُ «بيركنسَ» سيرَها، وارتفعَتْ مِنْ ضِفافَ نهرِ الخازرِ، وقطَعَتْ مسافةً تُقدَّرُ بميلَيْنِ، ثمَّ توقَّفَتْ على تلٍّ مَفرُوشٍ بالحشائشِ، وزُوِّدَتْ الجيادُ بالعلفِ، واستراحَ الرَّكبُ بعدَ أنْ تناولَ الجميعُ طعامَ الإفطارِ، وكانَتْ قدْ وصَلَتْهُم جماعَةٌ مِنَ النَّصَارَى اليعاقِبَةِ مِنْ قريةِ (برطلَّةَ ـ Birtilla)[1] وتبعدُ هذِهِ القريةُ عَنْ المَوْصِلِ ما بينَ (12–15) ميلاً، أمَّا

في السّنين اللّاحقة، وله مأثورات عديدة، وقد تقاعد عن عمله قبل موت الإمبراطور هادريان في سنة (138م) وقضى بقيّة عمره في الكتابة. أصبح مواطنا أثينيّا في سنة (145م) ولكنّ تاريخ موته غير معروف، إلّا أنّه يعتقد في أنّه مات نحوا من سنة (180م) وتعدّ كتاباته عن الإمبراطور الإسكندر المكدونيّ في حروبه مع داريوس آثارا قيّمة في تاريخ العراق القديم ونهر دجلة؛ مع وصف دقيق وممتع لبعض من الأماكن العراقيّة العريقة الضّاربة أهمّيّتها في القدم، وهي محفوظة في ثنايا كتابه عن الإسكندر المتألّف من سبعة أجزاء.
اجتزأت هذه التّرجمة عن المقدّمة التي حرّرها ب. راديك لكتاب أريان: وحملة الإسكندر" (The Campaigns of Alexander) الذي ترجمه عن الإغريقيّة إلى الإنكليزيّة: ادبري سيلين كورت، وحقّقه وقدّم له جـ. ر. هاملتون، لندن، (1978م).

(1) قرية «برطلة» (باللّغة السّريانيّة: ܒܪܛܠܐ) بلدة عراقيّة قديمة تقع شرق مدينة الموصل. يحدّها من الشّمال الشّرقيّ جبل مار دانيال، وأهلها من المسيحيّين السّريان الأرثوذكس والكاثوليك، كما تسكن في أطرافها حاليّا أقلّيّة من الشّبك؛ وتحتلّ مكانة مرموقة في تاريخ الكنيسة السّريانيّة بما أنجبته من بطاركة ومفارنة، ومطارنة، ورهبان، وعلماء، وأدباء، وشعراء؛ وخطّاطين، وقد جاء ذكرها منذ أزمنة قديمة تعود إلى عهد الإسكندر المقدونيّ. ويقال: إنّها ازدهرت كثيرا إبّان القرن الثّالث عشر للميلاد، وقال عنها ياقوت الحمويّ (المتوفّى سنة 1223): «برطلّي بفتح الباء وضمّ الطّاء وتشديد اللّام وفتحها بالعصر والإمالة؛ قرية كالمدينة في شرقيّ دجلة الموصل من أعمال نينوى، كثيرة الخيرات والأسواق والبيع والشّراء، يبلغ دخلها كلّ سنة عشرين ألف دينار حمراء. والغالب على أهلها النّصرانيّة وبها جامع للمسلمين وأقوام من أهل العبادة والتّزهّد، ولهم بقول وخسّ جيّد يضرب به المثل، وشربهم من الآبار». وقد تراجع شأنها لاحقا، إذ اجتاحتها النّكبات حتّى تقلّصت اليوم الى ربع حجمها، وقد انتقل إلى برطلة إبّان القرن الثّامن عشر كلّ سريان سميل وبعض من أهل باصخرا وباشبيتا. وقد أحبّها مفارنة المشرق فأقام فيها بعضهم ردحا من الزّمن، وهي من أولى البلدات التي اعتنق أهلها المسيحيّة الأولى، وكانت قد قدّمت أربعين شهيدا في الرّبع الأخير من

عَنْ مسارِ الرَّحلَةِ، فإنَّهُ يبعدُ نحواً مِنْ أربعَةِ أميالٍ مِنْ جهةِ اليسارِ، وكانَتْ تلكَ الجماعَةُ تتكلَّمُ السُّريانِيَّةَ الحديثَةَ على نمطٍ مَفهُومٍ مِنْ صَاحبِ الرِّحلةِ «بيركنسَ» الذِي يذكرُ أنَّ الاختلافَ قليلٌ بينَها وبينَ اللَّهجةِ العامِّيَّةِ المُتداوَلَةِ في أرومِيةَ، وقدْ كانَ بينَ أفرادِ تلكَ الجماعةِ أناسٌ عربٌ مِنَ القريةِ ذاتِها، والذِينَ كانُوا بِدَوْرِهِم يتكلَّمُونَ السُّريانِيَّةَ أيضَاً، ومنذُ ذلكَ الحينِ تعرَّفَ «بيركنسُ» على العائلاتِ العربِيَّةِ القليلَةِ في (برطلَّةَ) وتوجَّهَتْ القافلَةُ مِنْ هذِهِ القريةِ نحوَ مدينةِ المَوْصِلِ التِي تقعُ غرباً على نهرِ دجلَةَ.

١٠ـ سَهْلُ المَوْصِل

كانَ هنالكَ جبلٌ منخفضٌ يقعُ على ميلَيْنِ إلى الشِّمالِ مِنَ المكانِ الذِي توقَّفَتْ عِنْدَهُ القافلَةُ، أمَّا على الطَّرفِ الشِّمالِيِّ الغربِيِّ فتوجدُ عدَّةُ قرَىً يزيدِيَّةٍ،[1] وهناكَ جبلٌ صَغيرٌ يبعدُ بضْعَةَ أميالٍ نحوَ الجنوبِ مِنْ خطِّ سيرِ القافلَةِ.[2]

واصَلَتْ القافلَةُ طريقَها حتَّى السَّاعةِ الواحدَةِ بعدَ الظُّهرِ، وقدْ قطَعَتْ سلسلةً مِنَ التِّلالِ الحشائِشِيَّةِ المرتفعَةِ، وكانَ سَيْرُ «بيركنسَ» مَعَ ركبِهِ فيها سهلاً ومريحَاً ومُيسَّراً، وقدْ بدَتْ جماعاتٌ مِنَ العربِ متوزِّعَةً فيها، كونَها منطقَةً مَألُوفَةً لأغراضِ الرَّعيِ لقطعانِهِم مِنَ الأغنامِ في فصْلِ الصَّيفِ.

القرن الرّابع الميلاديّ، وتأسّست فيها كنائس عديدة وعريقة مع بعض من الأديرة. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، وكتاب البطريرك يعقوب الثّالث البرطليّ. تاريخ الكنيسة السّريانيّة الأنطاكيّة، طبعة بيروت ج1 ص 274، وراجع: البطريرك إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم «اللّؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السّريانيّة» ط1، ص 86. وعرف بها المؤرّخ الموصليّ ياسين العمريّ. المرجع السّابق، ص 131.

(1) لا توجد أيّة قرى لليزيديّة قريبا من برطلّة، وربّما قصد الرّحّالة بيركنس بهذه القرى: بعشيقة، وبحزانيّ من قرى الموصل.

(2) ربّما قصد صاحب الرّحلة بهذا الجبل الصّغير جبل مقلوب الواقع ليس إلى الجنوب من خطّ سير الرّحلة، بل إلى الشّمال من ذلك، وربّما قصد غيره.

وبعدَ أنْ صَعدَتْ القافلَةُ قمَّةَ المُرتَفَعِ انفتحَ أمامَ أعينِهِم المنظرُ الجلِّيُّ الكاملُ لسَهلِ المَوْصِلِ أو «نينوى الشَّرقِيَّةُ» بكلِّ فسحاتِهِ وأطرافِهِ المتجاورَةِ مَعَ الشِّمالِ والغربِ والجنوبِ؛ وكانَ سهلُ المَوْصِلِ ذا اتِّساعٍ كبيرٍ في أمدائِهِ لأبعدِ ما تصِلُ إليهِ العَيْنُ، حيثُ يترامَى بعيداً فلا يحدُّهُ إلَّا السَّماءُ.

يقولُ «بيركنسُ»: لقدْ منحَنِي هذا السَّهلُ الفسيحَةُ أرجاؤُهُ انطباعاً قويّاً عَنْ وجودِ شَيْءٍ ضخمٍ عظيمٍ على الرَّغمِ مِنْ أنَّ وصُولِي إليهِ قدْ جاءَ متأخِّراً.

ويتابعُ بقولِهِ: دخلْنا هذا السَّهلَ المَفتُوحَ على رحبِهِ، وكانَتْ حقولُ القمحِ ناميَةً ومزدهِرَةً، وبدأنا نحثُّ الخطَى نحوَ الجنوبِ الغربِيِّ، وكنَّا أثناءَ عبورِنا متأثِّرينَ بحدَّةٍ وشَغَفٍ غيرِ متناهِيَيْنِ مَعَ أحوالِ نينوى القديمَةِ، تلكَ المدينةِ العظيمَةِ التِي تتوسَّطُ قلبَ سهلِ المَوْصِلِ، هذا السَّهلِ العظيمِ الهائلَةِ خصُوبَتُهُ، الغزيرَةِ مياهُهُ، القادرِ على أنْ يسقِيَ الملايينَ مِنَ البشرِ.

بينَما كانَ أفرادُ القافلَةِ يجتازُونَ هذا السَّهلَ، ولا تزَالُ أمامَهُم عشَرَةُ أميالٍ تفصِلُهُم عَنْ مدينةِ المَوْصِلِ، أخذَهُم اللَّيلُ في طيَّاتِهِ، ثمَّ بدا لهُم أفقُ هذِهِ المدينةِ بعدَ أنْ حجَبَ الظَّلامُ مرآها عَنْهُم حيثُ كانُوا يحتاجُونَ لاجتيازِ المزيدِ مِنَ المسافَةِ، لا سيَّما أنَّ المَوْصِلَ تتبوَّأ مكانَها بانخفاضٍ نسبِيٍّ على الضِّفَّةِ الغربِيَّةِ مِنْ نهرِ دجلَةَ،[1] وترتفعُ أمامَها الرَّوابِي الآثارِيَّةُ عاليَةً على الطَّرفِ المقابلِ؛ تلكَ هِيَ آثارُ نينوى التِي يُعدُّ عُلْوُها عائقاً يحجبُ الأنظارَ مِنْ جهةِ الشَّرقِ عَنْ المدينةِ العريقَةِ والحديثَةِ.

أخذَ «بيركنسُ» مَعَ جماعتِهِ بالارتفاعِ مجتازينَ المسافَةَ المَذكُورَةَ على تلكَ الرَّوابِي ذاتِ الشَّهرَةِ الواسِعَةِ والصِّيتِ المَفتُوحِ في الدُّنْيا، ووصَلُوا أرضَاً

(1) لا أعتقد في أنّ مدينة الموصل القديمة على الجهة اليمنى تتبوّأ مكانها في انخفاض نسبيّ، فهي مرتفعة، ولكن ربّما حجبتها تلول نينوى، وخصوصا تل كوينجق وتل التّوبة حيث مقام النّبيّ يونس.

انكسارِيَّةً،[1] وقدْ ميَّزَها بسهولَةٍ بسببِ قربِها مِنْ آثارِ نينوى العظيمَةِ.

يقولُ «بيركنسُ»: والغريبُ أنَّ انفعالاتِنا كانَتْ في تلكَ اللَّحظاتِ جيَّاشَةً مضْطرِمَةً على الرُّغمِ ممَّا اكتنَفَنا مِنْ ظلماتِ اللَّيلِ حينَ اخترقْنا هذا الطَّريقَ على الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ. ومذْ دخلُوا تلكَ البقاعَ المحيطَةَ بنينوى ذاتَ التَّموُّجاتِ المنكسَرَةِ، فإنَّهُم لحظُوا السَّلاسلَ النِّظامِيَّةَ التِي لا يمكنُ تجاهلُها كبقايا الأسوارِ القديمَةِ في خرابِها، والمُحاذِيَةِ لخطِّ التِّلالِ، تلكَ الأسوارِ التِي أشارَتْ بوضُوحٍ إلى مكانِ نينوى كالطَّللِ القديمِ.

ووصَلَ الرَّكبُ المُتْعَبُ أخيراً إلى قريةٍ تقبعُ عاليَةً بينَ الآثارِ القديمَةِ، تُدعَى باللَّغةِ التُّركِيَّةِ (يونسُ بيغامبر ـ Yunus Pegamber) أمَّا في اللُّغةِ العربِيَّةِ فتُدعَى بـ (النَّبيُّ يونُسَ ـ al-Nabi Younus) وتحتوي هذِهِ القريةُ على جامعٍ كبيرٍ قائمٍ على رابيةٍ عاليَةٍ في سفحِها مَقبرَةٌ قديمَةٌ؛ والاعتقادُ الرَّاسخُ بينَ القاطنِينَ مِنَ النَّاسِ هوَ أنَّ ضَريحَ النَّبيِّ المُبجَّلِ (يونسَ ـ Jonah) في هذا المكانِ المُقدَّسِ.[2]

(1) يقصد الرّحّالة بيركنس بهذه الأرض الانكساريّة منطقة «الدّملماجة» الواقعة شرق نهر دجلة قبالة مدينة الموصل. وهي المنطقة التي ذكرها صاحب رحلة المنشئ البغداديّ بـ«دملجة» ينبع منها الماء العذب. وأصل الكلمة «داملمه جه» تركيّة تعني بالعربيّة «التّرشيح». انظر عنها: عبّاس العزّاويّ في ترجمته لرحلة «المنشئ» البغداديّ سنة (1822م) عن الفارسيّة، بغداد 1848، ص 80.

(2) قرية النّبيّ يونس هي مجموعة من البيوت التي بنيت حول جامع النّبيّ يونس على تلّة عالية، حيث يقوم جامع تاريخيّ يقع على السّفح الغربيّ من تلّ التّوبة في الطّرف الأيسر من الموصل الحاليّة وعند حافّة أطلال نينوى القديمة، وسكّان هذه القرية هم من البيغمباريّة، وهم من أصول تركمانيّة، ويتكلّمون التّركمانيّة، وقد جذبهم مرقد النّبيّ يونس، فتوطّنوا حوله. ولقد جدّد هذا الجامع عدّة مرّات، وقد أقدم تنظيم داعش على تفجير الجامع كلّه في تاريخ 24 / 07 / 2014 الموافق لـ 26 رمضان 1435 هجريّة وذلك ضمن الحملة التي شنّها لتهديم كلّ المساجد والجوامع التي تتضمّن مقاماتها أضرحة، ومن الجدير بالذّكر أنّ جامع النّبيّ يونس كان ولم يزل يحظى بمنزلة

لمْ يتوقَّفْ الرَّكبُ عِنْدَ هذِهِ القريةِ، بل قطعَ ميلاً واحداً، ووصَلَ إلى الضِّفَّةِ الشَّرقِيَّةِ لنهرِ دجلةَ، وحطَّتْ القافلَةُ رحالَها وكانَ أفرادُها مُتعبِينَ، ولمْ يستطيعُوا أنْ يتبيَّنُوا ما كانَ يحيطُ بِهِم مِنْ مناظرَ إلَّا مياهَ دجلةَ المتماوجَةَ مَعَ حركاتِها على نحوٍ باهتٍ مِنَ الضَّوءِ الخافتِ، فباتُوا على الأرضِ لقضَاءِ ساعاتِ اللَّيلِ.[1]

١١ـ جسرُ المَوْصِلِ[2]

أخذَ النَّومُ العميقُ سائرَ أفرادِ القافلَةِ بعدَ انتهاءِ رحلتِهِم الدراماتيكِيَّةِ ووصُولِهِم الأرضَ الكلاسيكِيَّةَ، كانَ النَّسيمُ على شاطِئِ دجلةَ عليلاً منعشاً، ولم يفيقُوا حتَّى مطلعِ الفجرِ؛ وبعدَ أن سطعَ ضَوءُ الصَّباحِ بنورِهِ الوهَّاجِ وقدْ نهضَتْ الشَّمسُ مِنْ هجوعِها، وغلبَتْ على السَّماءِ زرقتُها الجميلَةُ، بعدَ أنْ خفتَتْ بسرعةٍ الألوانُ المُبهرَجَةُ، ولاحَ لأصْحابِ الرَّحلَةِ ذلكَ النَّهرُ المهيبُ بانسيابِهِ الهادِئِ.

إنَّهُ (دجلةُ ـ Tigris) النَّهرُ الشِّهيرُ في الدُّنْيا، وذو العراقةِ التَّاريخِيَّةِ المتأصِّلَةِ والمتزامنَةِ مَعَ عصُورٍ سحيقَةٍ في القدمِ. وبدَتْ أمامَهُم مدينةُ المَوْصِلِ على الشَّاطِئِ المقابلِ للنَّهرِ، وهِيَ ذاتُ مظهرٍ شرقِيٍّ حقيقِيٍّ بجوامِعِها العظيمَةِ ومنائرِها الشَّاهقَةِ، وأبنيتِها المتراصَّةِ. أمَّا على جانبِها الشَّرقِيِّ، فقدْ امتدَّتْ أطلالُ مدينةِ نينوى القديمَةُ التِي كانُوا قدْ مرُّوا مِنْ خلالِها في اللَّيلةِ

خاصّة عند أهالي الموصل، إذ يقصدونه في كلّ الملمّات والصّعاب. ولا يعرف تحديدا تاريخ بنائه، ولكن ذكره أبو زكريّا الأزديّ المتوفّى قريبا من سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة، أنظر: سعيد الديوه جي، جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد، 1963.

(1) The Letter No. 18, dated 12/ 05/ 1849 ; JAOS, op. cit., pp. 109- 111.

(2) للمزيد من المعلومات عن وصف «جسر الموصل» الشّهير، انظر: Stevens, By Tigris and Euphrates, London, 1923 (Chap. XIII MOSUL).

المنصَرِمَةِ.[1]

يرتبطُ كلٌّ مِنْ جانِبَيْ النَّهرِ بجسرٍ يمتدُّ مِنْ قلبِ مدينةِ المَوْصِلِ غرباً نحوَ الحافَّةِ الشَّرقِيَّةِ، ويقومُ هذا الجسرُ على زوارقَ مرتبطَةٍ بعضُها بالآخرِ بصُورَةٍ متراصَّةٍ قاطعَةً النَّهرَ. وتتميَّزُ هذِهِ الزَّوارقُ بأنَّها قديمَةٌ مبنِيَّةٌ على نحوٍ بدئِيٍّ وبصُورَةٍ ضَخمَةٍ ومسطَّحَةٍ مَعَ عُلْوٍ بارزٍ لُمقدَّماتِها، إذْ ترتفعُ رؤوسُها المُدبَّبَةُ بشكلٍ لافتٍ للنَّظرِ، وعلى الرُّغمِ مِنْ أنَّ كلَّ زورقٍ لمْ يكنْ مَتروكاً على الشَّاطِئِ مِنْ دونِ دعامَةٍ أو سندٍ، إلَّا أنَّهُ يعومُ مبتعداً لأكثرَ مِنْ نصْفِ ميلٍ، فيسحبُهُ نحوٌ مِنْ ستَّةٍ أو ثمانِيَةٍ رجالٍ يقفُونَ صَفّاً واحداً في رتلٍ طويلٍ على شاطِئِ النَّهرِ الممتدِّ نحوَ الجسرِ.[2]

وتعومُ الزَّوارقُ الخشبِيَّةُ المَشدُودُ بعضُها إلى بعضِها الآخرِ بوساطَةِ الجلودِ المَنفُوخَةِ الشَّبيهَةِ بتلكَ الجلودِ المُستعمَلَةِ على نهرِ الزَّابِ الكبيرِ، ولكنَّها أكبرُ بكثيرٍ؛ وكذلِكَ تُستعمَلُ تلكَ الجلودُ لأغراضٍ مهمَّةٍ أخرَى، كنقلِ المسافرِينَ في دجلةَ مِنَ المَوْصِلِ إلى بغدادَ وغيرِها الواقعَةِ على بعدِ ثلاثِ مئةِ ميلٍ جنوباً، وكذلِكَ لنقلِ البضائعِ التِّجارِيَّةِ والمُؤَنِ، وقدْ حدَّدَ تُحَمَ بغدادَ الكولونيلُ (وليامز ـ Col. Welliams) المُعَيَّنُ والقائمُ بأعمالِ المُفوَّضِ الإنكليزِيِّ في المَوْصِلِ، وهوَ الذِي كانَ قدْ ذهبَ جنوباً إلى بغدادَ منذُ مدَّةٍ قصِيرَةٍ، وذلكَ بوساطَةِ عوَّامةٍ تحتوي على مئةِ قربَةٍ جلدِيَّةٍ مَنفُوخَةٍ قاطعاً المسافةَ المَذكُورَةَ في ستَّةِ أيَّامٍ، إذْ كانَ يقفُ على شواطِئِ النَّهرِ خلالَ ساعاتِ اللَّيلِ، وكانَ قدْ سافرَ مَعَهُ بعضٌ مِنْ أبناءِ البلدِ مِنَ المَوْصِلِيِّينَ الذِينَ يستعملُونَ الأخشابَ الطَّوَّافَةَ، وكانَ لدَى الكولونيلِ وليامزَ ثلاثُ أو أربعُ كابيناتٍ صَغيرَةٌ نصَبَها على تلكَ العوَّامةِ الكبيرَةِ التِي شغلَها هوَ وجماعَتُهُ

(1) The Letter No. 19, dated 13/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., p. 111.

(2) عن تفصيلات تاريخ «جسر الموصل»: راجع مقالة المؤرّخ سعيد الدّيوجيّ: «جسر الموصل في مختلف العصور» مجلّة «سومر» العدد 10، سنة (1956م).

الكبيرَةُ مِنَ المرافِقِينَ.

ذلكَ هوَ جسرُ القواربِ الشّهيرُ لعبورِ نهرِ دجلةَ في المَوْصِلِ، والذِي يُستعملُ عِنْدَما لا يكونُ النَّهرُ ذا مَنسُوبٍ عالٍ؛ في الوقتِ الذِي تُسحبُ لترسوَ هناكَ في ظروفٍ استثنائِيَّةٍ طارئَةٍ عِنْدَ ارتفاعِ مياهِ دجلَةَ.

إنَّ نهرَ دجلةَ على العمُومِ ذو مجرَىً منحدِرٍ، وسريعُ الجريانِ إلى حدٍّ بعيدٍ، متدفِّقًا كنهرِ الزَّابِ الأعلى. وبناءً على ذلكَ، فإنَّ اسمَهُ (Tigris)[1] يدلُّ على ما يميِّزُهُ، إذْ يعنِي هذا الاسمُ (السَّهمَ) دالًّا على سرعتِهِ الكبيرَةِ، وهوَ ذو حوضٍ رحبٍ جدًّا، ويشقُّ هذا المكانَ مِنَ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ العريقَةِ شقَّيْنِ، فيفصِلُ فيها المَوْصِلَ في الطَّرفِ الأيمنِ عَنْ نينَوى في الطَّرفِ الأيسرِ.

١٢. أطلالُ نينوى[2]

تقابلُ آثارُ نينوى مدينةَ المَوْصِلِ تماماً، وذلكَ بطولٍ يقربُ مِنْ ثلاثَةِ أو أربعَةِ أميالٍ. وتتباعدُ هذِهِ الآثارُ عَنْ نهرِ دجلةَ الفاصِلِ بمساحةٍ منحسرَةٍ

(1) نهر دجلة: من الأنهار العظمى في العالم، ويعدّ أقدمها قاطبة. ينتسب لفظ «دجلة» إلى اللّفظ العبرانيّ «جي دكل» الذي يعني: شدّة الجريان والسّرعة على حدّ سواء. وأمّا اللّفظ اللّاتينيّ 'Tigris' فقد جاء عن 'Tighal' الزّنديّة والنّاشئة من كلمة (تيز = Tig) السّنسكريتيّة، بمعنى "حاد". يبلغ طوله (1146) ميلا. وتجد تفصيلات وافية عن تاريخ نهر دجلة وجيولوجيته وطبوغرافيّته في:

The New Encyclopeadia Britannica, vol. 18, ed. 1974, pp. 6- 402.

(2) تعد نينوى من أشهر المدن التّاريخيّة في حياة حضارات العالم القديم. وهي العاصمة الأخيرة والكبرى من بين عواصم الإمبراطوريّة الآشوريّة. يبدأ عصر نينوى منذ أوائل القرن السّابع قبل الميلاد، وخلال عهود حكم كلّ من: سنحاريب (704-681 ق.م.)، وآشور بانيبال (668-627 ق.م) حتّى انهيار الإمبراطوريّة في سنة (612 ق.م) انظر: طه باقر «مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة» بغداد (1955م). أيضا: «الآشوريّون في التّفسير التّوينبيّ للتّاريخ» مجلّة «بين النّهرين» العدد 13، الموصل (1976م) ص 5-17.

متداخلَةٍ ذاتِ أرضٍ غرينيَّةٍ منخفضَةٍ، لكنَّها تبدُو مرتفعَةً قليلاً عَنْ المجرَى؛ وربَّما كانَ وجودُ هذا السَّطحِ الغرينِيِّ وبهذا الشَّكلِ الطَّبيعِيِّ منذُ عصْرِ ازدهارِ نينوى، وربَّما كانَ نهرُ دجلةَ في مجراه القديمِ قريباً جدَّاً مِنَ المدينةِ القديمَةِ، أمَّا في هذا العصْرِ فإنَّهُ يجري محاذياً لأسوارِ المَوْصِلِ.

تتألَّفُ آثارُ نينوى مِنْ سلسلَةِ تلالٍ شبيهَةٍ بأسوارٍ قديمَةٍ، وهِيَ مشتملَةٌ على مساحةٍ داخليَّةٍ ربَّما تُقدَّرُ بأربعَةِ أميالٍ طولاً، ونحوِ مِنْ ميلَيْنِ عرضَاً، وتبدُو هذِهِ المساحةُ مُسطَّحَةً وهِيَ على الأغلبِ مَحرُوثَةٌ ومُستغلَّةٌ زراعِيَّاً، ويوجدُ على الجانبِ الغربِيِّ مِنْ هذِهِ المنطقةِ رابيةٌ طولِيَّةٌ، هِيَ المُسمَّاةُ تلَّ التَّوبةِ، وأخرَى على مَقرُبَةٍ مِنَ الوسطِ، وهِيَ ذاتُ شكلٍ رباعِيٍّ، ويُقدَّرُ عُلْوُها بخمسِينَ قدَماً، ويبدُو ظاهرُها كعددٍ مُربَّعٍ مِنَ الأعوادِ، وهِيَ قريبَةٌ مِنَ السَّطحِ الدَّاخِلِيِّ نحوَ القمَّةِ، وتتميَّزُ بانحدارِها الشَّديدِ مِنَ الخارجِ، وهِيَ المُسمَّاةُ تلَّ قوينجوق،[1] ومظهرُها الخارجِيُّ متميِّزٌ بانتظامِهِ إلى حدٍّ بعيدٍ، وثمَّةَ فِكَرٌ حديثَةٌ عَنْ القلعةِ والبلاطاتِ والقصُورِ المُطوَّقَةِ والمَدفُونَةِ في قمَّةِ الرَّابيَةِ.

وتتواصَلُ الآنَ الحفريَّاتُ الآثاريَّةُ للتَّنقيبِ عَنْ البقايا القديمَةِ، وعلى الرُّغمِ مِنَ النَّتائجِ العديدَةِ والمهمَّةِ التِي أُحرزَتْ إلى الآنَ ـ على حدِّ ذكرِ «جوستنَ» بيركنسَ ـ إلَّا أنَّ هناكَ عدداً مِنَ الرِّجالِ الذِينَ ما زالُوا يعملُونَ حتَّى هذا اليومِ، وهُم مِنَ الذِينَ كانُوا قدْ استُخدِمُوا مِنْ قِبَلِ المسترِ (هرمزد

(1) قوينجوق: هي مجموعة من التّلول الحاليّة التي تقوم في موطن نينوى العاصمة الآشوريّة القديمة، ولا زالت هذه التّلول تحتوي على ذخائر تلك العاصمة.

رسامَ ـ H. Rassam)[1] والمسترِ (لايارد ـ Layard)[2] وزوجتِهِ؛ ويُعدُّ

(1) يعدّ المستر (هـرمزد رسام) أحد ثلاثة علماء آثار كبار، والذين تعدّهم بريطانيا من عظمائها الذين كانت لهم اليد الطّولى في كشف السّتار عن أعظم الآثار الآشوريّة القديمة وإلقاء الضّوء على مجاهل التّاريخ القديم الذي يحتلّ العراق مركز قوّته ومكانته وعظمته فيه إبّان العصور الكلاسيكيّة؛ وتزيّن لوحات مصوّرة زيتيّة لهؤلاء الرّجال الأركيولوجيّين الثّلاثة القاعة الآشوريّة السّفلى من المتحف البريطانيّ بلندن، وهم: هنري لايارد، وراولينسون، وهرمزد رسام، إضافة إلى لوحة أخرى في مكان آخر لكلوديوس ريج.
جاء عن هرمزد رسام في نشرة «المتحف البريطانيّ» الصّادرة سنة (1977م): هرمزد رسام، الشّابّ الموصليّ المسيحيّ الذي عمل تحت إدارة راولينسون بشكل مستمرّ للمدّة (1852–1854م). ويعدّ مساعدا قويّا للمكتشف الآثاريّ الأوّل «هنري لايارد» في تنقيباته، والذي اكتشف في النّمرود معبد الإله والحكمة والكتابة، وافتتح في نينوى البلاط الشّماليّ للملك آشور بانيبال مع مكتبة معبد (نابو ـ Nabu) المتنوّعة التي اكتشفت من قبل "هنري لايارد" في بلاط سنحاريب. وفي خلال المدّة (1878–1880م) رجع هرمزد رسام إلى حقل التّنقيب بعد انقطاع ليعمل في النّمرود ونينوى وآشور وغيرها من الأماكن، واكتشفت على يديه العديد من المأثورات البرونزيّة الثّمينة التي تعود للبلاط الصّغير لآشور ناصر بال الثّاني وشلمنصر الثّالث. ويذكر العالم البريطانيّ (H.W.F. Saggs) في مقدّمته لكتاب لايارد أنّ هرمزد رسام قد تخرّج في إنكلترا بعد أن اصطحبه هنري لايارد معه إليها، إضافة إلى مشاركته لايارد في سفره عبر جبال كردستان في شمال العراق سنة (1846م).
وهرمزد رسام هو أخو كريستيان رسام نائب القنصل البريطاني في الموصل.
انظر: H.A. Layard, op. cit., the Introduction by H.W.F. Saggs, p.7.

(2) المستر أوستن هنري لايارد (الذي اكتسب لقب السّير بعدئذ): يعدّ المكتشف الأوّل للعديد من البلاطات الآشوريّة الموجودة ـ اليوم ـ في أروقة المتحف البريطانيّ.
أجرى عمليّاته في التّنقيب خلال المدّة (1845–1847م)، والمدّة (1849–1851م). وقد اكتشف في النّمرود البلاط الشّماليّ الغربيّ للملك آشور ناصر بال، وملاحق معابد اشتار ونينورتا والبلاط المركزيّ لـ تغلاث ـ بليصر الثّالث (744–727 ق.م.). وأدت اكتشافاته في نينوى في تلول قوينجوق إلى الحقل الأساسيّ الآثاريّ الأوّل لنينوى والتي قادت إلى ظهور البلاط الجنوبيّ الغربيّ للملك سنحاريب، وغيرها من البنايات وما تزخر به من اللّوحات التي تروي بصورة جدّيّة وأمينة مشاهد الحروب. وعمل لايارد كذلك منقّبا في آشور، وخرسباد، وشريف خان (تربيصو) وتل النبي يونس، وهو الحقل

المسترُ لايارِدُ قائداً لهذا المَشرُوعِ الكبيرِ، على الرُّغمِ مِنْ أنَّهُ ـ شخصِيَّاً ـ غائبٌ الآنَ في زيارتِهِ لإنكلترا.

يذكرُ «بيركنسُ» في حديثِهِ عَنْ الحفريَّاتِ والآثارِ في نينوى قائلاً: (لقدْ انتابَنا الذُّهولُ بمُجرَّدِ فحصِنا لتلكَ الحفريَّاتِ، إذْ كانَتْ بالنِّسبةِ لنا ذلكَ النَّوعَ النَّادرَ الذِي كرَّسْنا لَهُ أوقاتَنا، أمَّا التَّحدُّرُ مِنَ الأعلَى والنُّزولُ إلى باطنِ الأرضِ، فقدْ تمَّ ذلكَ بوساطةِ الدَّرجِ الأرضِيِّ الذِي نظَّمَهُ الحفَّارُونَ، والمُكَوَّنِ مِنْ عشرينَ أو ثلاثِينَ قدَماً، وزيادةً على ذلكَ؛ فإنَّ هناكَ نفقاً عابراً مِنْ تحتِ الأرضِ لَهُ شكلٌ أفقِيٌّ، وقدْ انحدرْنا داخلَهُ، وفاجأتْنا تلكَ القصُورُ الرُّخامِيَّةُ القديمَةُ، وكانَتْ الجدرانُ مَنحُوتَةً بصُورَةٍ جميلَةٍ جدَّاً، وقدْ انشرَحَتْ صُدُورُنا وملأنا الإعجابُ والسُّرورُ الذِي لا يُوصَفُ، وكانَ كلُّ ما نرَاهُ في مُشاهداتِنا لهذِهِ المتاحفِ العريقَةِ جديداً وغريباً ومدهشاً لأعينِنا، وقدْ مرَرْنا في الصَّالوناتِ العظيمَةِ المُزيَّنَةِ بألواحٍ رخامِيَّةٍ شتَّى مُطبَّقَةٍ الواحدَةَ فوقَ الأخرَى، عُلْوُ كلِّ لوحَةٍ نحوٌ مِنْ ستَّةِ أقدامٍ، وطولُها ثمانِيَةٌ، أمَّا سُمْكُهَا فيتراوحُ بينَ سبعٍ إلى ثمانِ بوصَاتٍ.

الرّئيس الآثاريّ الآخر من نينوى.
رحل لايارد في أيلول ـ سبتمبر سنة 1846م قاطعا شمال العراق، رجع أخيراً إلى بلاده متقاعدا ليدخل عضوا في البرلمان البريطانيّ سنة (1851م) ليأتي بعده دور الميجر (السّير لاحقا) هـ.ك راولينسون مقيم شركة الهند الشّرقيّة في بغداد (1843–1855م). انظر التفاصيل :
(ibid., the Introduction by H.W.F. Saggs, pp.4- 13)
لم يكتف لايارد بنقل الآثار الآشوريّة (العراقية) من مهدها إلى بلاده (بريطانيا)، بل لوجدت أنّ زوجته المسز لايارد كانت لها عنايتها الكبيرة بالمخطوطات العربيّة والسّريانيّة مع اطّلاعها الواسع على قيمتها، وبناء عليه قامت بشراء بعضها، ونقلته إلى بريطانيا، وقد بقيت في مكتبة المتحف البريطانيّ، وأهمّها مخطوطات الموصل ؛ وقد ظهر ذلك لي من اطّلاعي على تواقيعها في تلك المخطوطات. وهناك مخطوطات أخرى من الموصل نقلها إلى لندن كلّ من لايارد نفسه وصاحبه هرمزد رسام. وتحترز عليها اليوم المكتبة البريطانيّة The British Library.

إنَّ التَّماثيلَ جميعَها مَنحُوتَةٌ ومَنقُوشَةٌ تصَوِّرُ مناظرَ روحِيَّةً مختلفَةً، تحتوي مَشاهدَ علمِيَّةً متنوِّعَةً، فهناكَ المُطارَدَةُ في المعاركِ، وهناكَ تسلُّحُ المحاربِينَ بأنواعٍ عديدَةٍ مِنَ الأسلحةِ: الرِّماحُ، والأقواسُ، والسِّهامُ، والمقالعُ، والسُّيوفُ، أمَّا المنتصِرُونَ، فإنَّهُم غالباً ما يحملُونَ رأسَيْنِ في يدٍ واحدَةٍ، الأوَّلُ مِنْ لحيتِهِ والآخرُ مِنْ شعرِ الجمجمَةِ، ويهدِّدُونَ عدوَّهُم بالسِّلاحِ في اليدِ الأخرَى. وهناكَ مَشاهدُ عديدَةٌ لقلاعٍ مُحصَّنَةٍ ومُطوَّقَةٍ، كما تبدُو مَشاهدُ عديدَةٌ أخرَى لقافلَةٍ مِنَ الجِمالِ، والخيلِ، والبغالِ، وتجرِي الأنهارُ في جوانبِ تلكَ القلاعِ العاليَةِ الفخمَةِ في حينِ تتلاعَبُ الأسماكُ في مياهِ تلكَ الأنهرِ؛ ويبدُو واضِحاً ذلكَ الطَّريقُ الحجرِيُّ الواسعُ للقوافلِ، والذِي يترامَى وراءَ تلكَ القلاعِ العظيمَةِ، ثمَّ يُحجبُ عَنْ الأبصَارِ، وتعالَتْ في الجانبِ الآخرِ شجرةُ نخلٍ باسقَةٌ، متلبِّسَةٌ بسعفِها، ومكتنزَةٌ ثمارَها).

ويتابعُ الرَّحَّالةُ «بيركنسُ» حديثَهُ عَنْ آشورِيَّاتِ نينوى ووصْفَهُ لآثارِها الثَّمينَةِ فيقولُ: (ثمَّ مضَيْنا لمُشاهِدَةِ ألواحٍ أخرَى، فوجدْنا عدداً مِنْهَا مَخطُوطاً بالأحرفِ المسمارِيَّةِ، وقدْ كانَتْ واضِحَةً على نحوٍ اعتيادِيٍّ، وهِيَ أقلُّ في نينوى ممَّا هِيَ عليه في (النَّمرودِ ـ Nimrood).[1] لقدْ عبرْنا عدَّةَ صَالونَاتٍ

(1) النّمرود: هي العاصمة الآشوريّة الثّانية بعد آشور، عاشت أيّامها على عهود كلّ من الملك آشور ناصر بال الثّاني (883–859 ق.م.) والملك شالمنصر الثّالث (858–824 ق.م.) والملك شمش ادد الخامس (823–811 ق.م.) والملك ادد- نيراري الثّالث (810–783 ق.م.) وأخيرا الملك تيغلاث ـ بليصر الثّالث (744 ـ 727 ق.م.) حتّى أواخر القرن الثّامن قبل الميلاد.
تقع المدينة شرق نهر دجلة، وجنوب شرق الموصل بنحو من (18) ميلا، وتعدّ اليوم قرية من أعمال الموصل. ويعدّ كتاب الأركولوجست «مالاوان» عن النّمرود (بمجلّدين كبيرين) من أحدث وأوسع وأهمّ الكتب، وذلك من نواح شتّى: وصفها، وآثارها وتواريخ عهودها، ولوحاتها وكتاباتها ونقوشها؛ مستعينا بعشرات الصّور الفوتوغرافيّة. كما يعدّ هذا الكتاب من أهمّ كتب علم الآثار، وحريّ بالعلماء العراقيّين ـ اليوم ـ ترجمته إلى العربيّة وتقديمه إلى أبنائهم. M.E.L.
Mallowan, NIMRUD and its Remains, 2 vols., London,

أطوالُها أكثرُ مِنْ مئةِ قدم، وتتماثلُ في أشكالِها وأجوائِها الرُّوحِيَّةِ، وكانَتْ بعضٌ مِنْ ألواحِها مَشُوبَةً بالسَّوادِ، وكأنَّ هذِهِ البلاطاتِ قدْ تساقطَتْ محترقَةً، وكانَتْ هناكَ قطعٌ مِنَ الفحمِ.

لقدْ كانَ صَعباً علينا جدَّاً أنْ نحرِّكَ تلكَ الصُّخورَ مِنْ أماكنِها في هذِهِ الحفريَّاتِ وعمليَّاتِها، ويقومُ العمَّالُ هنا بتحطيمِ الصُّخورِ بقطعِها ليسهلَ بعدَ ذلكَ تحريكُها؛ ومِنَ المُحتمَلِ أنْ نجدَ الصُّخورَ في النَّمرودِ أقربَ كثيراً إلى السَّطحِ. وعلى أيَّةِ حالٍ، فإنَّ فنونَ النَّحتِ هنا في نينوى وعلى أسوارِها كاملَةٌ جدَّاً ونَظيفَةٌ،[1] وإنَّ المَلحُوظَةَ الجديرَةَ بالذِّكرِ، هِيَ أنَّ الصَّالوناتِ والغرفَ ليسَ لها نوافذُ، وبناءً عليه يمكِنُ تقديرُ أنَّ سكَّانَها كانُوا يتلقَّونَ النُّورَ مِنَ

1966.

المعلومات المختصرة، تراها في: The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 349. ويقع بالقرب من المنطقة في قضاء الحمدانيّة، دير الشّهيدين مار بهنام وأخته مارت سارة (بالسّريانيّة: ܕܝܪ ܡܪܝ ܒܗܢܡ ܘܡܪܬ ܣܪܬ) وهو دير للسّريان الكاثوليك، ويبعد مسافة (14) كم جنوب بلدة بخديدا ونحواً من (30) كم جنوب شرق الموصل؛ ويرجع تاريخ الدّير إلى القرن الرّابع الميلاديّ حيث يرتبط بقصّة الأمير الآشوريّ مار بهنام الذي أصبح مسيحيّا مع أخته سارة وبرفقتهما جماعة يقدّر عددها بأربعين من أتباعهما على يد مار متّى، فلمّا علم والده الملك سنحاريب بالأمر أمر بقتلهم جميعا؛ غير أنّ سنحاريب ندم ندما شديدا على ذلك فاعتنق المسيحيّة، وأمر ببناء الدّير تكفيرا عن ذنبه.

تبع الدّير الكنيسة النّسطوريّة ردحا من الزّمن حيث توجد به كتابات يغوريّة نادرة تعود إلى الرّهبان المنغول النّساطرة الذين كانوا يحجّون إليه. انتقل إلى يد السّريان الأرثوذكس حيث أصبح مركزا للملافنة السّريان منذ القرن الخامس عشر، ومن ثمّ للسّريان الكاثوليك بعد تحوّل أهالي بلدة بخديدا إلى الكاثوليكيّة في القرن الثّامن عشر. وأعيد ترميم الدّير وتوسيعه سنة (1986م). ويعدّ اليوم من المراكز الدّينيّة المهمّة في العراق حيث يزوره المسيحيّون والمسلمون على حدّ سواء من أجل التّبرك. ويقال: إنّ هذا الدّير القديم قد تمّ تفجيره تماما على أيدي مسلّحي داعش عام (2014 -2015م).

(1) The Letter No. 20, dated 16/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 112- 115.

السُّقوفِ. أمَّا الشَّيءُ الآخرُ الذِي لفَتَ انتباهَنَا وأنظارَنَا، فهوَ لحظُ تلكَ التَّماثيلِ الأنثويَّةِ التِي كانَتْ مُعلَّقَةً في الأعلى، تستشرفُ القاعاتِ وفسحاتِ الغرفِ، وكانَتْ تلكَ التَّماثيلُ مَخرُوطِيَّةَ الرُّؤوسِ ومَرصُوفَةَ الذَّوائبِ).[1]

ويستطردُ الرَّحَّالةُ «بيركنسُ» في حديثِهِ عَنْ آثارِ نينوى ليخبرَنا عَنْ اثنيْنِ مِنَ التَّماثيلِ العظيمَةِ، هما على شكلِ ثورَيْنِ كبيرَيْنِ، كانا فيها[2] لمدَّةٍ بيسَتْ طويلَةٍ منذُ ذلكَ الحينِ، إذْ إنَّهُما كانا قدْ اكتُشِفا في (خرسباد – Khu subad) مِنْ قِبَلِ القنصُلِ الفرنسِيِّ (المسيو بوتا[3]) الذِي باعَهُما بدورِه إلى

(1) ذؤابة كلِّ شيء، أعلاه أو قمَّته وناصيتُه.

(2) تسمّى هذه المنطقة التي تقع اليوم في قلب الجانب الأيسر من مدينة الموصل «تل قوينجوق» وهو التّل الرّئيس من مجموعة كبيرة من التّلول الواسعة التي تشكل حلقة لها استداراتها المترامية والحاوية أطلال العاصمة العظمى الكلاسيكيّة (نينوى)، وهي ذات شكل مستطيل غير منتظم الأبعاد، وآثار سورها الدّاخليّ واضحة، وطوله (12) كم، ويجري مخترقا هذه العاصمة التّاريخيّة (مجموعة التّلول) نهر الخوصر، أمّا اليوم، فتقوم على الطّرف الشّماليّ من أطلال العاصمة نينوى أبنية المركز الجامعيّ لكلّيّات وأقسام جامعة الموصل الحديثة. راجع تفصيلات مادّة ‹Neneveh› في:

The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 351.

إضافة إلى معلومات وافية عن "محافظة نينوى".

(3) القنصل الفرنسّي في الموصل هو المسيو ب.ي. بوتا، المسيو باولا ميلي بوتا (P.E. Boota): القنصل الفرنسيّ في الموصل الذي أتاها بعد أن كان يشغل ذات المنصب في الإسكندريّة واليمن. شارك بوتا ضمن أعمال لايارد، وكان عمره آنذاك 40 سنة، وقد حصل على نتائج عديدة ضمن نطاق تنقيباته في خرسباد ونينوى. تعلّم بوتا الكثير من أعمال التّنقيب وقضايا الحفريّات والعمليّات والفحوصات التي تجري لحفظ "الأنتيكات" الآشوريّة، وتقدير أعمارها من لايارد لملازمته إيّاه، إذ بموجب ما ذكره لايارد، فإنّ بوتا لم يكن عالما ولا بمؤرّخ كلاسيكيّ (مشتغل على العصور القديمة) لذا فقد استفاد من لايارد الكثير، ولم يوفّق في بداية عمله، ولكنّه نجح بصورة كبيرة بعد أن تقاعد لايارد وقادته أعماله في تلّ قوينجوق بنينوى إلى اكتشاف آثار خرسباد. هذا إلى جانب عمله كقنصل لفرنسا في الموصل، وقد جرت تنقيباته تحت رعاية الحكومة الفرنسيّة. راجع عنه في كتاب "لايارد" المذكور آنفا، ولمزيد من

الميجرِ (راليونسون ـ Major Rawlinson)[1] وكانا مِنْ أكبرِ الثِّيرانِ المُكتشَفَةِ، وقدْ قطِّعَتْ التَّماثيلُ على كتلٍ رخاميَّةٍ بمساحَةِ خمسَةَ عشَرَ قدماً مُربَّعَةً، وبسمكِ قدمَيْنِ ونصْفِ القدمِ، وكانَ كلُّ تمثالٍ يتألَّفُ مِنْ أربعِ قطعٍ، وذلكَ لغرضِ نقلِها عَنْ طريقِ نهرِ دجلةَ جنوباً إلى بغدادَ؛ ومِنْ ذلكَ المكانِ إلى انكلترا!.

التّفصيلات عن بوتا، انظر:

Seton Lioyd, The Archaeology of Mesopotaima, London, 1978, p.139

وهذا الكتاب هو من أحدث الأعمال المختصّة بحقل "الأركيولوجيّ" المتعلّق بشؤون آثار العراق. وهو الكتاب المحدث الثّاني الذي أودّ أن ألفت إليه نظر زملائي المؤرّخين والآثاريّين العراقيّين، بغرض العمل على ترجمته إلى اللّغة العربيّة.

(1) مُنِحُ راولينسون بالاشتراك مع لايارد درجة الشرّف كمؤسّسين لعلوم «الآشوريّات» ومحتويات عصورها التّاريخيّة والحضاريّة لـ «آشورلوجيّات» المتحف البريطانيّ. ويعدّ راولينسون عالما كلاسيكيّا من الطّراز الأوّل، حسب تصنيف الدّوائر البريطانيّة ولكنّه لم يكن بمقدّر لأيّ فن آخر كالذي تحتويه المعلومات الإغريقيّة. وكان أكبر من لايارد سنّا بسبع سنين، تلقّى علومه العسكريّة في شركة الهند الشّرقيّة في عام (1837م) وتعلّم بصورة جدّيّة اللّغات الشّرقيّة، وتنقّل في أماكن عديدة من الشّرق الأدنى. أخباره التّفصيليّة في مقدّمة د. ساكس لكتاب لايارد، انظر:

H.A. Layard, op. cit., introduction by H.W.F. Saggs, pp. 19- 20.

١٣ـ جامع النَّبيِّ يونسَ[1]

غادرَ بيركنسُ مَوقعَ الحفريَّاتِ التِي كانَتْ تجرِي عمليَّاتُها في تلكَ الرَّابيَةِ العاليَةِ والمتكوِّنَةِ مِنْ قلعةِ البلاطاتِ، وتابعَ سيرَهُ جنوباً متوجِّهاً نحوَ السُّورِ الشَّرقِيِّ لمسافةٍ تقربُ مِنْ نصْفِ ميلٍ، ووصَلَ إلى رابيةٍ أخرَى (تلُّ التَّوبَةِ) وكانَتْ بذاتِ قياسِ الرَّابيَةِ الأولى، ولكنَّها كانَتْ تبدُو ذاتَ هيئَةٍ منتظمَةٍ وأدنَى مُستوىً، وأنَّها تتحلَّقُ حولَ قاعدَةِ تلكَ المستقرَّةِ. وتقومُ قريةٌ على حافَّةِ مُنحدَرِها، ويتعالَى في الطَّرفِ الشِّماليِّ مِنْ هذا التَّلِّ، وعلى القمَّةِ ذلكَ الجامعُ العظيمُ الذِي يحوي ثاوياً ضَريحَ النَّبيِّ يونسَ (ع) ويُطلَقُ اسمُ (النَّبيَّ يونسَ) على كلٍّ مِنَ الجامعِ ذاتِهِ والقريةِ التِي يقومُ فيها.

يقولُ الرَّحَّالةُ «بيركنسُ»: (لقدْ زرْنا ذلكَ الضَّريحَ المُقدَّسَ، وهوَ ضَريحٌ صَغيرٌ تحتويه غرفةٌ معتمَةٌ في ذلكَ الجامعِ الكبيرِ؛ ويتكوَّنُ الضَّريحُ المُقدَّمُ مِنْ صُندوقٍ كبيرٍ مُقوَّسِ الجوانبِ، طولُهُ عشرَةُ أقدامٍ، وعرضُهُ خمسَةُ أقدامٍ، ويتراوحُ عُلْوُهُ ما بينَ ثلاثَةٍ إلى أربعَةِ أقدامٍ، ويبدُو الصُّندوقُ مَكسُوَّاً

(1) جامع النّبيّ يونس: من أكبر وأوسع جوامع الموصل على مرّ تاريخها العربّي الإسلاميّ. يقوم عاليا على التّل الذي يدعى «تلّ التّوبة» بني بعد التّحرير العربيّ للموصل على أنقاض «كنيسة» قديمة، ثمّ جددت بناءه في القرن الرّابع الهجريّ جميلة بنت ناصر الدّولة الحمدانيّ وأوقفت له. وتطوّر في القرن السّادس الهجريّ تطوّرا مشهودا ليشتمل على بيوت ومقصورات ومطاهر وسقايات، كما يذكر ذلك ابن جبير في زيارته له سنة (580هـ) – وفي سنة (757هـ) جدّده ووسّعه جلال الدّين إبراهيم الخنّيّ. وتعرّض الجامع للنّهب والسّلب، وأتلفت محتوياته من قبل الإيرانيّين أثناء غزو «نارد شاه» وجيوشه للعراق، وحصاره للموصل سنة (1743م) الذي باء بالفشل، وقد جدّد أثاثه وسجّاده والي الموصل الجليليّ الحاج حسين باشا بعد رحيل نادر شاه إلى بلاده مخذولا مدحورا. انظر ما كتبه عنه المؤرّخ سعيد الدّيوه جيّ في كتابه: «جوامع الموصل» بغداد، (1963م) ص 73–107. وراجع التّفاصيل في: سيار الجميل، حصار الموصل واندحار نادر شاه عام (1743م / 1156هـ) ط1 (الموصل، بيت الموصل للطّباعة والنّشر، (1990م) ولقد تمّ تفجير هذا «الجامع» الذي كان أهل الموصل يعتزّون به غاية الاعتزاز؛ من قبل جماعات داعش في عام (2014م).

بأغطيَةٍ متدلِّيَةٍ تؤلِّفُها طيَّاتٌ مِنَ الحريرِ والجوخِ؛ أمَّا أعمدَةُ الزَّوايا الأربعِ، فقدْ كانَتْ مرتفعَةً قليلاً فوقَ ذلكَ الصُّندوقِ، وقدْ ذُيِّلَتْ أواخرُ تلكَ الأعمدَةِ بحلقاتٍ كبيرَةٍ مِنَ الذَّهبِ، أمَّا جدرانُ الغرفةِ فقدْ كانَتْ مُوشَّاةً بالفسيفساءِ، فيبدُو منظرُها رائعاً لَمَا احتوتْ عليه مِنْ أشكالٍ ورسومٍ جميلَةٍ، أمَّا أرضِيَّةُ ذلكَ المكانِ، فقدْ كانَتْ مَفرُوشَةً بالسَّجَّادِ النَّفيسِ، كما عليه الحالُ في جميعِ رحابِ أرضِ ذلكَ الجامعِ الكبيرِ).

ويتابعُ «بيركنسُ» وصْفَهُ الدَّقيقَ لهذا الجامعِ الشَّهيرِ، فيقولُ: (إنَّ هذا الضَّريحَ مُبجَّلٌ مِنْ قِبَلِ الجميعِ، ويُنظَرُ إليهِ باحترامٍ وإجلالٍ نظراً لقدسيَّتِهِ العظيمَةِ، ولا يُسمحُ بالدُّخولِ إليهِ إلَّا للقليلِ، وبصُورَةٍ مُطَّرِدَةٍ مِنْ قِبَلِ المَوْصِليِّينَ، وقدْ أحرزْنا حظوتَنا بالدُّخولِ إليهِ بوساطةِ المسترِ «هرمزد رسامَ» ومُسانَدَتِهِ ورعايتِهِ، وأسبغَ علينا هذا الرَّجلُ المزيدَ مِنْ لطفِهِ وفضْلِهِ ومَعرُوفِهِ؛ ويظنُّ بعضُهُم، أنَّ هذا الجامعَ الكبيرَ بُنِيَ فوقَ مَعْبَدٍ قديمٍ؛ ولكنَّنا ـ مِنْ غيرِ رَيْبٍ ـ لمْ نعترضْ، وذلكَ للاعتقادِ الشَّديدِ أو الثِّقةِ العاليَةِ في الرَّأيِ السَّائدِ هنا بكونِ هذا الصُّندوقِ العظيمِ يحتوي على رفاتِ النَّبيِّ يونسَ (ع) كَمَا كنْتُ قدْ ذكرْتُ سلفاً، إذْ إنَّنا لا نشكُّ أبداً في مَوقِعِ نينوى، ونحسبُ ذلكَ في تقديرِنا لمكانِ هذا المرقدِ، فربَّما كانَ مَوجُوداً في منطقةٍ مُجاورَةٍ؛ المهمُّ هوَ أنَّ هناكَ العديدَ مِنْ كبارِ المُؤرِّخينَ لمُعظَمِ الأحقابِ التَّاريخيَّةِ القديمَةِ يوافقُونَنا، وهذا ما يجعلُنا مطمئنِّينَ إلى أنَّنا قدْ قدَّمْنا قدراً كبيراً مِنَ البراهِينِ المُرْضِيَةِ مِنْ خلالِ وقوفِنا على أطلالِ نينوى).[1]

(1) لقد تمّ تفجير جامع النّبيّ يونس من قبل تنظيم داعش في الموصل يوم 24-7-2014.

١٤ـ خرسبادُ وأماكنُ أخرَى

تشتملُ أحاديثُ الرَّحَّالةِ «بيركنسُ» على ذكرِ خرسبادَ، إذْ يذكرُ أنَّ المسترَ «بوتا»[1] كانَ مواصِلاً بحوثَهُ في مَوقِعِ (خرسباد ـ Khursubad)[2] وتقعُ خرسبادُ على بعدِ نحوٍ مِنْ ستَّةَ عشَرَ ميلاً، وتقعُ المنطقَةُ كاملَةً على بعدِ ثمانِيَةَ عشَرَ ميلاً شرقَ نهرِ دجلةَ، في حينِ تبعدُ النَّمرودُ ميلَيْنِ عَنْهُ مِنْ جهةِ الشَّرقِ أيضَاً.

يقولُ «بيركنسُ»: وتعطِينا مُحَصَّلَةُ الجهودِ التِي قامَ بها كلٌّ مِنَ المسترِ «لايارد» والمسترِ «رسامَ» افتراضاً يطرحُهُ الأخيرُ لمَشاهدِ الأماكنِ الثَّلاثَةِ {نينوى وخرسبادَ والنَّمرودِ} كونَها مَواقعَ لعدَّةِ مدنٍ مختلفَةٍ، ولكنَّ الأدلَّةَ الحاضِرَة تشيرُ إلى اتِّجاهٍ ذي علاقةٍ مركزِيَّةٍ يربطُ جميعَ المنطقةِ بنينوى، فهِيَ اسمٌ عامٌّ لها؛ فالاسمُ نينوى هوَ الاسمُ العظيمُ في العصُورِ المتقدِّمَةِ والشَّبيهِ باسمِ لندنَ في عصْرِنَا الحاضِرِ، فقدْ استطاعَتْ نينَوى أنْ تبتلعَ بصُورَةٍ كبيرَةٍ نسبِيًّا العديدَ مِنَ الضَّواحِي المتاخِمَةِ والمَذكُورَةِ آنفاً. وقدْ قُدِّرَ لنينوى أنْ تكونَ مدينةً عظيمَةً واستثنائِيَّةً فوقَ العادةِ، ويستغرقُ السَّفرُ فيها وقطعُها مدَّةَ ثلاثَةِ أيَّامٍ كاملَةٍ! بل لعلَّها تحتاجُ لوقتٍ أكثرَ، فهِيَ تشتملُ على المسافةِ

(1) تسمّى هذه الرّابية، التّلّ الثّاني الكبير بعد تلّ قوينجوق. وتدعى «تلّ النّوبة». وقد ورد ذكرها عند: المسعوديّ: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، جـ1، مصر، (1346هـ) ص 133.

(2) خرسباد: واسمها القديم (دور شروكين) أي «مدينة سرجون» هي العاصمة الآشوريّة الثّالثة بعد آشور والنّمرود، قامت حياتها الآشوريّة على عهد الملك سرجون الثّاني (721–705 ق.م.) الذي اتّخذ له فيها قصرا ومعبدا. واصل بوتا حفريّاته فيها حتّى سنة (1844م) ثمّ جرت تنقيبات أخرى فيها للمدّة (1852–1854م) واكتشفت فيها العديد من الآثار المهمّة، ولكنّ معظمها فقد في شط العرب عندما غرق القارب الذي يحملها قرب البصرة في مايو (1855م) وذلك أثناء استلابها من مواطنها الأصليّة وإرسالها إلى أوروبّا. للمزيد
The New Encyclopeadia Britannica, vol. v, ed. 1974, p. 793.

الحقيقِيَّةِ على الأقلِّ بينَ المدنِ المحلِّيَّةِ الثَّلاثَةِ واحدَةً تلوَ الأخرَى). هذا ما ينظرُ إليهَ المسترُ «رسامُ» والذِي يعنِي بوضُوحٍ ما يُرَى مِنَ المَوْصِلِ لأطلالِ نينوى المقابلَةِ لها على الطَّرفِ الآخرِ مِنْ نهرِ دجلَةَ، أمَّا (رسن ـ Resen) فإنَّ آثارَها تُرَى واضِحَةً مِنَ النَّمرودِ.

أمَّا (الكالح ـ Kalih)[1] في «الشَّرقاطِ» التِي تبعدُ نحواً مِنْ ستِّينَ أو سبعِينَ ميلاً جنوبَ المَوْصِلِ على ضِفَّةِ نهرِ دجلةَ، فإنَّها تشغلُ مَعَ آثارِها مساحةً تُقدَّرُ بثلاثَةِ أضْعافِ الرُّقعَةِ التِي تغطِّيها نينوى، وتقعُ على الجانبِ الغربِيِّ مِنَ النَّهرِ، وهِيَ مدينةٌ قديمَةٌ، تحتوي في داخلِها على أقسامٍ متعدِّدَةٍ مِنَ الأسوارِ، التِي ترتفعُ عالياً في عزلتِها شبيهَةً في تراكيبِها بالمَآذنِ. أمَّا الرَّحبَةُ،[2] فإنَّها قائمَةٌ على نهرِ الفراتِ، وهِيَ التِي يُطلقُ عليها (Rehoboth).

يعودُ «بيركنسُ» ليحدِّثَنا مرَّةً أخرَى عَنْ قريةِ النَّبيِّ يونسَ فيقولُ: (وجدَ المسترُ «ريج ـ Rich"[3] في رابيةِ النَّبيِّ يونسَ العديدَ مِنَ الآثارِ المُقدَّسَةِ

(1) تقع أطلال كالح قرب منطقة الشرّقاط جنوب الموصل، وتسمّى «آشور» وهي العاصمة الأولى للإمبراطوريّة الآشوريّة في عصرها الأوّل حتّى سنة (1000 ق.م) وتحاذي ضفاف نهر دجلة، وقد وصفها المؤرّخ الإغريقيّ اكزانافون (اريان)، وذكر أنّ آثارها تعود لعصور تاريخيّة قبل الإغريق بـ 22 قرنا. وهي المدينة الأصليّة لبدء الإمبراطوريّة الآشوريّة وتاريخها وحضارتها، وهي شبيهة بالنّمرود، وتوجد قريبا منها غابة كثيفة قطعها لايارد في سفره إلى كالح ـ الشّرقاط. راجع كتابه المذكور أعلاه.

(2) يقصد بها: «الرّحبة من بلاد الشّام، والواقعة على شاطئ نهر الفرات أسفل قرقيسيا» انظر عنها: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، جـ4، ص 234.

(3) للمزيد من التّفاصيل عن نينوى والموصل في بداية العقد الثّالث من القرن التّاسع عشر. انظر ما كتبه كلوديوس ريج، المقيم البريطانيّ في بغداد (1808–1821م):

C.J. Rich, Narrative of a Residence in Koordistan, 2 vols., London, 1836.

وهناك كتاب مهمّ وشيّق أيضا، كتبه ك.م. الكساندر عن كلوديوس ريج: السّائح والفنّان واللّغوي ورجل الأنتيكات، المقيم البريطانيّ في بغداد لسنين

والمهمَّةِ جدَّاً مقابلَ المَوْصِلِ؛ مَعَ المزيد مِنَ الكتاباتِ المَنقُوشَةِ، ولو كانَتْ عمليَّاتُ الحفرِ والتَّنقيبِ في ذلكَ المكانِ قانونِيَّةً أو مَشرُوعَةً إلى الحدِّ الذِي جرَى في غيرِهِ مِنَ الأماكنِ التَّاريخِيَّةِ، فربَّما يعثرُ علماءُ الأركيولوجيا والتَّنقيبِ ضِمنَ مُوجودَاتِهِ على المزيدِ مِنَ التُّحفِ واللُّقَى الثَّمينَةِ، ولكنَّ لهذِهِ الرَّابيَةِ اعتباراتِ قداسَةٍ قويَّةً.[1]

15ـ بينَ آثارِ النَّمرودِ:

بدأ الرَّحَّالةُ «بيركنسُ» مَعَ صَحبِهِ في زيارتِهِم للنَّمرودِ مبكرِينَ، وقدْ أجمَعُوا على أنْ يكونَ رجوعُهُم في ذلكَ اليومِ ذاتِهِ.

تبعدُ نمرودُ عَنْ المَوْصِلِ ثمانِيَةَ عشَرَ ميلاً، وتقعُ مباشرَةً على الضِّفَّةِ الشَّرقِيَّةِ لنهرِ دجلةَ. ويتابعُ حديثَهُ فيذكرُ أنَّهُم عبرُوا في طريقِهِم إلى نمرودَ بثلاثِ قرَىً صَغيرَةٍ، ولمْ يكنْ مظهرُ تلكَ القرَى على مستوى مِنَ الأهمِّيَّةِ، وقدْ كانَ القاطنُونَ فيها مِنَ العربِ. ثمَّ عبَرُوا عدَّةَ مُخيَّماتٍ كبيرَةٍ (بيوتُ شعرٍ) للعربِ مِنَ البدوِ المنتشرِينَ على الطَّريقِ إلى النَّمرودِ.

كانَ سهلُ المَوْصِلِ العظيمُ الواقعُ إلى شرقِ نهرِ دجلةَ والمتاخمُ لشرقِ المدينةِ وعلى جانبِهِ الجنوبِيِّ مَأهولاً بصُورَةٍ متفرِّقَةٍ، ويُقالُ: إنَّ عددَ السَّكَّانِ قدْ تناقصَ كثيراً عَنْ السَّابقِ بصُورَةٍ ملفتَةٍ للنَّظرِ؛ وتتَّصِفُ أراضِي هذِهِ البلادِ بأنَّها مستويَةٌ، وتغطِّيها خلالَ هذا الفصْلِ بصُورَةٍ شاملَةٍ خضْرَةُ

طويلة (1808–1821م) وقد خصّص مؤلّف هذا الكتاب أحد فصوله عن نينوى والموصل للمدة (1820–1821) انظر:

Constance M. Alexander, Baghdad in Bygone Days, (From the Journals and Correspondence of Claudius Rich, Traveller, Artist, Linguist, Antiquary, and British Resident at Baghdad, 1808 – 1821), London, 1928, (Chap. No. XVIII: Nineveh and Mosul 1820- 1821.

(1) The Letter No.20, dated 16/ 05/ 1849; JAOS, op. cit., pp. 112- 115.

القمحِ الثَّريَّةُ، وقدْ بُعِثَتْ الحياةُ فيها عقبَ الحصَادِ. وتألَّقَتْ أمامَهُم في النِّصْفِ الأخيرِ مِنَ الطَّريقِ تموُّجاتٌ عديدَةٌ مِنْ أحجارِ الكلسِ البيضَاءِ، ولمْ تكنْ تلكَ القطعُ المَرمَرِيَّةُ الجميلَةُ ذاتَ مساحاتٍ صَغيرَةٍ، بل كانَتْ تحتلُّ أبعاداً كبيرَةً مِنَ المنطقَةِ، وعبرُوا في طريقِهِم مجرَىً صَغيراً مِنَ الماءِ الذِي كانَ متجانساً مَعَ الأنموذجاتِ الطَّبيعِيَّةِ التِي لمْ أرَ مثلَها أبداً ـ كما يقولُ بيركنسُ ـ إذْ يقطعُ الماءُ قنالاً يمتدُّ في أخدودٍ ذي عمقٍ يُقدَّرُ بقدمَيْنِ تؤلِّفُها طبقةٌ مِنْ طبقاتِ الحجرِ الكلسِيِّ الأبيضِ، وحولَها التَّلالُ التِي كانَتْ تتلألأُ هِيَ الأخرَى أيضَاً؛ مَعَ انكساراتِها بفعلِ أشعَّةِ الشَّمسِ المضِيئَةِ السَّاطعَةِ، وهناكَ أيضَاً المياهُ المُشتَّتَةُ حيثُ الينابيعُ الكبريتِيَّةُ القابعَةُ في جوارِ هذِهِ السِّلسلَةِ المَرمَرِيَّةِ، والتِي ربَّما كانَتْ لها القوَّةُ الفعَّالَةُ في تكويناتِها البنيويَّةِ.

أخذَتْهُم الطَّريقُ بعدَ أنْ واصَلُوا سيرَهُم لميلٍ واحدٍ بهذا الاتِّجاهِ عِنْدَ قريةِ السُّلامِيَةِ،[1] ونحوٍ مِنْ ثلاثَةِ أميالٍ إلى الآثارِ في النَّمرودِ التِي ظهرَتْ فجأةً أمامَ أعينِهِم، وظهرَ العديدُ مِنْ بروزاتِها العاليَةِ الواضِحَةِ؛ والتِي كانَتْ مَخروطِيَّةً ورفيعَةً ويبلغُ عُلْوُها على الأقلِّ سبعِينَ قدماً، وهِيَ ذاتُ منظرٍ أخَّاذٍ يجلبُ الأنظارَ، أمَّا نهرُ دجلةَ، فإنَّهُ ينحدرُ لميلَيْنِ على الأقلِّ مِنَ الآثارِ المَذكُورَةِ، ولكنَّ الفسحةَ الواقعَةَ بينَ الاثنَيْنِ تُعدَّ منخفضَةً، وهِيَ ذاتُ تربةٍ غرينيَّةٍ شكَّلَتْها التَّكويناتُ الحديثَةُ الظَّاهرَةُ والمتباينَةُ.

ويتابعُ «بيركنسُ» أحاديثَهُ في رسائلِهِ قائلاً: (هناكَ شكٌّ كبيرٌ في أنَّ نهرَ دجلةَ كانَ يجرِي ضَيِّقاً أو حبيسَاً تحتَ أسوارِ المدينةِ القديمَةِ (نمرودَ) كما كانَ ظنِّي الذِي ذكرتُهُ مُسبَّقاً عَنْ حالِ نينوى مقابلَ المَوْصِلِ). ويصِلُ «بيركنسُ»

(1) قرية السّلاميّة من قرى سهل الموصل وتقع شرق دجلة، وهي قرية قديمة هي مفتاح طريق شهرزور القديم، وهو المسلك البرّيّ شرقيّ نهر دجلة وهي تصل بين الموصل ونينوى وبين أربيل وكركوك نحو بغداد. انظر: سيّار الجميل «زعماء وأفنديّة: الباشوات العثمانيّون والنّهضويّون العرب» ط1 (بيروت & عمّان: الأهليّة للنّشر والتّوزيع، 1999) .

مَعَ مرافقِيهِ منطقَةَ (النَّمرودِ)[1] فيبدأ بوصْفِ تلكَ الآثارِ المدهشَةِ التِي رآها

(1) تعرف اليوم باسم «كالح» ولكنّها كانت تعرف كذلك قديما بأسماء أخرى مثل كالخو والنّمرود، إذ يرد اسم هذه المدينة في النّصوص الآشوريّة على شكل كالخو، وفي التّناخ يرد الاسم بشكل كالخ/ كالح، أمّا التّسمية «نمرود» فمن المرجّح أنّها تسمية حديثة مستمدّة من الشّخصيّة التّناخيّة «نمرود» ذلك أنّ أقدم ذكر لهذه التّسمية يعود للرّحّالة الدّانيماركيّ «كارستن نيبور» والذي زار موقع هذه المدينة في العام (1766م) وهي إحدى المدن الآشوريّة الكبرى، وآثارها باقية وهي تقع على بعد (30) كم للجنوب من الموصل حاليّا، وكانت كالخو قد أسّست إبّان القرن الثّالث عشر قبل الميلاد. وأصبحت في القرن التّاسع قبل الميلاد عاصمة الإمبراطوريّة الآشوريّة الحديثة على أيام حكم الملك آشور ناصربال الثّاني، وكانت قد دمّرت في العام (612) ق.م على يد الكلدانيّين والميديّين. وحطم داعش مؤخّرا ما تبقّى من آثارها وأطلالها وذلك سنة (2015م).
أركيولوجيّا، كانت قد تمّت عمليّات التّنقيب عن الآثار في هذا الموقع الكلاسيكيّ عام (1846م) وذلك بإدارة الدّبلوماسيّ والآثاريّ البريطانيّ السّير اوستن هنري لايارد «Sir Austen Henry Layard"، إذ اكشف بقايا قصر ملكيّ كبير مع جملة من التّحصينات وكثرة من المنحوتات الجميلة من حجر الألبستر، زيادة على إبداعات من العاج ومسلّات وتماثيل ضخمة. ولقد كشف في العام (1955م) من خلال الحفريات الأركيولوجيّة عن معبد نبو بإدارة الآثاريّ البريطانيّ السّير مالوان "Sir Max Edgar Lucien Mallowan" ويحتوي المعبد على مجموعة من الرّقم المسماريّة التي ضمّت مجموعة نصوص سجّلت عليها عهود الولاء التي قدّمها الحكّام المحلّيّون في الدّولة الآشوريّة للملوك الآشوريّين. ولقد عانت هذه المواقع المكتنزة بالآثار النّادرة وكنوز الذّهب من إهمال الدّولة العراقيّة في سنيّ التّسعينيّات ممّا زاد من أعمال السّرقات للآثار واللّقى، وتلقّت هذه المواقع فجيعتها التّاريخيّة بمحوها على أيدي الدّواعش عقب سقوط الموصل وإقليمها بأيديهم عام (2014م). راجع المزيد من التّفاصيل في:

Georges Roux, «Ancient Iraq», (Penguin, Harmondsworth, 1982), p.283, 376

Elizabeth Pollard, Worlds Together Worlds Apart. 500 Fifth Ave New York, NY: W.W. Norton Company Inc. , 2015, pp. 128–130...

Richard N. Frye, «Assyria and Syria: Synonyms». (PhD., Harvard University, 1992).

على حينِ غرَّةٍ؛ وما تتضَمَّنُهُ مِنَ الأسوارِ والصَّالوناتِ القديمَةِ والقطعِ المعمارِيَّةِ البهيَّةِ؛ التِي منحتْهُ انطباعاً كونَها لازالَتْ جديدَةً ولامعَةً وكاملَةً، ثمَّ ينتقلُ إلى ما يراهُ داخلَ تلكَ الأسوارِ المُغلَقَةِ، فيصِفُ الحروفَ المسمارِيَّةَ، ورؤيتَهُ لَمعلوماتٍ كاملَةٍ عَنْ الرِّجالِ والمَقاماتِ العملاقَةِ، ثمَّ يرَى ثورَيْنِ يشبهانِ إلى حدٍّ ما فيلَيْنِ كبيرَيْنِ، ولكلٍّ مِنَ الثَّورَيْنِ جناحانِ ورأسُ إنسانٍ؛ هذا ما يراهُ، جماعاتٌ متنوِّعَةٌ، ومَشاهدُ كما لو كانَتْ تقابلُ جمهوريَّةَ مَلَكَيْ الاقتحام، قلاعُ الدِّفاعِ، الرِّجالُ الجبابرَةُ، الرُّؤوسُ والأجنحَةُ والنُّسورُ، وتماثيلُ تَحكِي عَنْ رجالٍ تحملُ أزهارَ الأناناسِ في أيديها، وكانَتْ جميعُها طبيعِيَّةً وواقعِيَّةً في تصْويراتِها، ومشتركَةً في تناسقِها الفنِّيِّ.

ولقدْ أُرسِلَتْ المُكتشَفاتُ الأولى إلى إنكلترا، أمَّا المُكتشَفاتُ الأخرَى فإنَّها تنتظرُ دورَها، وهِيَ لازالَتْ تحتَ التُّرابِ لمْ يُكشفْ النِّقابُ عَنْهَا، ويشرفُ المسترُ «لايارد» أيضَاً على عمليَّاتِ الحفريَّاتِ في النَّمرودِ.

ويزيدُ «بيركنسُ» مِنْ شروحاتِهِ بعدَ رجوعِهِ مِنَ النَّمرودِ إلى المَوْصِلِ في مساءِ اليومِ ذاتِهِ، أي (16 مايو / أيَّارَ) عِنْدَما يلتقِي بمسافرٍ إنكليزِيٍّ كانَ يقومُ بأعمالِ المسحِ والفحصِ والمُعاينَةِ في ذاتِ المكانِ، والذِي يشرحُ لَهُ عَنْ مُشاهدَاتِهِ في البلدِ وصَالوناتِهِ ومَوجُوداتِهِ، وصُوَرِهِ، وتماثيلِهِ: الأزهارُ، الحيواناتُ، الملوكُ، الجدرانُ، النُّقوشُ، الأجسامُ البشرِيَّةُ الطَّويلَةُ، ورؤوسٌ بشرِيَّةٌ أخرَى بأجسامٍ حيوانِيَّةٍ؛ كلُّها باقيَةٌ ومَحفُوظَةٌ منذُ أكثرَ مِنْ ثلاثَةِ آلافِ عامٍ، وكلُّها تنشقُّ عَنْهَا الأرضُ الآنَ لتنهضَ مِنْ تحتَ التُّرابِ جديدَةً ومضيئَةً كالفجرِ، بعدَ أنْ نامَتْ طويلاً ولقرونٍ عديدَةٍ ، على حدِّ تعبيرِ صَاحبِ الرَّحلَةِ.

ويتابعُ تسجيلاتِهِ فيقولُ: (إنَّ مدينةَ النَّمرودِ تختلفُ عمَّا وجدْنَاهُ في تلكَ الرُّقعَةِ المقابلَةِ للمَوْصِلِ ـ نينوى – فالقطعُ الفخَّارِيَّةُ الطِّينِيَّةُ المَوجُودَةُ في النَّمرودِ تبدُو للعيانِ أكبرَ حجماً، وكذلِكَ التَّماثيلُ والمَنحُوتاتُ التِي كانَ

بعضُها صَغيراً في المَوْصِلِ، وأكثرَ صِغراً مِنَ الحياةِ ذاتِها، بينَما تكادُ الصُّورَةُ تكونُ مَعكُوسَةً في النَّمرودِ، فكلُّ شَيْءٍ أكبرُ، فالثِّيرانُ مثلاً والأسودُ تبدُو أكبرَ في أحجامِها مِنْ أحجامِ الفِيَلَةِ).

ثمَّ ينتقلُ «بيركنسُ» ليشرحَ طبيعَةَ البناءِ في النَّمرودِ فيتسَاءلُ ويقولُ: (ولكنْ مَنْ هُم أولئكَ الرِّجالُ البُناةُ؟ وما نوعُهُم؟ أولئكَ الذِينَ أنجَزُوا كلَّ هذِهِ الأعمالَ الخارقَةَ الجبَّارَةَ؛ مِنَ المُؤكَّدِ حقَّاً أنَّهُم كانُوا فنَّانِينَ بكلِّ ما تحويهِ الكلمَةُ مِنْ معانٍ في تلكَ الأيَّامِ الغابرَةِ والمبتدِئَةِ مِنْ عمرِ التَّاريخِ البشرِيِّ والحضَارَةِ الإنسانِيَّةِ! فلقدْ كانَتْ لهُم طرائقُهُم المتنوِّعَةُ وآلاتُهُم الكثيرَةُ).

ثمَّ يستطردُ معقِّباً على كلامِهِ هذا بالمَقُولَةِ الشَّهيرَةِ: ليسَ هناكَ جديدٌ تحتَ الشَّمسِ. ثمَّ يكملُ قائلاً: نحنُ نتباهَى فخراً واعتزازًا بالاختراعِ الحديثِ للزُّجاجِ، ولكنْ حتَّى هذِهِ المادَّةُ، وُجدَتْ في آثارِ نينوى!.

يقعُ على بعدِ مسافةٍ تُقدَّرُ بنحوٍ مِنْ اثنَيْ عشَرَ ميلاً جنوبَ شرقِ النَّمرودِ مصَبٌّ لقناةٍ مائِيَّةٍ قديمَةٍ تبدُو آثارُها مِنْ أوصَالِ الصَّخرِ، وينقادُ مجراها نحوَ نهرِ الزَّابِ (الأعلى) والذِي ربَّما كانَ مُستعمَلاً لإيصَالِ المياهِ إلى المدينةِ التِي احتلَّتْ مَوقعَ هذِهِ الآثارِ وأطرافَها.

١٦ـ النِّهايَةُ

قبلَ أنْ يختمَ «بيركنسُ» تسجيلاتِهِ ويغيبَ عَنْ مَوضُوعِ هذِهِ المتاحفِ الطَّبيعِيَّةِ التِي تمَّ اكتشافُها وما يوجدُ فيها مِنْ أنتيكاتٍ وتحَفٍ ثمينَةٍ، وما تحفلُ بِهِ مِنْ كنوزِ هذِهِ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ... يقولُ: يمكنُنِي أنْ أذكرَ أنَّهُ يوجدُ على بعدِ نحوٍ مِنْ خمسِينَ أو خمسٍ وخمسِينَ ميلاً جنوبَ غربِ مدينةِ المَوْصِلِ آثارُ مدينةٍ قديمَةٍ هِيَ مدينةُ (حضَرَ ـ Hatra)[1] التِي تعلو فيها

(1) مدينة (الحضر ـHattra) اليوم هي مجرّد قرية تقع على بعد (80) كم جنوب غرب الموصل. ويعتقد العديد من المؤرّخين والآثاريّين في أنّ المدينة تأسّست عاصمة لدولة عربايا في بداية القرن الثّاني ق.م. وتعدّ اليوم مركز قضاء الحضر

الآثارُ الصَّخرِيَّةُ ظاهرَةً على السَّطحِ، أو تلكَ التِي تمتدُّ تحتَ طيَّاتِ الثَّرى،

في محافظة نينوى العراقيّة. ومعظم سكّانها من العرب.

تقع بقايا وأطلال عاصمة الحضر التّاريخيّة على بعد (2) كم شمال غرب مركز قصبة الحضر الحاليّة، وقد عثر العديد من الآثاريّين الذين قاموا بكشوفاتهم إبّان القرن العشرين على عدد كبير من النّصوص الآثاريّة المكتوبة بالحفر على قطع أحجار كبيرة، وهي تحتوي على معلومات وأسماء وأعراف وبعض من الأحكام القانونيّة التي كان يعمل بها في تلك " الدّولة " إبّان العصور الغابرة، وخصوصا ما يتعلّق بالسّرقة والعقوبات التي تصدر بحقّ مرتكبيها مع بعض من الأعراف عن الأحوال الشّخصيّة؛ وقد جاء العثور على تلك الرّقم الحجريّة المهمّة من قبل أعمال التّنقيبات التي اضطلعت بها دائرة الآثار والتّراث خلال أوقات متباينة وعمل دائب في مدينة الحضر ذاتها، وكانت بداية العمليّات عام (1951م) واستمرّت سنين طوالا، وكانت أعمال الصّيانة تجري برفقة عمليّات التّنقيبات الآثاريّة، وخصوصا للأبنية والصّالات والمعابد والغرف والسّاحات المكتشفة.

لقد تبيّن تاريخيّا كما أوضحت ذلك كلّ الدّلائل الآثاريّة والتّاريخيّة أنّ مدّة ازدهار المدينة امتدّت من حدود القرن الأوّل ق.م. حتّى منتصف القرن الثّالث الميلاديّ. وبدا واضحا وللوهلة الأولى، أن هناك عدة عوامل وحوافز وراء ذلك، كان من أبرزها، تلك الأهمّيّة الدّينيّة التي اكتسبتها مدينة الحضر كونها مركز تجمّع كبير للقبائل العربيّة التي استوطنت الجزيرة الفراتيّة منذ أزمان غابرة حيث أسّست معابدها وأقيمت فيها التّماثيل والنّصب والأعمدة، زيادة على المقابر التي دفنت فيها أمواتها، ناهيكم عن أنّ موقع المدينة له ميّزات مهمّة جدّا، فهي حلقة وصل ونقطة ارتكاز جغرافيّ له أهمّيّته البالغة في السّيطرة على الطّرق والمسالك البريّة التّجاريّة والخطوط العسكريّة التي كانت تحاذي كلّا من نهري دجلة والفرات، وهي ذات أسواق ومحطة "ترانزيت" للبضائع الشّرقيّة القادمة من الهند وايران والجزيرة العربيّة عبر بلاد الشّام والأناضول إلى الأسواق الرّومانيّة في المتوسط وأوروبّا عبر قنوات من الاتّصالات المباشرة التي كانت القبائل العربيّة تتعامل بها وتقوم بحمايتها. وقد اشتهرت مدينة الحضر في أوقات الحروب المزمنة والصّراعات المصيريّة التي جرت بين الأخمينيّين والسّلوقيّين وأخيرا بين الفرس والرّومان كحلفاء ضدّ السّاسانيّين حيث سقطت على يد الملك السّاسانيّ سابور. راجع التّفاصيل في:

Caquot, André. «L'araméen de Hatra.» Comptes rendus du groupe linguistique d'études Chamito-Sémitiques 9 (1960–63): 87- 89.

Beyer, Klaus: Die aramäischen Inschriften aus Assur, Hatra und dem übrigen Ostmesopotamien. Göttingen 1998.

ولقدْ زارَ تلكَ الآثارَ مُؤخَّراً الكولونيلُ «وليامزُ» و المسترُ «رسامُ».

ويختتمُ الرَّحَّالةُ «بيركنسُ» أحاديثَهُ وتسجيلاتِهِ هذِهِ كلَّها مِنْ خلالِ رسائلِهِ، فيوصِي جميعَ أولئكَ الذِينَ يشعرُونَ بالأهمِّيَّةِ للوصُولِ إلى حدٍّ أبعدَ مِنَ المعرفَةِ والاطِّلاعِ على آثارِ نينوى الآشورِيَّةِ، والأرضِ الكلاسيكِيَّةِ... يوصِيهِم بالرُّجوعِ إلَى الكتابِ الذِي كَتَبَهُ وطَبَعَهُ مُؤخَّراً المسترُ (لايارد ـ Austen Henry Layard)[1] ويتابعُ قولَهُ: وعلى الرُّغمِ مِنْ أنِّي لمْ أرَ

جرى تخريب مدينة الحضر في يوم 8 / 3 / 2015 حيث قام تنظيم داعش بتجريفها وتعدّ هذه جريمة بحقّ الآثار العراقيّة، ونقلت "رويترز" عن سكّان في المنطقة أنّهم سمعوا دويّ انفجار هائل في وقت مبكر، وذكر آخرون أنّ تنظيم الدّولة دمّر بعضا من أكبر المباني في الحضر وأنّهم يدمرون مناطق أخرى بالجرّافات.

(1) السّير أوستن هنري لايارد (Austen Henry Layard) 5آذار / مارس 1817 – 5 يوليو/ تموز 1894م) أحد العلماء الأركيولوجيّين البريطانيّين الذين كانوا يحلمون ببلاد الرّافدين التي ذكرت في الكتاب المقدّس، قدم إلى الشّرق مع أحد رفاقه، وكان قد خطّط معه لرحلة إلى جزيرة سيلان، إلا أنّه افترق عن رفيقه في بلاد فارس عام (1840م) وأخذ يتردّد بحرا بين حين وآخر على الخليج العربيّ ومنه إلى بغداد. وعاش في المنطقة ردحا من الزّمن، فعشق الحياة فيها، وقد أتقن التّحدّث باللّغات المحلّيّة، وقد أثاره نجاح القنصل الفرنسيّ بوتا في اكتشاف آثار أشوريّة، فزاره في كوي سنجق عام (1843م) وشاطره حماسه، إذ تعدّ الكشوفات الآثاريّة في العراق، وقتذاك ثورة معرفيّة لا تقدّر بثمن! ولقد وثّق علاقاته في بغداد بالعقيد تيلر الممثّل البريطانيّ المقيم لشركة الهند الشّرقيّة في بغداد مع زوجته المسز تيلر، فكان أن أرسل للسّير ستراتفورد كاننگ السّفير البريطانيّ في الأستانة بأخباره وإمكاناته، فقام بتوظيفه في خدمته بشكل غير رسميّ. أقنع لايارد السّفير البريطانيّ بأهمّيّة الآثار العراقيّة، فقام بتمويله من أجل البحث في تلّ نمرود، فكان أن توجّه من القسطنطينيّة إلى الموصل، ومن هناك متظاهرا بمرافقة المقيم البريطانيّ روس في رحلة صيد، فكان أن كشف في اليوم الأوّل من التّنقيب عند قمّة تلّ نمرود على ألواح جداريّة كبيرة، وعثر بعد مدة زمنيّة، في القصر الجنوب غربيّ الذي شيّده الملك اسر حدون نحت عليها مشاهد معارك آشور ناصر بال الثّاني، واستمرّ لايارد في اكتشافاته الآثاريّة المثيرة حتّى عام (1847م) حيث حصل أثناء ذلك على منحة حكوميّة من بريطانيا ساعدته في عمله الذي نجح فيه من خلال تزويد المتحف البريطانيّ بآثار أشوريّة مهمّة

الكتابَ إلى الآنَ، ولكنَّ ثقتِي بذلِكَ تأتِي مِنْ خلالِ معرفتِي الرَّجلَ، فإنَّ لكتابِهِ في طبيعتِهِ، واتِّساعِ مداه، ووفرَةِ موادِّهِ ما ليسَ عِنْدِي أيُّ شكٍّ بأنَّهُ الكتابُ الذِي سيحظَى بالأهمِّيَّةِ، وقصَبِ السَّبقِ في هذا المضْمَارِ.

منها الثّيران المجنّحة. رجع لايارد إلى لندن وقد قوبلت اكتشافاته وتنقيباته العجيبة بإطراء شديد، وخصوصاً بعد تأليف كتابه المهمّ (نينوى وأثارها) ثمّ عاد عام (1849م) إلى نينوى واكتشف قصر سنحاريب الذي كان يضمّ مكتبة آشور بانيبال الملكيّة. ترك لايارد علم الآثار إلى الحياة الدّبلوماسيّة السّياسيّة بعد أن أمضى مدّة ثانية في بلاد آشور، وبقيت مؤلّفاته المهمّة عن آثار بلاد الرّافدين، وخصوصاً كتابه الثّاني (اكتشافات في خرائب نينوى وبابل) من المصادر المهمّة عن تاريخ التّنقيب عن الآثار في العراق، وله قرابة عشرة كتب منشورة. انظر:

Silverberg, Robert. The man who found Nineveh. The story of Austen Henry Layard. Holt, Rinehart and Winston, New York, 1964. See also, Lloyd, Seton. Foundations in the Dust: The Story of Mesopotamian Exploration. London; New York: Thames & Hudson, 1981. Cf. Kubie, Nora Benjamin. Road to Nineveh: the adventures and excavations of Sir Austen Henry Layard (1964; 1965 in the UK) and Brackman, Arnold C. The Luck of Nineveh: Archaeology's Great Adventure. New York: McGraw-Hill Book Company, 1978; New York: Van Nostrand Reinhold, 1981.

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

١ـ رسائلُ جوستنُ بيركنسُ

The Letter No. 1, dated 25/04/1849.

The Letter No. 2, dated 26/04/1849.

The Letter No. 3, dated 27/04/1849.

The Letter No. 4, dated 28/04/1849.

The Letter No. 5, dated 29/04/1849.

The Letter No. 6, dated 30/04/1849.

The Letter No. 7, dated 01/05/1849.

The Letter No. 8, dated 02/05/1849.

.The Letter No. 9, dated 03/05/1849

The Letter no. 10, dated 04/05/1849.

The Letter No. 11, dated 05/05/1849.

The Letter No. 12, dated 06/05/1849.

The Letter No. 13, dated 07/05/1849.

The Letter No. 14, dated 08/05/1849.

The Letter No. 15, dated 09/05/1849.

The Letter No. 16, dated 10/05/1849.

The Letter No. 17, dated 11/05/1849.

The Letter No. 18, dated 12/05/1849.

The Letter No. 19, dated 13/05/1849.

The Letter No. 20, dated 16/05/1849.

٢ـ أوراقُ بيركنسَ وأعمالُهُ :

The Justin Perkins Papers at Amherst College, 1841 Syriac Bible, at Andover-Harvard Library

Justin Perkins (AC 1829) Papers, ca. 1830-1869 Finding Aid

Perkins , Justin, The Persian flower: a memoir of Judith Grant Perkins of Oroomiah, Persia (1871.(

Perkins , Justin, A Residence of eight years in Persia, among the Nestorian Christians. Andover, Mass.: Allen, Morrill & Wardwell, 1843.

Perkins , Justin, 'Journal of a Tour from Oroomiah to Mosul, through the Koordish Mountains, and a Visit to the Ruins of Nineveh, Journal of the American Oriental Society, Vol. 2, 1851 (1851).

Nestorian biography: being sketches of pious Nestorians who have died at Oroomiah, Persia. Boston: Massachusetts Sabbath School Society, 1857. Includes chapters by Perkins.

Missionary life in Persia: being glimpses at a quarter of a century of labors among the Nestorian Christians. Boston:

American Tract Society, 1861.

Perkins, Henry Martin , Life of Rev. Justin Perkins, D.D., Pioneer missionary to Persia , 1887.

٣ـ المراجعُ الأجنبِيَّةُ

Alexander , Constance M., Baghdad in Bygone Days, (From the Journals and Correspondence of Claudius Rich, Traveller, Artist, Linguist, Antiquary, and British Resident at Baghdad, 1808 – 1821), London, 1928, (Chap. No. XVIII: Nineveh and Mosul 1820-1821.

Al-Jamil, Sayyar K. A. , A Critical Edition of al-durr al-Maknun fi al-Ma' athiral – Madiya min al- Qurun of Yasin al – Umari (920-1226 A.H. 1614/1515 A.D. – 1811/1812 A.D.) ; Ph.D. Thesis, St. Andrews Univ., Scotland, 1983, 3 vols., (The Library of St. Andrews University).

Al-Soof, Abu (1968), «Distribution of Uruk, Jamdat Nasr and Ninevite V Pottery as Revealed by Field Survey Work in Iraq», Iraq 30 (1): 74–86,

Ameer, John P., Yankees and Nestorians : the establishment of American schools among the Nestorians of Iran and Turkey, 1834-1850 (Harvard University PhD 1992).

Arrian, The Campaigne of Alexander, tr. By Aubrey de Selincourt, Introduction and Notes by J.R. Hamilton, Reprinted in Britian, 1978.

Bangert , William V. A , History of the Society of Jesus (Institute of Jesuit Sources , 1989 ,).

Barthel , Manfred , Jesuits: History & Legend of the Society of Jesus (William Morrow & Co; 1st U.S. ed edition 1984) .

Benedict, . Philip, Christ's Churches Purely Reformed: A Social History of Calvinism. (New Haven: Yale University Press., 2002).

Benlic, S. (1990), "Underground works at the Bekhme Scheme", International Water Power and Dam Construction 42 (6): 12–14.

Beyer, Klaus: Die aramäischen Inschriften aus Assur, Hatra und dem übrigen Ostmesopotamien. Göttingen 1998.

Biglari, Fereidoun; Shidrang, Sonia (2006), «The Lower Paleolithic Occupation of Iran», Near Eastern Archaeology 69 (3–4): 160–168.

Bois, Thomas, Connassance does Kurdes, (Beyrouth khayats, 1962), chap. No. 7.

Bosworth, C.E. , "AL-Zāb», in Bearman, P.; Bianquis, Th.; Bosworth, C.E. et al., Encyclopaedia of Islam, Second Edition,(Leiden: Brill, 2010).

Brackman, Arnold C. The Luck of Nineveh: Archaeology's Great Adventure. (New York: McGraw-Hill Book Company, 1978; New York: Van Nostrand Reinhold, 1981).

Braidwood, Robert J.; Howe, Bruce , Prehistoric investiga-

tions in Iraqi Kurdistan, Studies in Ancient Oriental Civilization, 31, (Chicago: University of Chicago Press, 1960).

Caquot, André. «L'araméen de Hatra.» Comptes rendus du groupe linguistique d'études Chamito-Sémitiques 9 (1960–63).

Caraman, Philip,. Ignatius Loyola: A Biography of the Founder of the Jesuits (Harper & Row 1990).

Chapple, Christopher , Jesuit Tradition in Education & Missions: A 450-Year Perspective (Chicago: Chicago University Press, 1993).

Charles E. Ronan and Bonnie B. C. Oh, (eds.), East Meets West: The Jesuits in China, 1582–1773 (Chicago : Loyola University Press,.1988). .

Cushner, Nicholas P., Soldiers of God: The Jesuits in Colonial America, 1565-1767 (Language Communications, 2002) .

Englund-Krieger Mark J. The Presbyterian Mission Enterprise: From Heathen to Partner. (Wipf and Stock Publishers. 2015).

Frye, Richard N., "Assyria and Syria: Synonyms".(PhD. Thesis , Harvard University, 1992).

Hamilton, A.M., Road Through Kurdistan: The Narrative of an Engineer in Iraq, with a foreward by Major-General Row An – Robinson, London, (n.d.).

Hay, W.R., Two Years in Kurdistan, London, 1921.

Higgins, W., Xenophon the Athenian: the problem of the individual and the society of the polis, (Albany: State University of New York Press, 1977).

Hiney, Thomas: On the Missionary Trail, (New York: Atlantic Monthly Press , 2000).

Hobson, John M. . The Eastern origins of Western civilisation. (Cambridge, UK: Cambridge University Press. 2004).

Howland, J., "Xenophon's Philosophical Odyssey: On the Anabasis and Plato's Republic", in American Political Science Review, 94. 2000.

Ishaya, Arianne (2002). "History of Assyrins in Urmia". JAAS XVI .Jastrow, Morries, The Civilization of Babylonia and Assyria, London, 1915.

Johnson, D. , , "Xenophon's Socrates on Justice and the Law", in Ancient Philosophy, 23:, 2003, 255-281.

Jonathan, Wright, . God's Soldiers: Adventure, Politics, Intrigue & Power: A History of the Jesuits (Image; Reprint edition, 2005) .

Joseph., Jan, Santich, Missio Moscovitica: The Role of the Jesuits in the Westernization of Russia, 1582–1689 (1995)

Journal of Royal Asiatic Society, vol. X, p. 25; and Journal of Royal Geographical Society, vol. X, p. 21.

Judson, L. and Karasmanis, V. (edd.), , Remembering Socrates, (Oxford: Clarendon Press; New York : Oxford Uni-

versity Press, 2006).

Klaiber, Jeffrey, S.J., The Jesuits in Latin America: 1549-2000:: 450 Years of Enculturation, Defense of Human Rights, and Prophetic Witness. (St Louis, MO: Institute of Jesuit Sources, 2009).

Kubie, Nora Benjamin. Road to Nineveh: the adventures and excavations of Sir Austen Henry Layard (1964; 1965 in the UK).Layard, H.A., Nineveh and its Remains, ed., intro., and nots: H.W.F. Saggs, London, 1970.

Lingle, Walter L., Kuykendall, John W. , Presbyterians: Their History and Beliefs (4th rev. ed.).(Atlanta: Westminster John Knox Press, 1978), pp. 45-60.

Lioyd, Seton, The Archaeology of Mesopotaima, London, 1978.

Lloyd, Seton. Foundations in the Dust: The Story of Mesopotamian Exploration. (London; New York: Thames & Hudson, 1981).

Longrigg, S.H., Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.

Major Lioyd , The Geography of the Mosul Boundary', Geographical Journal, vol. lviii (1926).

Major Rawlinson, of the Bombay army serving in Persia, Notes on a marche from Zohab at the foot of Zagros, a long the mountains to Khuzistan (Susiana) and from the nee through

the provinces at Luristan to Kermenshah in year 1836 .

Mallowan, M.E.L., NIMRUD and its Remains, 2 vols., London, 1966.

McCoog, Thomas M., (ed.). Mercurian Project: Forming Jesuit Culture: 1573–1580 (Biblioteca Instituti Historici Societatis Iesu 55. The Institute of Jesuit Sources 3:18. Rome and St. Louis: Institutum Historicum Societatis Iesu2004). .

Nebez, Jemal – eddin, aus Sulaimani, Kurdistan Der Kurdische Furst Mer Muhammad – I Rawandizi genannt Mir-I kora irn Spiegel der Morgenlandischen und Abendlandischen Zengnisse (Ein Beitag Zur Kurdischen Geschichte); Dissertation Zur Universitat Hamburg, 1970. (Used in Hamburgh University Library, 1979).

O'MALLEY, SJ and JOHN W. The Jesuits: A History from Ignatius to the Present, (Rowman & Littlefield Publishers, 2014).

Pollard, Elizabeth, Worlds Together Worlds Apart. 500 Fifth Ave New York, NY: W.W. Norton Company Inc. , 2015.

Pomplun, Trent. "Jesuit on the Roof of the World: Ippolito Desideri's Mission to Tibet."(Oxford: Oxford University Press , 2010).

Rich, C.J., Narrative of a Residence in Koordistan, 2 vols., London, 1836.

Roberts, Ian D., , Harvest of Hope: Jesuit Collegiate Edu-

cation in England, 1794–1914 (St. Louis, Mo. : Institute of Jesuit Sources,.1996)..

Ross, Andrew C, Vision Betrayed: The Jesuits in Japan & China, 1542–1742 (Orbis Books, 1994).

Roux, Georges, "Ancient Iraq", (Penguin, Harmondsworth, 1982).

Santich, Jan Joseph, Missio Moscovitica: The Role of the Jesuits in the Westernization of Russia, 1582–1689 (New York : P. Lang, ©1995.).

Silverberg, Robert. The man who found Nineveh. The story of Austen Henry Layard. Holt, Rinehart and Winston, New York, 1964.

Smith , Frank Joseph, The History of the Presbyterian Church in America,) Manassas, VA : Reformation Education Foundation, 1985).

Smylie, James H. . A Brief History of the Presbyterians. Louisville, KY: Geneva Press, 1996.

Stevens, E.S., By Tigris and Euphrates, London, 1923 (Chap. XIII MOSUL).

Thomas M., McCoog, (ed.). Mercurian Project: Forming Jesuit Culture: 1573–1580 (Biblioteca Instituti Historici Societatis Iesu 55. The Institute of Jesuit Sources 3:18. Rome and St. Louis: Institutum Historicum Societatis Iesu, 2004)..

Torrel . Frederick, Justin Perkins article, Dictionary of Amer-

ican Biography Vol. VII. (New York: Charles Scribner's Sons. 1934).

Trent, Pomplun, , "Jesuit on the Roof of the World: Ippolito Desideri's Mission to Tibet."(Oxford: Oxford University Press , 2010).

Trimingham, J.S., The Orders in Islam, Oxford, 1971.

Udias, Agustín ,. Searching the Heavens and the Earth: The History of Jesuit Observatories (Astrophysics and Space Science Library). Berlin: Springer, 2003).

Udías ،Agustín (2003). Searching the Heavens and the Earth: The History of Jesuit Observatories (Astrophysics and Space Science Library, 2003).

The Missionary Herald at Home and Abroad, vol. 94, 1883.Walter, B. Harris, From Batum to Baghdad, London, MDCCCXCVI,

Wright, Jonathan, "From Immolation to Restoration: The Jesuits, 1773–1814." (Theological Studies, 2014) 75/ 4 .

٤ـ الأنسكلوبيدِيَّاتُ:

Cambridge Ancient History', vol. 1, (Khuldyeen). The Cambridge Ancient History is a comprehensive ancient history in fourteen volumes, spanning Prehistory to Late Antiquity, published by Cambridge University Press. The first series, consisting of 12 volumes, was planned in 1919 by Irish historian J. B. Bury and published be-

tween 1924 and 1939, co-edited by Frank Adcock and S. A. Cook[1] A second revised edition was published in 1970-2005, consisting of 14 volumes in 19 books.

Collins Discovery Encyclopedia, 1st edition © Harper-Collins Publishers 2005.

Macuch, R., A. Ishaya (1987-12-15) Assyrians in Iran. Encyclopaedia Iranica.

The Encyclopeadia of Isted, vol. 3.

The New Encyciopeadia Britannica, vols. V, , vii, London, 1974..

Encyclopedia of the Presbyterian Church in the United States of America (1884).

٥ـ بالعربيَّةِ والفارسيَّةِ

أبونا، هرمز، الآشوريّون بعد سقوط نينوى ـ المجلّد 5 (شيكاغو، عام 1999).

إسحاق، رفائيل بابو، أحوال نصارى بغداد (بغداد: مطبعة شفيق، عام 1960).

إسحاق، روفائيل بابو، تاريخ نصارى العراق، بغداد، عام 1948).

إسماعيل، زبير بلال، أربيل في أدوارها التّاريخيّة، النّجف، عام1971).

برصوم، البطريرك إغناطيوس أفرام الأوّل، اللّؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السّريانيّة، ط1.

البرطليّ، البطريرك يعقوب الثّالث، تاريخ الكنيسة السّريانيّة الأنطاكيّة،

طبعة بيروت ج1.

جبرائيل القسّ، يوسف وإلياس هدايا، آزخ: أحداث ورجال، (حلب: دار الرّها، عام1991).

الجميل، سيّار، رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق الأرض الكلاسيكيّة عام 1849، مجلّة المورد (عدد خاص: أدب الرّحلات إلى العراق)، العدد (4)، المجلد (18)، بغداد، (شتاء عام 1989).

الجميل، سيّار، حصار الموصل واندحار نادرشاه عام (1743 م/ 1156 هـ) ، ط1 (الموصل، بيت الموصل للطّباعة والنّشر، عام (1990).

الجميل، سيّار، الآشوريّون في التّفسير التّوينبيّ للتّاريخ، مجلّة "بين النّهرين"، العدد 13، الموصل، عام (1976).

الجميل، سيّار، زعماء وأفنديّة: الباشوات العثمانيّون والنّهضويّون العرب، ط1 (بيروت & عمّان: الأهليّة للنّشر والتّوزيع ، عام (1999).

الحموي، ياقوت، معجم البلدان، جـ4، بيروت، عام (1960).

درويش، محمود فهمي، ومصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل الجمهوريّة العراقيّة لسنة 1960 (بغداد : دار مطبعة التّمدّن عام 1961).

دمّان، نبيل يونس، الرّئاسة في بلدة القوش (أميركا، عام 2001).

الدّملوجيّ، صدّيق، إمارة بهدينان الكرديّة، الموصل، عام 1952).

الدّيوه جيّ، سعيد، "جسر الموصل في مختلف العصور، "مجلة سومر" العدد 10، سنة 1956).

الدّيوه جيّ، سعيد، جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد، عام

1963).

راولينسون، ص 74-80).

زكيّ، محمّد أمين، تاريخ الكرد والكردستان، القاهرة، عام 1936، ترجمه عن الكرديّة: محمّد عليّ عوني، أمّا الأصل فقد طبع ببغداد عام 1931).

شناسي، ستان، آذربايجان غربى، شركت چاپ و نشر كتاب هاى درسى ايران، سال 1390).

شناسي، طلس گيتا، استانهاى ايران، تهران: مؤسسه گيتاشناسى، 1383.

الشّهرستانيّ: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط2، ج2 (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1975).

صايغ، القسّ سليمان، تاريخ الموصل (3 أجزاء)، ج1(القاهرة، 1927)، ج 2 (بيروت، عام 1928).

صايغ، المطران سليمان، «تاريخ الموصل» ج3 (نفائس الآثار: درس الانثورولوجيّ) لبنان، عام 1956).

العزّاويّ، عبّاس، أربل في مختلف العصور: اللّواء والمدينة، راجعه وعلق عليه وقدّم له محمّد عليّ القره داغيّ ، ط1 (بغداد، 2001).

العزّاويّ، عبّاس، العماديّة في مختلف العصور، تحقيق: حميد عبد المجيد السّلفيّ وعبد الكريم فنديّ، أربيل كوردستان، عام 1998).

العزّاويّ، عبّاس، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ1، ط1، بغداد عام 1939).

عقراويّ، فائق أبو زيد سليم، دليل عقرة السّياحيّ (د. م. د. ت).

العقيقيّ، نجيب، «المستشرقون»، الجزء 3، وتحت بند ×6 ، جـ3، دار المعارف بمصر، عام 1965).

عمر قادر، هه لويست، يهود كردستان ، ط1 (أربيل: مؤسّسة حمدي للطّباعة والنّشر، عام 2009).

العمريّ، ياسين الخطيب، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثّالث عشر، ط1، نشره: محمّد صدّيق الجليليّ، الموصل عام 1940).

العمريّ، ياسين الخطيب، منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق: سعيد الدّيوءجيّ، الموصل، عام 1955).

فرهنگ عامه ايل قره پاپاق – يوسف قهرمانپور – ياز – 1385 .

قاسملو، عبد الرّحمن، كردستان إيران، ترجمة غزال يشيل أوغلو، دمشق عام 1999).

قلي زاد، محمّد رضا، آذربايجان غربى در آينه تقسيمات كشورى جمهورى اسلامى ايران، با همكارى استانداری آذربايجان غربى – انتشارات حسام الدين چلبى ـ 1391.

لونكريك، ستيفن هيمسليّ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخيّاط (بيروت: دار الكشّاف، 1949).

المائيّ، أنور، أكراد باهدينان، الموصل، عام 1956).

المسعوديّ: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، جـ1، مصر، عام 1346هـ).

ملّا، جواد، كردستان والكرد وطن مقسّم وأمّة بلا دولة، تقديم: جمال

نبز، ط2 (لندن: دار الحكمة، عام 2000 م).

المنشئ البغداديّ، رحلة «المنشئ» البغداديّ سنة 1822م، ترجمه عن الفارسيّة: عبّاس العزّاويّ، بغداد، عام 1848).

نيسان، عبد الأحد يوحنّا، تاريخ أبرشيّة عقرة والزّيبار، ط1 (دهوك: دار المشرق الثّقافيّة، عام 2010).

نيكيتين، باسيليّ، الكرد: دراسة سيولوجيّة وتاريخيّة، تقديم لويس ماسينيون، نقله من الفرنسيّة وعلّق عليه: نوري طالبانيّ (لندن: دار السّاقي، عام2001).

الهاشميّ، طه، جغرافيّة العراق، ط2، بغداد، عام 1936).

مُلحَقٌ بالخرائطِ والصُّورِ

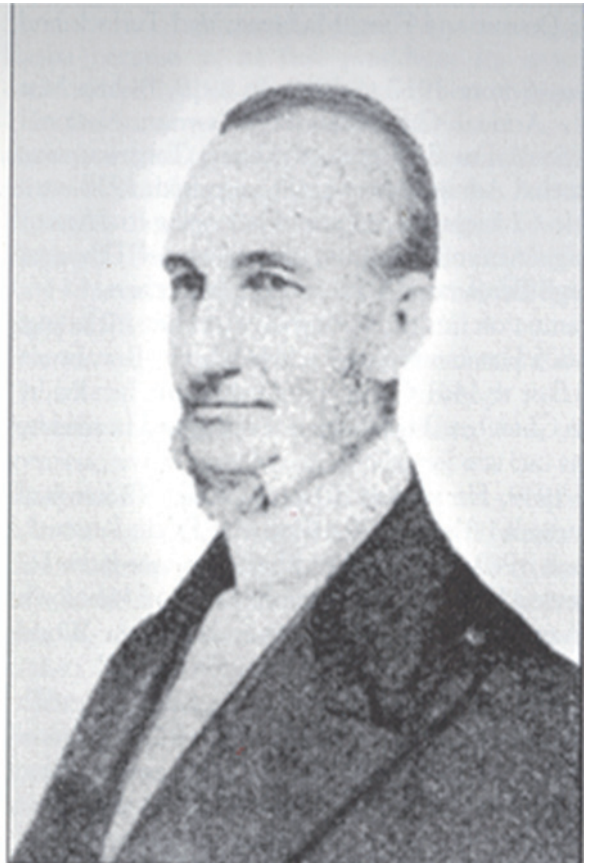

جوستن بيركنس

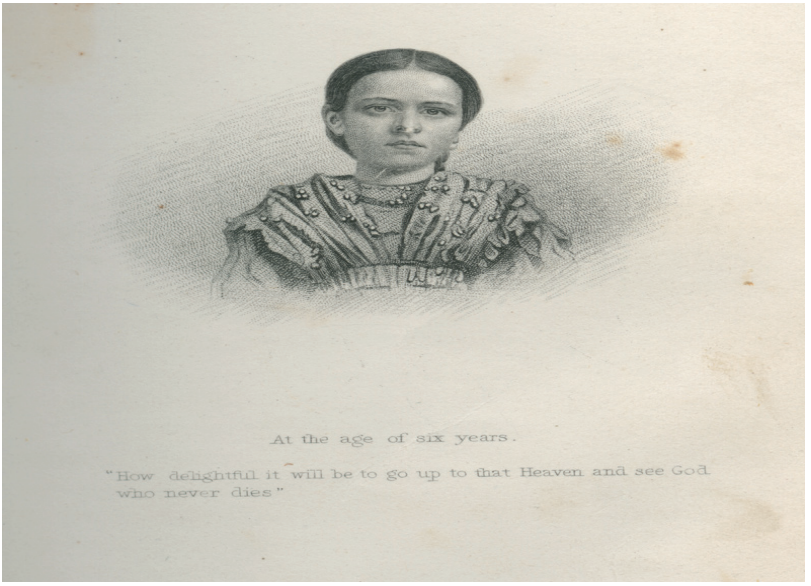

جوديث ابنة جوستن بيركنس

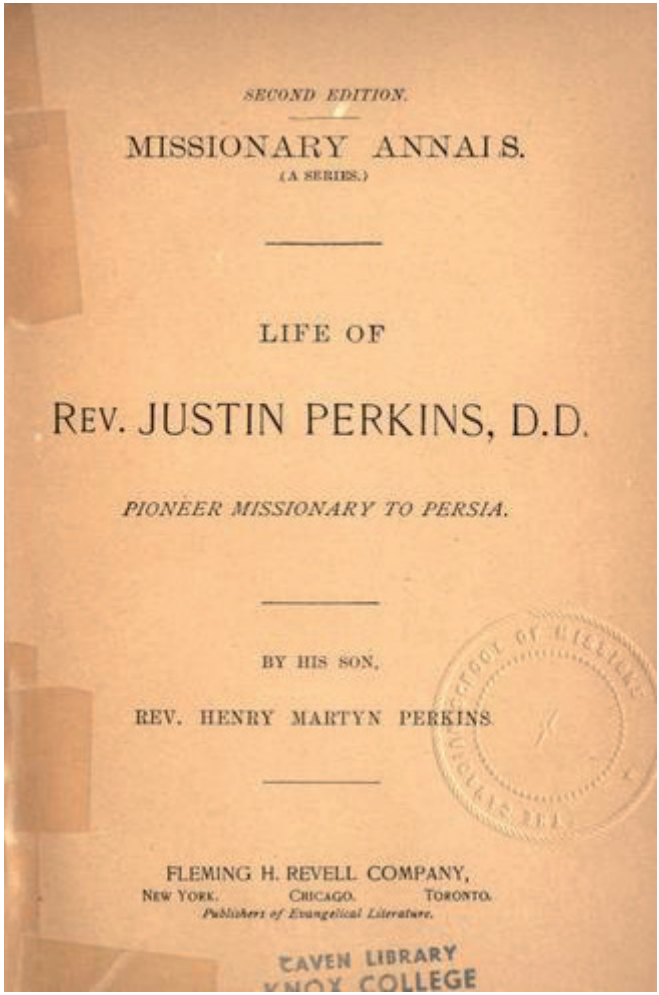
SECOND EDITION.

MISSIONARY ANNALS.
(A SERIES.)

LIFE OF

REV. JUSTIN PERKINS, D.D.

PIONEER MISSIONARY TO PERSIA.

BY HIS SON,

REV. HENRY MARTYN PERKINS.

FLEMING H. REVELL COMPANY,
NEW YORK. CHICAGO. TORONTO.
Publishers of Evangelical Literature.

LAVEN LIBRARY
KNOX COLLEGE

غلاف كتاب هنري بيركنس عن حياة أبيه جوستن بيركنس

خارطة توضح موقع بحر قزوين من نهر دجلة

بلاد ما بين النهرين

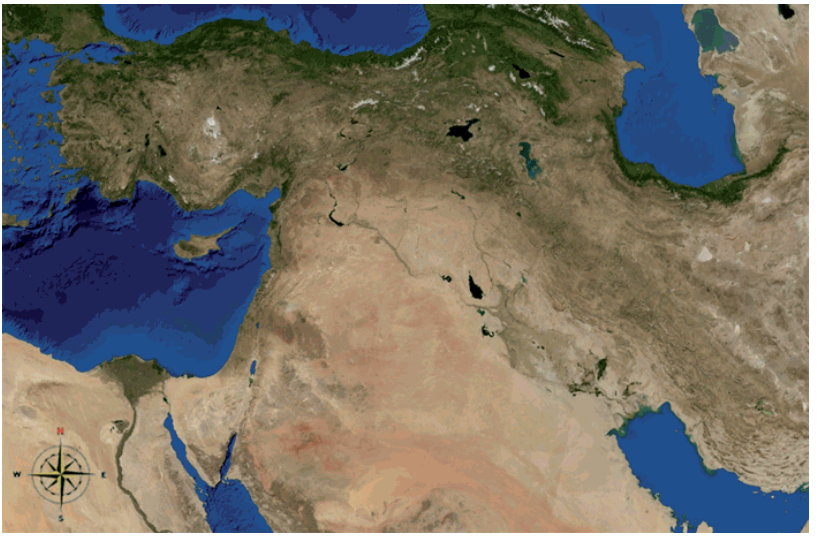

بحيرةُ اورميا نحوَ الأرضِ الكلاسيكِيَّةِ عبرَ كردستانَ العراقِ

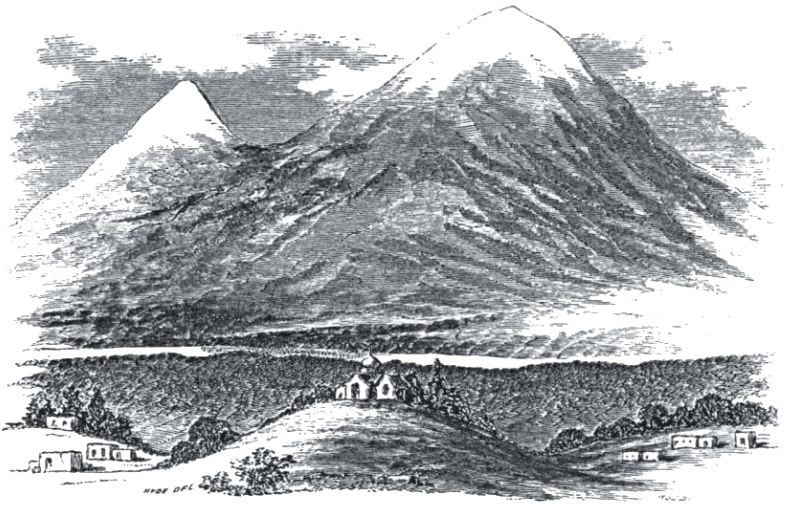

جبلُ أراراتَ بريشَةِ بيركنس

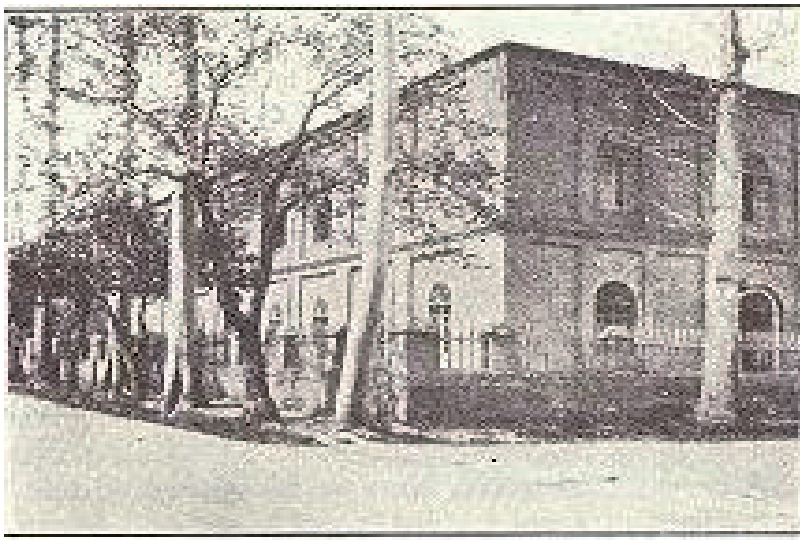

الكلِّيَّةُ الأميركِيَّةُ في أورميا

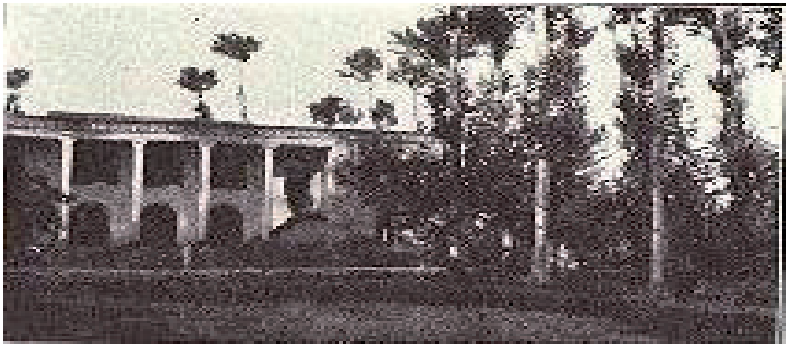

مَبنَى المبشَّرِيَّةِ الأمريكِيُّ

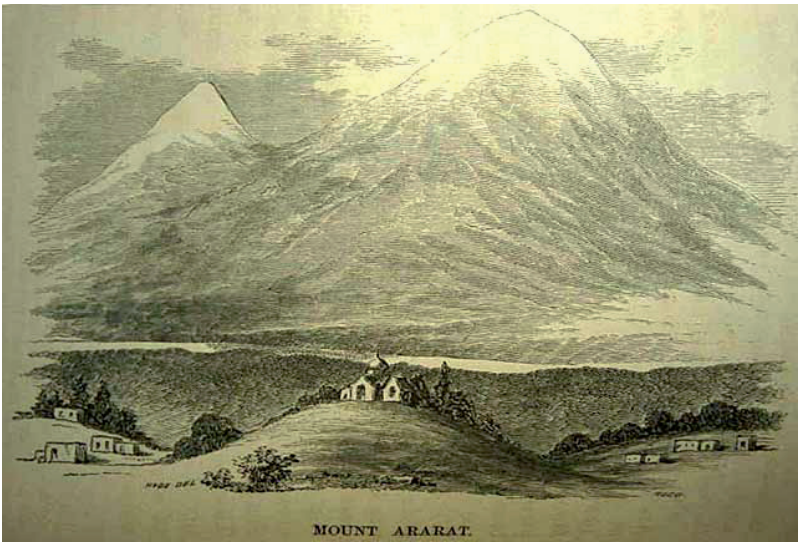

جبل ارارات

راوندوز القديمة

هاوية خليفان

راوندروز

نهر الزاب الكبير

قلعة اربيل

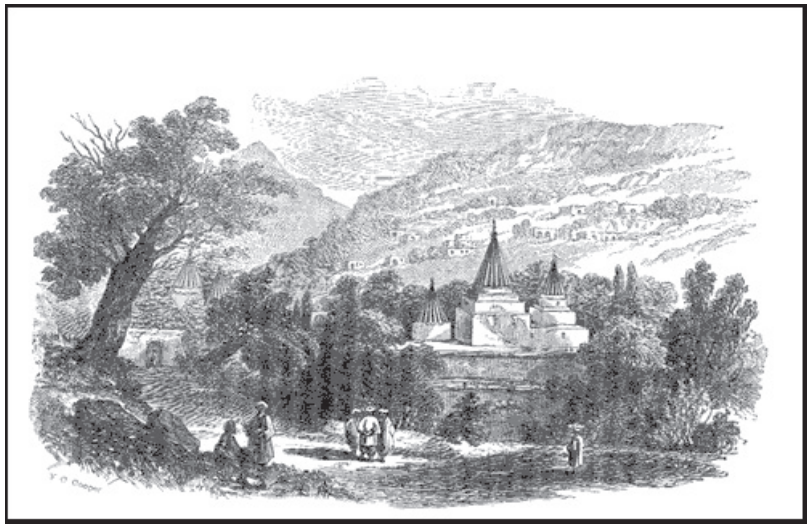

معبد الشيخ عدي بن مسافر

اطلال العاصمة الاشورية الثانية النمرود

السير هنري لايارد

راولينسون

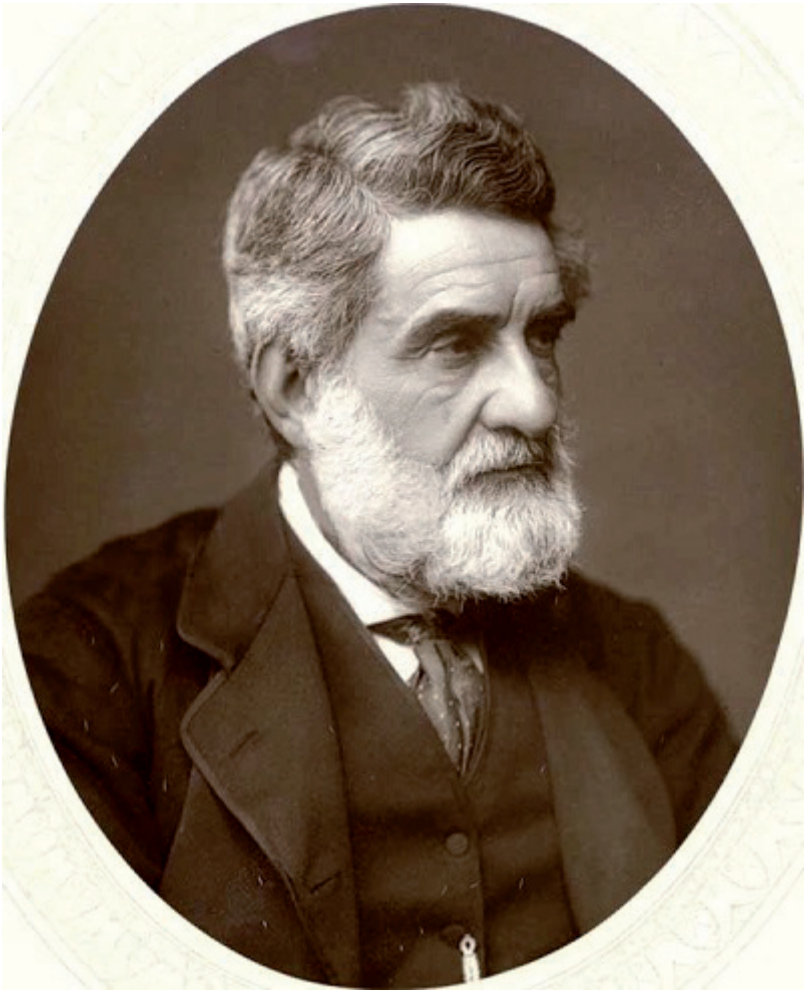

الموصلي هرمزد رسام

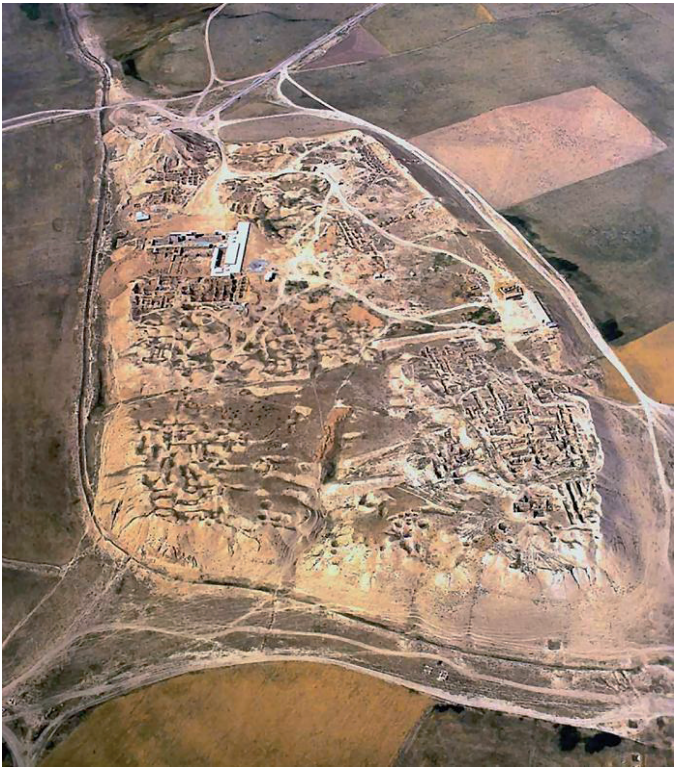

العاصمة الآشورية الثانية النمرود صورة من الجو

دير الشهيد مار بهنام واخته الشهيدة مارت سارة جوار الموصل

من آثار النمرود الاشورية

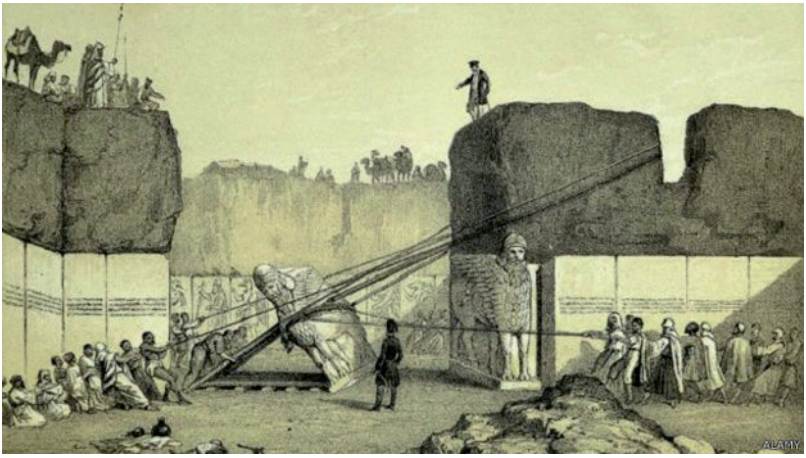

نقل الثيران الآشورية المجنحة من نينوى الى بريطانيا

الأمبراطور آشوربانيبال

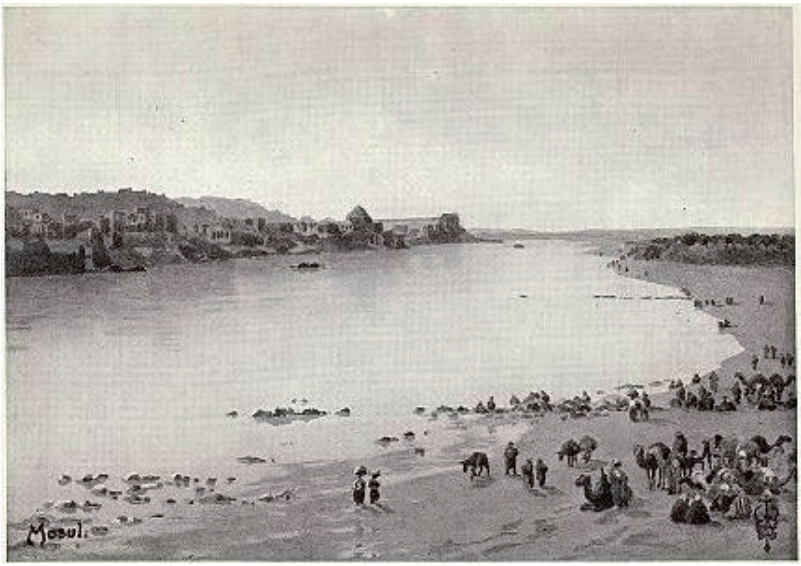

نهر دجلة يمر بالموصل

الموصل القديمة

ملكة الحضر

فهرس المحتويات

المُقدَّمَةُ ٩
الفَصْلُ الأوَّل: المُدْخَلاتُ ١٥
سيرةُ جوستنَ بيركنسَ وأوراقُ رحلتِهِ ١٥
أوَّلاً ١٧
جوستنُ بيركنسُ ١٧
التَّعريفُ التَّاريخيُّ ١٧
المَشيخِيَّةُ البْرُوتسْتانْتِيَّةُ واليَسُوعِيَّةُ الكاثوليكِيَّةُ: تاريخٌ مُقارَنٌ ٢٣
(١) ـ المشيخِيَّةُ البروتستانْتِيَّةُ ٢٣
(٢) ـ اليسوعِيَّةُ: الجزويتُ ٢٦
جذورُ التَّاريخِ المُبْكِرِ لحركةِ اليسوعِيِّينَ الجزويتِ ٢٨
دورُ اليسوعِيِّينَ الجزويتِ في التَّاريخِ الحديثِ ٣١
(٣) الشَّرقُ الأوسطُ بينَ تبشيرَيْنِ: الكاثوليكِيِّ اليسوعِيِّ والبروتستانْتِيِّ ٣٢
١ـ التَّبشيرُ والقوى التَّبشيرِيَّةُ ٣٢
٢ـ نشاطُ التَّبشيرِيَّةِ الكاثوليكِيَّةِ اليسوعِيَّةِ ٣٤
٣ـ نشاطُ التَّبشيرِيَّةِ البروتستانْتِيَّةِ ٣٥
٤ – مَنْ يكونُ جوستن بيركنس؟ ٣٧
أوَّلاً: أوراقُ بيركنسَ ٣٧
١ـ مبشِّرٌ ومُؤسِّسُ مَعلوماتٍ ٣٧
٢ـ الأهدافُ والغاياتُ والمصَالحُ الأميركِيَّةُ ٣٨
٣ـ لماذا هذِهِ المنطقَةُ مِنَ الشَّرقِ الأوسطِ؟ ٤٠
٤ـ مَشرُوعُ العملِ: رسائلُ جوستنَ بيركنسَ. ٤٢
٥ـ ماذا عَنْ النِّيَّاتِ والأغراضِ؟: ٤٥

٦ـ ما أهمِّيَّةُ هذِهِ الآثارِ؟ ٤٥
٧ـ ماذا عَنْ «الرَّسائلِ»؟ ٤٦
٨ـ ماذا عَنْ الأسلوبِ الأدبِيِّ الذِي تميَّزَ بِهِ بيركنسُ؟ ٤٧
٩ـ هل هناكَ أشياءُ مهمَّةٌ أخرَى؟ ٤٧
١٠ـ ترجمتُهُ للكتابِ المُقدَّسِ ٤٩
ثانياً: ترجمةُ وسيرةُ الرَّحَّالةِ جوستنَ بير كنسَ ٥١
١ـ حياتُهُ ٥١
٢ـ مُختَصَرُ سيرتِهِ الذَّاتِيَّةِ ٥١
ثالثا: المخاضات التاريخية الصعبة ٥٥
١ـ فحوى العملِ ٥٥
٢ـ الإبحارُ نحوَ الشَّرقِ الأوسطِ ٥٦
٣ـ في مُواجهَةِ التَّحدِّياتِ ٥٩
٤ـ جوستنُ وشارلوتُ يعودانِ إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ ٦٢
٥ـ العودةُ ثانِيةً إلى إيرانَ ٦٤
٦ـ الزوجة شارلوت ٦٥
٧ـ زهرةُ فارسَ ٦٦
٨ـ مهمَّةُ (وليام فينويك وليامز ـ Fenwick Williams) ٦٧
٩ـ قصَّةُ مَوْتِ «زهرةِ فارسَ» ٧٠
١٠ـ قصَّةُ وباءِ الكوليرا ٧٢
١١ـ موتُ جوديثَ (١٨٤٠-١٨٥٢) ٧٤
١٢ـ «يرفضُ قلمِي أنْ يقولَ: الخرابُ وطنُنا» ٧٧
١٣ـ جوستن في عامِ (١٨٥٨م) ثمَّ وفاتُهُ ٧٧
١٤ـ ما تبقّى من حياة شارلوت: ٨٠

١٥. النهاية ٨٠
الفَصْلُ الثَّاني: رحلَةُ بيركنسَ مِنْ أورميا إلى المَوْصِلِ..... ٨٣
١ـ البدايةُ..... ٨٥
٢ـ في أراضِي كردستانَ إيرانَ ٨٦
٣ـ الدُّخولُ إلى (كردستانَ العراقِ) ٩٥
٤ـ راوندوزُ..... ١٠١
٥ـ وتبدأ الرَّحلَةُ مِنْ جديدٍ ١٠٩
٦ـ نهرُ الزَّابِ الأعلى ومُواصَلَةُ الرَّحلَةِ ١١٣
٧ـ سهلُ أربيلَ ١١٨
٨ـ أربيلُ وبستورا، وعبورُ الزَّابِ الأعلى ١٢٣
٩ـ الأرضُ الكلاسيكِيَّةُ ١٣٠
١٠ـ سَهْلُ المَوْصِلِ ١٣٣
١١ـ جسرُ المَوْصِلِ ١٣٦
١٢ـ أطلالُ نينوى ١٣٨
١٣ـ جامعِ النَّبيِّ يونسَ..... ١٤٦
١٤ـ خرسبادُ وأماكنُ أخرَى ١٤٨
١٥ـ بين آثار النمرود ١٥٠
١٦ـ النِّهايَةُ..... ١٥٤
المَصادِرُ والمَراجِعُ..... ١٥٩
١ـ رسائلُ جوستنُ بيركنسُ ١٥٩
٢ـ أوراقُ بيركنسَ وأعمالُهُ: ١٦٠
٣ـ المراجعُ الأجنبِيَّةُ..... ١٦١
٤ـ الأنسكلوبيدِيَّاتُ: ١٦٨

٥ـ بالعربيَّةِ والفارسيَّةِ..... ١٦٩
مُلحُقٌ بالخرائطِ والصُّورِ..... ١٧٤